المحاضرة الأخيرة

مكتبة
Telegram Network
2019

راندى بوتش

الأستاذ في جامعة كارنيجى ميلون
بالإشتراك مع جيفرى زاسلو

مرفق به القرص المرئى المدمج

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore
... ليست مجرد مكتبة

المحاضرة الأخيرة

راندى بوتش

الأستاذ في جامعة كارنيجى ميلون
بالإشتراك مع جيفرى زاسلو

مرفق به القرص المرئى المدمج

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE

المحاضرة الأخيرة

راندى بوتش

الأستاذ فى جامعة كارنيجى ميلون
بالاشتراك مع جيفرى زاسلو

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore ... ليست مجرد مكتبة

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... ليست مجرد مكتبة ... not just a Bookstore

للتعرف على فروعنا في

المملكة العربية السعودية - قطر - الكويت - الإمارات العربية المتحدة

نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت **www.jarirbookstore.com**

للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على: **jbpublications@jarirbookstore.com**

إخلاء مسؤولية

هذه ترجمة عربية لطبعة اللغة الإنجليزية من الكتاب. وعلى الرغم من أننا بذلنا قصارى جهدنا في نشر وترجمة الطبعة العربية، فإننا لا نتحمل أي مسؤولية أو نقدم أي ضمان فيما يتعلق بصحة أو اكتمال المادة التي يضمها الكتاب، لذا فإننا لا نتحمل، تحت أي ظرف من الظروف، مسؤولية أي خسائر أو تعويضات سواء كانت مباشرة، أو غير مباشرة، أو عرضية، أو خاصة، أو مترتبة، أو أخرى. كما أننا نخلي مسؤوليتنا بصفة خاصة عن أي ضمانات حول ملاءمة الكتاب عموماً أو ملاءمته لغرض معين.

إعادة طبع الطبعة الثانية ٢٠٠٩

حقوق الترجمة العربية والنشر والتوزيع محفوظة لمكتبة جرير

Copyright © 2008 Randy Pausch
All imagery courtesy of the author, with the exception of the photographs on pp.5 and 193, by Kristi A.Rines for Hobbs Studio, Chesapeake, Virginia. Back cover photograph by Laura O'Malley Duzyk.
All rights reserved.
Jacket Design and illustration by Phil Rose.
Originally Published in the United States and Canada by Hyperion as THE LAST LECTURE. This translated edition published by arrangement with Hyperion. All rights reserved.

ARABIC language edition published by JARIR BOOKSTORE. Copyright © 2009. All rights reserved. No part of this book may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronical or mechanical, including photocopying, recording or by any information storage retrieval system without permission from JARIR BOOKSTORE.

المملكة العربية السعودية ص.ب. ٣١٩٦ الرياض ١١٤٧١ - تليفون ٠٠٠ ٤٦٢٦ ١ ٩٦٦+ - فاكس ٣٦٣ ٤٦٥ ١ ٩٦٦+

THE LAST
LECTURE

RANDY PAUSCH

PROFESSOR, CARNEGIE MELLON

with

JEFFREY ZASLOW

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore

HYPERION

إهداء

مع خالص شكرى إلى والدىّ اللذين سمحا لى بأن أحلم،

مع تمنياتى بأن يحقق أطفالى أحلامهم.

مقدمة
أعانى من مشكلة هندسية.

فها هو مظهرى الجسمانى وقد غدا فى حالة يرثى لها، وها هو كبدى وقد أصابته عشرة أورام، ولم يبق لى فى هذه الحياة سوى أشهر معدودة.

لى من الأولاد ثلاثة، وقد فزت بالزواج من امرأة لطالما راودنى حلم الارتباط بها، وما من جدوى لرثاء حالى الآن، فلن يغير من واقعى ولا واقع أولادى وزوجتى شيئًا.

كيف لى أن أقضى ما تبقى لى من أيام فى هذه الحياة؟

من الواضح جدًا أننى سأقضيها فى كنف أسرتى، فلابد من أن أكون بينهم فى رحابهم، أعتنى بهم، وأستغل كل لحظة فى الجلوس معهم، وأمهد لهم الطريق ليعتادوا الحياة بعد ذلك دونى.

وسأفكر كيف سأعلم أولادى ما كان ينبغى لى أن أعلمه لهم على مدار العشرين سنة القادمة، فمازالوا فى طور الطفولة التى لا تؤهلهم إلى مثل هذا النوع من المشاركة فى الحديث بعد، فما من أب إلا ويرغب فى تعليم أبنائه ما الصحيح وما الخطأ، وتعليمهم أهمية ما يؤمنون به، وكيفية التصدى لتحديات الحياة، كما نرغب أيضًا - نحن الآباء - فى إن يكون أبناؤنا على دراية ببعض المواقف التى عايشناها فى حياتنا لكى تكون لهم نبراسًا يهديهم فى حياتهم، ورغبتى لفعل ذلك كله هى التى دفعتنى لكى ألقى «محاضرة أخيرة» فى جامعة «كارنيجى ميلون».

فهذا النوع من المحاضرات دائمًا ما يتم تسجيلها على أشرطة الفيديو، وقد كنت أعى تمامًا ما أفعله يوم إلقائى للمحاضرة. بدا للجميع أننى ألقى محاضرة أكاديمية، ولكن بالنسبة لى كان الأمر مختلفًا؛ فقد رأيتها وكأنها الفانوس السحرى الذى قد يفركه أطفالى يومًا فتنجلى لهم الحقائق، فلو كنت رسامًا، لرسمت لهم لوحة، ولو كنت موسيقيًا لألفت لهم لحناً موسيقيًا، ولكن بما أننى محاضر فلا يسعنى إلا أن أقدم لهم محاضرة.

تحدثت فى تلك المحاضرة عن لذة الحياة ومتعها ومدى إعجابى بها، على الرغم من اقتراب رحيلى عنها، تحدثت عن الأمانة والنزاهة والعرفان بالجميل وأشياء أخرى تحتل مكانة فى قلبى، وحاولت بقدر الإمكان ألا أكون مملاً.

و أتوسم فى هذا الكتاب أن يكون استكمالاً لمشوارى الذى بدأته. ولأن الوقت لا يقدر بثمن، وأنا فى حاجة لأن أكون فى رحاب أولادى قدر ما أمكن، فقد استعنت بـ جيفرى زاسلو فى كتابة هذا الكتاب، فقد كنت أستقل دراجتى كل يوم وأمضى أطوف بها حول الجوار وأمارس تمارينى الصحية، وفى الوقت ذاته كنت أتحدث مع جيفرى عبر سماعة هاتفى المحمول على مدار 53 جولة طفتها بدراجتى، وأسمعته سردًا قصصيًا عن حياتى - يمكن أن نسميه «بالمحاضرات الثلاث والخمسين» - ليقضى بعد ذلك ساعات طوالًا فى وضع هذا السرد القصصى بين دفتى الكتاب الذى ترونه بين أيديكم.

لقد فطنا إلى الأمر من بدايته: لا يصلح أى من هذا الذى نفعله لأن يكون عوضاً عن وجود الأبوين فى حياة أبنائهما، ولكن الهندسة لا تقدم حلولاً خالية من العيوب والأخطاء، وإنما تقدم أفضل الحلول الممكنة فى إطار إمكانياتك المتاحة، وما هذه المحاضرة وذلك الكتاب إلا محاولة منى لإيجاد هذا الحل.

الجزء الأول
المحاضرة الأخيرة

الفصل الأول
ويأبى الأسد الجريح

إلا أن يزأر

هناك العديد من الأساتذة الذين يلقون محاضرات تعرف باسم «المحاضرة الأخيرة»، وربما تكون قد اطلعت على إحداهن.

لقد أصبح هذا النوع من المحاضرات عادة متعارفًا عليه فى حرم الجامعات، حيث يطلب من أساتذة قد شارفوا الموت أن يتحدثوا فى تلك المحاضرات بلسان من قد غدا مفارقته للحياة مسألة وقت وأن يفصحوا عما يشغل تفكيرهم فى تلك الآونة، وكالعادة لا يطرأ على ذهن جمهور المستمعين أثناء حضورهم لتلك المحاضرة سوى سؤال واحد: أى حكمة تلك التى ينقلها إلى العالم من بات أمر رحيله عن وجه البسيطة أمراً محتوماً؟ وأى إرث هذا الذى يفكر فيه من أيقن أن فناءه مرهون بقدوم نهار اليوم التالى؟

ولجامعة كارنيجى ميلون باع طويل مع هذا النوع من المحاضرات التى أطلقت عليها اسم «سلسلة المحاضرات الأخيرة»، وقد وجدت عندما دعانى القائمون على تنظيم هذه المحاضرات فى كارنيجى ميلون للمشاركة بإلقاء محاضرتى الأخيرة، إنهم قد أعادوا تسمية هذه المحاضرات لتصبح تحت عنوان «مشوار حياتى»، حيث يطلبون من أساتذة يقومون بانتقائهم «أن يلقوا الضوء على حياتهم الشخصية والمهنية»، وعلى الرغم من أن هذا الاسم الجديد للمحاضرة لم يرق لى، إلا أننى قبلت الدعوة لإلقائها، وتحدد شهر سبتمبر موعداً لها.

وفى هذا الوقت، جاءت نتيجة تشخيصى تفيد بأننى قد أُصبت بالفعل بسرطان

البنكرياس، ومع هذا لم يفارقنى التفاؤل، فمن يدرى! قد يحالفنى الحظ وتكتب لى النجاة وأكون بين عالم الأحياء.

وقد استمر القائمون على تنظيم المحاضرة، أثناء رحلة علاجى، فى مراسلتى بريديًا عبر الإيميل يودون معرفة ماهية ما سأتحدث عنه، حيث كانوا يقولون لى: «من فضلك أعطنا فكرة عن موضوع المحاضرة». الشكليات من الأمور التى لا تتخلى عنها بيئة العمل الأكاديمى، حتى لو كان المرء مشغولاً بأمور أخرى، كمصارعة الموت، وفى منتصف أغسطس أخبرونى بأن ملصق المحاضرة سوف يتم طبعه ولابد لى من الوقوف على عنوان للمحاضرة.

وفى الأسبوع ذاته، عرفت أن أحدث ما تلقيته من علاج قد ثبت فشله، ولم يبق لى فى العمر سوى شهور معدودة.

علمت أنه لا مانع من الاعتذار عن عدم إلقاء المحاضرة, فالجميع سيتفهم سبب الاعتذار بطبيعة الحال، ووجدت نفسى فجأة مكلفًا بالعديد من المهام, حيث لابد من تخفيف حدة الحزن والحسرة التى أصابت كل أحبائى، ولابد من تهيئة وضع أسرتى قبل رحيلى عنهم، ومع ذلك كله لم تتردد فى رأسى فكرة الاعتذار عن عدم إلقاء المحاضرة، فقد أيقنت أن تلك المحاضرة ستكون محاضرتى الأخيرة بالفعل، وهذا أمر لا مراء فيه، وتحدثت لنفسى أسألها عن ماذا أتحدث؟ وكيف سيتلقى الناس هذه المحاضرة؟ هل سأنجح؟

وحدثت زوجتى «جاى» قائلاً: «لن يكتب النجاح لهذه المحاضرة فسأطرد من قاعة المحاضرات، ولكنى أرغب فى إلقائها».

لقد كانت جاى كما عهدتها دوما نصيرتى، فقد كانت تتحمس لحماسى دائمًا، ولكنى رأيت الخوف فى عينيها هذه المرة. كنت قد انتقلت بها هى وأولادى من بيتسبرج للإقامة فى جنوب شرق ولاية فيرجينيا لتكون على مقربة من أهلها عقب وفاتى، وشعرت جاى بأن ما تبقى فى عمرى من لحظات ثمينة لابد وأن يكون من نصيب أولادنا أو تهيئة المنزل الجديد، وليس المكوث لساعات طويلة أحضر فيها لكتابة المحاضرة ثم العودة إلى بيتسبرج مجدداً لألقيها.

قالت لى جاى» لا بأس فى أن تعتبرنى أنانية، فأنا أريدك معنا بكل كيانك ووجدانك، ما ستقتطعه من وقت فى كتابة هذه المحاضرة محسوب علينا، حيث ستبعد فيه عنى وعن الأولاد».

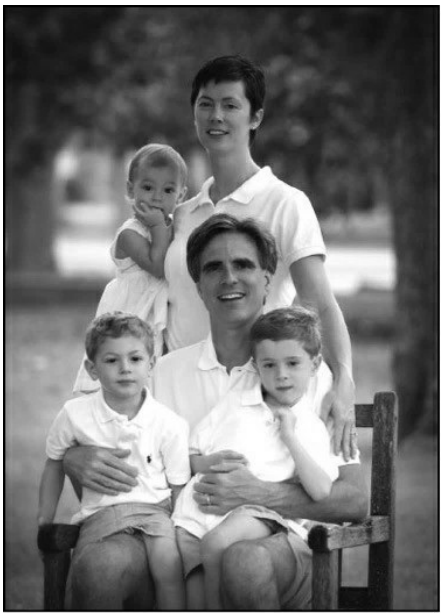

لوجان، كالوى، جاى، أنا، وديلان

تفهمت رغبة جاى وعلمت المنطلق التى تتحدث من خلاله وعلى أى أساس تبنى كلامها، فلقد تعهدت لنفسى عندما ألم بى المرض أن أنزل على رأيها وأن أحترم وأقدر ما تمليه علىّ من رغبات، ولقد رأيت رغبتها تلك وكأنها مهمة أحملها على عاتقى تقتضى العمل بما فى وسعى من أجل أن أخفف عنها وطأة العبء الذى هز أركان حياتها منذ أن أصابنى المرض.

وهذا يبرر استيقاظى لساعات طويلة أعد فيها الترتيبات التى تؤهل أسرتى للعيش بعد ذلك دونى، ومع هذا فلم أستطع أن أقاوم سحر إلقاء المحاضرة.

فلقد ألقيت العديد من المحاضرات الرائعة على مدار حياتى الأكاديمية، وعرفت بلقب أفضل المتحدثين فى قسم علوم الحاسب الآلى، وهو لقب أشبه بوصف أحد الأقزام السبعة بأنه أطولهم، وانتابنى شعور بأن قريحتى مازالت قادرة على أن تزخر بالمزيد الذى لو أفرغته لقدمت للناس شيئًا فريداً قد يتمثل فى «حكمة»، نعم يصعب على المرء التفوه بالحكمة، ولكنى أعتقد أننى قادر عليها.

لم ترق الفكرة لـ جاى بعد، وانتهينا بإحالة تلك المسالة برمتها إلى ميشيل ريس، وهى طبيبة نفسيه متخصصة فى مساعدة الأسر التى يعانى أحد أفرادها مرضًا يفضى إلى الموت، كنا قد ارتدنا عيادتها منذ عدة شهور.

وتحدثت زوجتى جاى للطبيبة، قائلة: «صدقينى يا ريس فأنا أعلم زوجى راندى

جيدًا، إنه يعمل بصورة رهيبة، وما من أحد يعلم مثلى الحالة التى سيكون عليها عندما ينهمك فى التحضير للمحاضرة، التى ستستهلك كل وقته»، وزعمت زوجتى بأن تلك المحاضرة ما من أهمية لها فى خضم هذا الكم الكبير من القضايا التى تعترض طريق حياتنا.

وقد أشارت جاى إلى مسألة أخرى تؤرقها، تمثلت فى التزامى بالموعد المحدد لإلقاء المحاضرة؛ حيث سيتعين علىَّ السفر جوًا إلى بيتسبرج قبل الموعد بيوم، وهو اليوم الذى يوافق عيد ميلاد جاى الأربعين، حيث حدثتنى قائلة: «هل ستتركنى لتسافر فى عيد ميلادى وهو آخر عيد ميلاد لى سنحتفل به معًا؟».

بالتأكيد لم يكن هذا بالأمر الهين، فمجرد التفكير فى تركها فى هذا اليوم كان يؤلمنى، ومع هذا بقيت متيماً بإلقائى لهذه المحاضرة، فقد رأيت فيها اللحظات الأخيرة التى ترسم خط النهاية لحياتى العملية، فمعها سألقى سلام الوداع على «أسرة العمل».

بت أهيم وتتنازعنى الخواطر بشأن إلقائى لهذه المحاضرة التى تشبه مباراة اعتزال لاعب بيسبول محترف يضرب كرته الأخيرة فى الملاعب، فقد أحببت دائمًا أن أشاهد آخر مشاهد فيلم The Natural، حيث روى هوبس ذاك العجوز الذى يضرب الكرة وهو ينزف دمًا بطريقة أسطوريه فتطير فى الهواء مسافة يقطع خلالها اللاعب أركان الملعب جميعًا قبل أن تعود الكرة.

استمعت الدكتورة ريس لكلينا، ووصفت جاى قائلة: «أراك امرأة قوية، تعلوها عاطفة الحب والحنان، امرأة قررت أن تقضى عقودًا من عمرها تبنى خلالها حياة أسرية رائعة مع زوجها، وتقيم على رعاية أبنائها حتى تصل بهم إلى سن الرشد، وهى تلك الحياة التى لن يكتب لها البقاء إلا شهورًا معدودة»، أما انا فوصفتنى، قائلة: «رأيت فيك رجلاً متشبثًا بحياته الأسرية ويأبى الاستسلام للواقع ويرفض أن يرقد فى سريره فى انتظار الموت»، وتحدثتُ للدكتورة ريس بمطلق الصراحة، قائلاً: «تفهمى الأمر، تلك المحاضرة ستكون آخر عهدى بأناس طالما أحببتهم، إنها فرصتى الأخيرة التى سأشير خلالها لأهم الأمور التى توليتها، لأشكل لدى الناس الخلفية التى على أساسها سأحيا فى ذاكرتهم، ولأبذل قدر المستطاع عملًا طيبًا قبل أن أفارق الحياة».

لقد شاهدتنا الدكتورة ريس أنا وجاى مرات عديدة نجلس على أريكة مكتبها يعانق بعضنا البعض بشدة والدموع تذرف من عيوننا، وأخبرتنا بمدى الاحترام المتبادل الذى نتقاسمه معًا، وتأثرت إلى أبعد حد بتعهدنا أن نقضى ساعاتنا الأخيرة فى هذه الحياة معًا، ولكنها قالت لا يمكننى تحديد ذهابه إلى تلك المحاضرة من عدمه، بل

«عليكما أن تقررا ذلك بنفسيكما»، وشجعتنا على أن نستمع إلى بعضنا البعض حتى نصل إلى القرار السليم الذى فيه الصالح لنا جميعًا.

وكان لابد علىَّ فى ظل الضيق الذى سيطر على جاى, أن أنظر إلى دوافعى لإلقاء هذه المحاضرة مرة أخرى، لماذا تمثل تلك المحاضرة أهمية بالنسبة لى؟ هل كانت تمثل تذكرة لى وللجميع بأننى مازلت حيًا؟ هل تتمثل أهميتها فى إبراز قدرتى على إلقائها؟ هل لأنها آخر مرة يسلط فيها الضوء علىّ؟ والإجابة كانت نعم من أجل كل هذه الأشياء، فقلت لـ جاى: «الأسد الجريح يريد أن يعرف هل مازال بمقدوره أن يزأر من جديد؟، إنها محاضرة الكرامة يا جاى وتقدير الذات، وشتان الفارق بينهما وبين التباهى والغرور».

ليس هذا كل ما فى الأمر، فقد بدأت أرى هذه المحاضرة على أنها مركبة سأستقلها إلى عالم لم أره قط.

وذكرتها بالمراحل السنية المختلفة لأولادنا، ممن هم فى السنة الخامسة والثانية والأولى، وقلت لها: «انظرى، ابننا ديلان فى سن الخامسة اليوم، أعتقد أن ذاكرته ستحمل القليل عن ذكرياتى معه عندما يكبر، فكم سيتذكره؟ هل كنا نتذكر نحن شيئًا عندما كنا فى مثل عمره؟ هل سيتذكر أيام صباه التى قضيتها معه لعبًا أو تلك الضحكات التى علت وجوهنا يومًا؟ ليتها تمر على مخيلته ولو سرابًا.

«بل ماذا يا جاى عن ابنينا لوجان وكالوى؟ فما من ذكريات بالمرة ستطرأ على بالهم, لا شىء مطلقًا ولاسيما كالوى، وأستطيع أن أقولها لك الآن، إنه عندما يكبر الأطفال حتما سيأتى عليهم يوم يسألون فيه وقد انفطرت قلوبهم من الحزن عن من يكون أباهم وكيف كانت هيئته، وأنا أجد أن تلك المحاضرة قد تقدم لهم الإجابة عن مثل تلك الأسئلة». وأخبرت جاى بأننى سأتأكد من تسجيل كارنيجى ميلون لهذه المحاضرة وقلت لها: «سأعطيك نسخة من شريط المحاضرة، وعندما يكبر الأطفال يمكنك أن تعرضى لهم هذا الشريط، ليعرفوا من هو أبوهم وكيف كانت حياته».

لم تنبس جاى ببنت شفة وأصغت إلىَّ تمامًا حتى أنهيت حديثى ثم عقبت بهذا السؤال الواضح: «لو كنت حقًا تريد أن تترك إرثًا تطلع أولادك عليه أو نصيحة تود أن تسديها لهم، فلماذا لا تقوم الآن وتهيئ كاميرا الفيديو وتسجل لهم شريطًا هنا فى حجرة الصالون؟».

ربما كانت الفكرة مقنعة، ولكننى على أية حال أشبه بالأسد الذى يجد نفوذه وسطوته وسط الأدغال، حيث أجد ملاذى فى حرم الجامعة أمام الطلاب، فقلت لـ جاى: «هناك شىء قد تعلمته وهو أنه لا ضرر من أن يكتسب ما يقوله الآباء لأبنائهم

بعض الصلاحية من الخارج، فلو نجحت فى رسم البسمة على وجوه المستمعين ونيل تصفيقهم فى الوقت المناسب، فسيضفى هذا المزيد من الشرعية على ما أحكيه لأولادى».

فما كان من جاى إلا أن منحتنى ابتسامة لطيفة تعلن عن موافقتها أخير بإلقائى للمحاضرة، وأدركت أننى أتوق لأن أترك لأولادى إرثًا يتذكروننى به، فقالت لى: «حسنًا، ربما كانت المحاضرة هى السبيل لذلك».

وهكذا بعد أن منحتنى جاى الضوء الأخضر للمضى قدمًا، وجدت نفسى أواجه تحديًا آخر، كيف يتسنى لى أن أصوغ حديثى الأكاديمى فى صورة يدوى صداها فى مسامع أطفالى لعقد مقبل من الزمن أو ما يزيد؟

كنت مقتنعًا تمام الاقتناع بأننى لا يجب أن أصب جل تركيزى فى المحاضرة على إصابتى بمرض السرطان، فبغض النظر عن حجم إصابتى بهذا المرض ورحلة علاجى منه، فقد تجاوزت كل هذا للحديث عن أشياء أخرى، فلم أهتم أن أتحدث فى خطابى عن رحلتى مع المرض وعن الآفاق الجديدة التى تفتح ناظرى عليها، وقد أعتقد كثير من الأشخاص أننى سأتحدث بلسان الموتى، ولكن هيهات فحديثى لم يكن إلا عن دنيا الأحياء.

* * *

واصطدمت بتحدٍ آخر اتخذ شكل سؤال كان لابد من وضع إجابة له وهو: «ما ذاك الشىء الذى يجعلنى متفرداً؟». فالإجابة عن هذا السؤال كان من شأنها أن تشكل جوهر تلك المحاضرة، وحملت إلى زوجتى ما يجول بخاطرى من أفكار بشأن هذا الأمر كى تعيننى للوصول إلى إجابة له، حيث كنا وقتها فى غرفة الانتظار بإحدى عيادات الأطباء بـ جونز هوبكينز، فى انتظار ورود نتيجة التحاليل.

وتحدثت إليها، قائلاً: «لا، ليس السرطان بالشىء الفريد»، والكل يعلم هذا، فهناك ما يربو على 37 ألف فرد أمريكى يصابون سنوياً بسرطان البنكرياس فقط.

وفكرت جديًا بأن أقدم نفسى فى هذه المحاضرة فى صورة المدرس وعالم الكمبيوتر والزوج والأب والصديق والأخ والناصح لطلابه، فكل تلك الأدوار التى تقلدتها تحظى بالمكانة العالية فى قلبى، ولكن هل جعلنى أى من هذه الأدوار شخصاً متفرداً؟

على الرغم من أننى كنت أشعر وكأننى معافى فى بدنى، إلا أننى كنت أدرك أن هذه المحاضرة تتطلب أمورًا لا تقتصر فقط على شجاعة المرء بل تتخطى حدود ذلك، وسألت نفسى:»ترى ما الذى أستطيع تقديمه فى هذه المحاضرة، وأنا

بمفردى؟».

وبينما أنا فى غرفة الانتظار فى عيادة الطبيب، واتتنى الفكرة فجأه وومض فى رأسى ذلك الشىء الذى قد يجعلنى متفرداً؛ إنه الحديث عن الأحلام التى طالما راودتنى فى طفولتى والأهداف -المعقول منها والغريب - التى سعيت دومًا لتحقيقها ونجحت فى الوصول إلى معظمها والطريقة التى مكنتنى من تحقيقها، كل ذلك كان علامة مميزة لى على مدار سنوات عمرى الخمس والأربعين، وأدركت أنه على الرغم من إصابتى بالسرطان إلا أننى رجل قد ابتسم له الحظ, وذلك لأننى عايشت هذه الأحلام، نعم عايشتها بصورة كبيرة بفضل تلك الأشياء التى تعلمتها من أناس رائعين طيلة مشوار حياتى، وقلت لنفسى: لو استطعت أن أقدم مشوار حياتى بتلك العاطفة التى أشعر بها، فأعتقد أن محاضرتى هذه قد تضع أقدام أناس آخرين على طريق تحقيق أحلامهم.

كان معى حاسوبى المحمول وأنا جالس فى غرفة الانتظار، حيث امتلأ وجدانى وقتها بالروحانيات وقمت على الفور بكتابة رسالة بريدية للقائمين على تنظيم المحاضرة، وأخبرتهم قائلاً: «أعتذر عن التأخير، لقد وقفت أخيرًا على عنوان للمحاضرة دعونا نطلق عليها «حقق أحلام طفولتك».

الفصل الثاني
حاسوبى المحمول يتحدث

عن حياتى

كيف لى إذن أن أقوم بسرد أحلام طفولتى؟ بل كيف يتسنى لى أن أقنع الآخرين بإعادة التواصل مع أحلامهم؟ فأنا عالم كما تعلمون ، وقلما واجهت مثل هذه المواقف.

مكثت أمام حاسوبى الشخصى فى منزلنا الجديد على مدار أربعة أيام أستعرض الصور الموجودة عليه, فأنا دائمًا ما اعتمدت على مخيلتى وتصورى عند إلقاء الأحاديث، لذا لم يكن للنصوص الكتابية يومًا مجال فى أحاديثى، ومع هذا فقد جمعت 3 صورة لى أنا وأسرتى وطلابى وأصدقائى، إلى جانب عدد من الرسومات والصور الشاردة التى ترتبط بأحلام الطفولة، وكان من المفترض بهذه الأشياء أن تذكرنى بما سأتحدث عنه عند وقوفى على منصة إلقاء المحاضرات.

وفى أثناء انخراطى فى التحضير لهذا الحديث، كنت أنهض من على مقعدى كل 9 دقيقة تقريبًا لأتفقد الأطفال وأتحدث معهم، صحيح أن جاى رأتنى أسعى لكيلا أكون بعيدًا قدر الإمكان عن الحياة الأسرية، ولكنها فى الوقت ذاته رأت أننى أقضى وقتًا أكثر من اللازم فى الاستعداد لهذه المحاضرة، الأمر الذى أصبح ملحوظًا جدًا مع قدومنا البيت الجديد، فقد كانت ترى أنه من الأولى أن أقوم بتنظيم تلك الحقائب والصناديق التى تملأ أركان البيت الجديد، وهذا أمر طبيعى.

فى بادئ الأمر، لم تبد جاى رغبتها فى حضور المحاضرة، وشعرت بأنه من الأفضل لها أن تمكث بالبيت فى صحبة الأطفال، حيث إن عليها التعامل مع هذا الكم الهائل من المتاع الذى تراكم فى البيت عقب انتقالهم من بيتهم القديم، ولم أنفك أقول

لها مرارًا: "أنا فى حاجة إليك هناك". حقيقة كنت فى أمس الحاجة إليها هناك.

كان علىّ السفر إلى بيتسبرج قبل موعد المحاضرة بيوم ، أى فى الواحدة والنصف مساء يوم السابع عشر من سبتمبر، وهو ذاك اليوم الذى أكملت فيه جاى ربيعها الواحد والأربعين، قبلتها وألقيت السلام على أولادى وانطلقت أقود سيارتى تجاه المطار، وفى بيت أخيها أقمنا حفلة صغيرة احتفلنا فيها معًا بعيد ميلادها، ولكن قبل موعده بيوم، لقد كان رحيلى أمراً مؤسفاً لـ جاى وتركت لها ذكرى سيئة، فها هى لن تفقدنى فى عيد ميلادها هذا العام بل وقادم الأعوام أيضًا.

بمجرد أن هبطت الطائرة مطار بيتسبرج، وجدت صديقى ستيف سيبولت وقد جاء من سان فرانسيسكو لملاقاتى، لقد تشاركنا العمل معًا منذ سنوات عندما كنت مبعوثًا فى شركة "إليكترونيك آرت"، إحدى الشركات القائمة على صناعة ألعاب الفيديو، حيث كان ستيف أحد مدرائها، وقد صلت صداقتى به إلى درجة الأخوة.

تعانقنا معًا، وأخذنا سيارة أجرة ومضينا معًا نضحك بسخرية على حالنا، وقال لى ستيف إنه لا يزال عائدًا لتوه من عيادة طبيب الأسنان، فقمت أتباهى وأقول له لم يعد ينبغى على يا صديقى أن أذهب لطبيب الأسنان بعد الآن مطلقا.

ذهبنا لنتناول العشاء معًا، ووضعت حاسوبى المحمول على المنضدة أمامى، واستعرضت سريعًا قوائم الصور الموجودة عليه التى قلصتها إلى 280 صورة فقط، ووقتها حدثنى ستيف، قائلًا:"لا يزال الوقت طويلًا، عندما يأتى وقت المحاضرة يكون الجميع قد قضى نحبًا".

وبينما كنا نستعرض الصور، رأيت نادلة فى شهور حملها شقراء الشعر فى عقدها الرابع، تتجه إلى طاولتنا، وقد كانت صور أطفالى فى هذه اللحظة واضحة على شاشة حاسوبى المحمول، فعلقت قائلة:"أوه، ما هذا الجمال"، وسألت عن أسمائهم، فقلت لها: "هذا ديلان وهذا لوجان وهذه كالوى..."، فأخبرتنى بأن لديها طفلة هى الأخرى تدعى كالوى فضحكنا معًا، ثم واصلت أنا وستيف استعراض الصور.

وعندما جاءت لنا النادلة بوجبة العشاء، قلت لها: "مبارك لك حملك، لابد أنك فى سعادة غامرة".

فأجابت قائلة: "كلا، ليس كما تعتقد بالضبط ، فقد كان حملا غير مقصود".

وبعدما ولت شطرها عنا، هالنى صراحتها المفرطة، واستوقفنى كلامها الذى حمل بين ثناياه إشارة ضمنية على أن حادثة عرضية قد تكون سببًا فى وجود إنسان على وجه هذه الأرض أو رحيله عنها، فقد لعبت المصادفة دورًا فى أن تحمل هذه المرأة بطفل لم تكن تتعمد أن تحمل به والذى سرعان ما ستحبه بلا شك فور إنجابها له، أما

أنا فلعبت المصادفة معى دورًا مختلفًا حيث أصبت بمرض السرطان وسأضطر للرحيل عن هذه الدنيا تاركًا ورائى أطفالاً سيحرمون من حبى.

وبعد ساعة واحدة من مكوثى فى غرفة الفندق، جال طيف أولادى أمامى وانا أقوم بإعداد الصور التى سأستعين بها فى المحاضرة، كانت إمكانية دخول الإنترنت لا سلكيًا غير متاحة فى غرفتى بشكل كبير، وقد كان هذا بالأمر المؤسف لأن بحثى عن الصور عبر الإنترنت لم أكن قد استكملته، وقد تفاقم الأمر سوءًا لما شعرت به من مضاعفات للعلاج الكيماوى الذى تلقيته منذ عدة أيام مضت ناهيك عن شعورى بالغثيان والإسهال.

واصلت عملى حتى منتصف الليل، وبعدها خلدت للنوم، واستيقظت مجددًا فى الساعة الخامسة صباحًا وقد انتابتنى حالة من الذعر والهلع، وجدت نفسى وقد ساورتها الشكوك بشأن نجاح هذه المحاضرة، وهمست لنفسى قائلاً: "طبيعى أن يحدث لك هذا فأنت تحاول أن توجز مشوار حياتك فى ساعة واحدة".

حاولت استعادة رباطة جأشى وأعدت التفكير مجددًا وصرت أرتب أوراقى من جديد، وبحلول الحادية عشرة مساءً، شعرت بأننى قد أمسكت الخيط الذى من خلاله سأشرع فى سرد قصتى، قمت فاستحممت وارتديت ملابسى، وفى الظهيرة جاءت جاى من المطار وانضمت إلىَّ أنا وستيف على الغداء، كان حديثنا تعلوه نبرة الحزن وتحوطه أجواء كآبة قاتمة، وتعهد لى ستيف خلال الحديث بأن يعتنى بـ جاى والأولاد من بعدى.

وفى الواحدة والنصف مساء، وجدت معمل الحاسب الآلى بالجامعة، هذا المعمل الذى كرست له معظم فترات حياتى، وقد استعد لشرف استقبالى؛ ووجدت اسمى مكتوبًا على باب المعمل، كنت فى مكتبى فى الثانية والربع وشعرت وقتها بمظاهر الإعياء وقد أصابتنى مجددًا، فقد شعرت بأن قواى قد خارت تمامًا، وأن ما أتعاطاه من دواء كيماوى قد أنهكنى للغاية، وبت أتساءل هل سأضطر إلى اللجوء لارتداء الديبار الذى أحضرته معى كوسيلة للوقاية.

نصحنى ستيف بالاستلقاء على أريكة مكتبى برهة من الوقت، وأخذت بالفعل بنصيحته، ومع هذا لم أترك حاسوبى فوضعته على بطنى وأخذت أحرك أصابعى عليه باضطراب حتى أعددت ستين صورة أخرى.

فى الثالثة والنصف مساءً، بدأ جمهور قليل يتحرك ليأخذ أماكنه فى القاعة، وفى الرابعة مساءً، نهضت من على الأريكة وأخذت فى ترتيب أدواتى وأوراقى أثناء سيرى فى حرم الجامعة حتى الوصول إلى قاعة إلقاء المحاضرة، فلم يتبق على

موعد المحاضرة سوى أقل من ساعة واحدة.

الفصل الثالث
فيل فى الحجرة

كانت جاى بالفعل بين جمهور الحاضرين الذى ملأ القاعة بأكملها، حيث لم يُتوقع حضور هذا الكم الهائل الذى بلغ عدده 400 فرد، وقد شاهدت جاى ما بدا علىّ من توتر وأنا أتأكد من أن كل الترتيبات مضبوطة على المنصة فور صعودى إليها، وبينما أنا مشغول فى ترتيب أوراقى وتجهيز أدواتى، لاحظت جاى أن بصرى قد تجاهل الجميع، واعتقدت أن عينىّ عاجزتان عن مواجهة هذا الحشد الغفير، حيث تعلم أنه ربما وقعت عيناى على صديق أو طالب من طلابى السابقين، فيتملكنى شعور وعاطفة عند النظر إليه أقف معهما عاجزًا عن الحديث.

كان صوت الضجيج يعلو فى القاعة حال تهيئة وضعى استعدادًا لإلقاء المحاضرة، فقد كان من بين الحضور أشخاص لم يأتوا من أجل شىء سوى رؤية هيئة هذا الشخص الواقف على أعتاب الموت نظرًا لإصابته بسرطان البنكرياس، وبالتأكيد كانت هناك بعض الاسئلة التى تموج فى أذهانهم من قبيل: هل ذاك بالفعل هو شعره الحقيقى؟ (وقد كان هو بالفعل، فخضوعى للعلاج الكيميائى لم يفقدنى شعرى) هل سنلتمس فى خطابه مدى قربه من الموت؟ (وإجابتى عن هذا السؤال، شاهدوا واحكموا).

وعلى الرغم من أنه لم يكن يتبقى لى سوى دقائق معدودة على الحديث، إلا أننى كنت لا أزال أتمهل فى تهيئة وضعى على المنصة وأحذف بعضاً من قوائم الصور وأعيد تنظيم قوائم أخرى، ومازال الأمر هكذا حتى أخبرنى شخص ما قائلًا: «نحن الآن مستعدون» ليعطنى بذلك إشارة البدء فى الحديث.

* * *

لم أكن يومها فى كامل أناقتى، فلم أرتد رابطة للعنق ولم أظهر فى الزى المهنى المتمثل فى الجاكت الصوف ذى الرقعة الجلدية تحت المرفقين، بل بدلًا من ذلك، فتشت فى أركان دولابى عن أن أنسب زى يعكس مظهره أحلام الطفولة لأرتديه،

وبالفعل كان.

لاشك، فقد بدوت للوهلة الأولى للجميع، أشبه بنادل يعمل فى أحد مطاعم الوجبات السريعة الموجودة على الطرق الرئيسية، ولكن فى الواقع كانت هناك شارة على قميصى قصير الأكمام تدعو إلى الفخر لأنه ما ارتدى مثله من أحد سوى المبتكرين من الفنانين والكتاب والمهندسين العاملين بوالت ديزنى ممن صنعوا لأنفسهم واحة من عالم الخيال، فلقد تم انتدابى للعمل كمبتكر مدة ستة أشهر عام 1995, ولقد كانت تلك الأشهر علامة فارقة فى حياتى، بل يمكننى القول بأنها كانت حلمًا من أحلام الصبا الذى استطعت تحقيقه، وهذا يبرر ارتدائى الدائم لهذه الشارة البيضاوية المكتوب عليها اسمى، والتى منحتنى إياها مؤسسة والت ديزنى إبان عملى فيها، فأنا أدين لتلك السنوات من حياتى بالحب الجم والثناء الكبير وأخص بالثناء تحديدًا والت ديزنى الذى أطلق عبارته الشهيرة «لو استطعت أن تحلم، استطعت أن تحقق حلمك».

بدأت حديثى بإسداء الشكر للجميع على حضورهم وافتتحت الكلام بقليل من الدعابة وبعدها قلت: «بالنسبة لمن حضر إلى هذه القاعة دون أن يكون على دراية بأمرى، فأقول له كان أبى يعلمنى دائمًا أنه لو هاجمنى فيل فى حجرتى، فعلىَّ مواجهته والتعامل معه، لذا لو نظرتم إلى أشعتى المقطعية لعلمتم أننى شخص يعانى تقريبًا من عشرة أورام فى كبده وقد أخبرنى الأطباء أن مدة بقائى فى هذه الحياة لن تتعدى من ثلاثة إلى ستة أشهر وقد انصرم منها شهر، فمن الممكن أن تحسبوا أنتم ما تبقى لى»

.

وقمت باستعراض صورة كبيرة من أشعتى المقطعية على الشاشة، ووضعت لها عنوانًا أسميته «فيل فى الحجرة» ، وألحقت بها أسهمًا حمراء يشير كل واحد منها إلى ورم مختلف.

تركت شرائح الصور تنسدل ببطء على الشاشة حتى يتسنى للجميع متابعة الأسهم، ومن ثم معرفة عدد الأورام التى أعانى منها، ثم علقت بعدها قائلا:»حسناً، تلكم هى الحقيقة التى لا نستطيع تغييرها، علينا فقط أن نقرر كيفية تقبلنا لهذه الحقيقة وتعاملنا معها، فما للمرء حيلة فى تغيير قدره».

فى تلك اللحظة كنت أشعر بعافية بدنى وبالنشاط يسرى فى جميع أنحاء جسمى، لقد دبت الروح بلا شك فىَّ جسدى العليل من جراء هذا المشهد الرهيب لجموع الحاضرين الغفيرة، وأصبح الناس فى حيرة من أمرى يتساءلون هل ذلك هو الشخص الذى دنا منه الموت، ولذلك قلت لهم: «آسف لأنى خيبت رأيكم فى فأنا لا

أبدو لكم فى صورة الرجل الذى ضربه اليأس وملأ الحزن وجدانه كما هو المفترض»، فتعالت ضحكات الحاضرين، وأردفت قائلًا: «ومع هذا أؤكد لكم أننى على دراية بحالى وأعى تمامًا ما يدور حولى».

«لقد انتقلت فى صحبة أسرتى المكونة من زوجتى وثلاثة أولاد من منزلنا القديم، وابتعنا آخر جميلًا بولاية فرجينيا، لقد فعلنا هذا لأن ذاك المنزل سيكون هو المكان الأنسب لأسرتى فى المستقبل». عرضت على الشاشة صوراً لمنزلنا الجديد الذى ابتعناه للتو، وقد علا صورة المنزل هذا العنوان «لست فى معزل عن الحقيقة». فقد توصلت أنا وزوجتى إلى قرار أشبه بالتفكك الأسرى، فلقد طلبت منها أن تغادر المنزل الذى طالما أحبته وتترك أصدقاءها المقربين, وفرقنا بين أولادنا وبين رفقائهم الصغار فى اللعب بمدينة بيتسبرج، فبقاؤنا فى بيتسبرج كان يعنى موت أسرتى جميعها عقب وفاتى، وكأننا نلقى بأنفسنا فى عين عاصفة أثرنا نحن زوبعتها، لقد انتقلت بأسرتى لأنه بمجرد رحيلى ستحتاج جاى والأولاد إلى العيش بالقرب من عائلتها، حيث سيكونون عونًا لها وللأولاد آنذاك ويحوطونهم بالحب والرعاية.

وأردت أيضًا أن أعلم الحاضرين أن السبب وراء ظهورى فى مظهر طيب وحالة جيدة نوعًا ما، هو توقف الأطباء عن مداواتى بالعلاج الكيميائى والإشعاعى الموهن للقوى، فانا أكتفى الآن بمسكنات كيماوية للألم وهو أمر يسهل تحمله، وحدثتهم قائلًا: «أنا فى تحسن ملحوظ الآن، فمظهرى الذى يدل على شخص ينعم بصحة جيده لهو أمكر أنواع الخداع البصرى التى قد ترونها يومًا، ففى الواقع تبدو حالتى الصحية أفضل من كثير منكم».

تركت المنصة واتجهت إلى منتصف خشبة المسرح، فمنذ عدة ساعات مضت كنت أشك فى قدرتى على أن أقول ما أنا على وشك التلفظ به الآن، أما الآن فانتابني شعور بالجسارة والقدرة على الحديث، نزلت إلى أسفل مستنداً على يدى وشرعت فى ممارسة تمرين الضغط.

ووسط ضحكات الحضور وعبارات الاستحسان من فرط الذهول، كدت أرى الجميع تقريبًا وهم يتنفسون الصعداء وقد زال عنهم التوتر، إننى أنا من قام بذلك وليس شخصًا فاغرًا له الموت فاه، وأكملت حديثى بعدها.

الجزء الثاني
حاول حقاً أن تحقق أحلام طفولتك

شريحة من حديثى ...
أحلام طفولتى

- عدم التأثر بالجاذبية
- اللعب فى فريق كرة القدم
- كتابة مقال فى موسوعة العالم
- أن أكون مثل الكابتن كريك
- الفوز بالدمى الضخمة
- أن أكون خيالياً مثل ديزنى

الفصل الرابع
نعم الأبوان

لقد حبانى الله بوالدين كريمين.

ولدت وفى فمى كما يقولون ملعقة من ذهب، وهى السبب الرئيسى فى أن أعيش جميع أحلام الطفولة.

كانت أمى امرأة تمتاز بشدة حزمها، فقد كانت تعمل معلمة للغة الإنجليزية القديمة وعرفت بشدتها فى التعليم، حيث كانت تكلف الطلاب بمهام تعليمية عديدة وتزيد عليهم، وعندما كان يشتكى أولياء الأمور، كانت تبرر لهم ذلك بقولها إنها تأمل فيهم خيرًا، وبما أننى ابنها فقد علمت شيئًا عن آمالها فى، وقد كان هذا من حسن حظى.

وكان والدى طبيبًا يخدم فى الجيش فى معركة «بولجى» إبان الحرب العالمية الثانية، وأنشأ مؤسسة غير ربحية لتعليم اللغة الإنجليزية للأطفال، وقد أقام مشروعا تجاريا صغيرًا من أجل أن يقتات منه تمثل فى بيع وثائق التـأمين على السيارات فى مدينة باتيمور، وقد كان جل عملائه من الفقراء الذين لا يتمتعون بسمعة مالية كبيرة أو ليس لهم من الموارد إلا القليل، واستطاع أبى أن يجد طريقة لتوفير التأمين لهم، فقد رأيت فى أبى القدوة الحسنة وذلك لملايين الأسباب.

لقد نشأت نشأة كريمة فى أسرة متوسطة الحال فى ميرلاند بكولومبيا، ولم يكن المال يمثل لنا قضية قط، والسبب فى ذلك يرجع إلى أن والدىّ لم يريا يومًا أن هناك سببًا يقتضى إنفاق الكثير من المال، فقد كانا مقتصدين إلى حد كبير، فنادرا ما تناولنا العشاء خارج البيت واقتصر ذهابنا إلى السينما على مرة واحدة أو مرتين فى السنة، فكان والدىّ يقولان لى: «شاهد التلفاز فهو بالمجان، أو الأفضل أن تذهب إلى المكتبة لتستعير كتابًا».

ذهبت عندما كنت فى الثانية من عمرى فى صحبة والدتى وأختى البالغة من العمر أربع سنوات وقتها إلى السيرك، وأردت أن أذهب إليه مرة أخرى عندما بلغت التاسعة، ولكننى وجدت والدتى تقول لى: «لماذا الذهاب إلى السيرك لقد ذهبت إليه

مرة بالفعل».

يبدو الأمر قمعيًا بمقاييس اليوم، ولكنى كنت أعتبرها بالفعل طفولة سحرية، كنت أرى نفسى فتىً منحه القدر والدين مثاليين وضعا الكثير من الأشياء موضعها الصحيح فساعدنى ذلك أيما مساعدة فى حياتى.

لم نكن نبتاع الكثير، وهذا لم يمنع من أننا كنا على دراية بكل شيء، ويرجع ذلك إلى حب الاستطلاع الشديد الذى تملك أبى عن معرفة ما يحدث وما يستجد من أمور فى الحياة من حولنا و كل ما يتعلق بمعيشتنا، وفى الواقع، كنت أعتقد وأنا فى سنوات نموى المتعاقبة أن هناك نوعين من الأسر:

1) الأسرة التى تتصفح المعجم بعد العشاء.
2) وتلك التى لا تفعل ذلك.

وكنت أ عد أسرتنا من النوع الأول، ففى معظم الليالى، كنا نختتم ليلتنا بالاطلاع على المعجم، الذى كنا نحتفظ به على رف يبعد عن الطاولة قدر ست خطوات، وكنا نقول: «لو لديك سؤال فابحث عن إجابة له فى القاموس».

فقد كانت غريزة فى أفراد أسرتنا جميعًا ألَّا نتكاسل ونتهاون عن معرفة شىء ما، بل كانت طريقتنا هى أن تفتح الموسوعة، تبحث فى القاموس، ثم تفسح المجال لعقلك كى يفكر.

ولقد كان أبى أيضًا راويًا بارعًا للقصص، حيث كان يقول دائمًا القصة لا تروى عبثاً بل لابد لها من مغزى، وأحب أبى القصص التى تتسم بروح الدعابة والفكاهة التى تكشف عن دروس أخلاقية مستفادة، فقد كان بارعًا فى مثل هذا النوع من القصص واستهوتنى طريقته فى السرد إلى درجة العشق، ولهذا السبب عندما شاهدت أختى تامى محاضرتى على الإنترنت، رأت وكأن أباها الذى يتحدث فلم ترنى سوى مجرد شخص يحرك فاه ليخرج منه صوتًا فقط، لمحت فى كلامى حكمة أبى التى جرت على لسانى، ولا أستطيع أن أنكر حدوث ذلك برهة من الوقت ففى الواقع شعرت وأنا على المسرح فى أوقات كثيرة بأننى أحاكى والدى.

وقد اعتدت على نحو شبه يومى أن أنقل الحكمة التى تعلمتها من أبى لأناس آخرين، ولم أكن يومًا لأنسب تلك الحكمة لنفسى بل لأبى وذلك لأن الآخرين دائمًا ما يسفهون من قدر الحكمة التى يقدمها لهم المخاطب، أما لو قدمتها لهم على لسان شخص غائب فستلقى قبولًا نوعيًا وستخفت نبرة غرور السامعين لها، وبالطبع عندما تفوز بوالد يمكنك الرهان عليه كوالدى، فلا يسعك إلا أن تتكلم على لسانه لا لسانك أنت، لذا كنت أستشهد بكلامه دومًا طالما سنحت الفرصة لذلك.

لقد وهبنى أبى من النصائح التى ساعدتنى فى مسيرة حياتى، كان يقول لى على سبيل المثال: «لا تتخذ قراراً دون أن يكون هناك سبب لاتخاذه»، ودائمًا ما كان يحذرنى أبى ويقول إياك والتلاعب عندما تتبوأ من القوة مكاناً، سواء كان ذلك فى عملك أو فى علاقاتك الاجتماعية، وتلك كانت كلماته: «لا تظن أن توليك عجلة القيادة يعنى دهسك للآخرين».

ولقد وجدت نفسى مؤخرًا أتحدث بلسان أبى حتى ولو لم يكن قد تلفظ بما أقول، فأيما كان حديثى، شعرت بأنه منسوب لأبى لا حديثى أنا، فقد بدا لى والدى وكأنه الرجل الذى أحاط علمًا بكل ما حوله.

ووالدتى هى الأخرى ليست فى منأى عن ذلك، بل قد أسهمت فى رسم صورة حياتى بالكثير والكثير, فقد رأت والدتى على مدار حياتى، أن جزءًا من مهمتها متمثل فى الحد من مغالاتى فى الثقة بنفسى وهذا جميل منها أقر له بالعرفان الآن، ولا تزال تجيب من يسألها هذه الأيام عن حالى وأنا صغير، قائلة: «كان يتسم باليقظة، ولكنها يقظة عادية لا تنم عن نضجه المبكر»، انظروا إلى إجابة والدتى، تصفنى بمديح وتلبسه عباءة الشكوى، فى حين نرى وصف الآباء فى عصرنا هذا لأبنائهم بالعباقرة.

عندما كنت أدرس لنيل درجة الدكتوراه كنت أتناول بالبحث موضوعًا يسمى «نظرية النعت أو الوصف»، حيث يمكننى أن أقول عنها إنها أسوأ ما تعاملت معه فى حياتى بعد مداواتى بالعلاج الكيماوى، وعندما تحدثت لأمى أشكو لها صعوبة الامتحان وتعقيده، مالت على وربتت على ذراعى قائلة: «أعلم جيداً مدى الشعور الذى ينتابك ياحبيبى، ولكن تذكر أن أباك كان يحارب الألمان عندما كان فى مثل عمرك».

بعد أن حصلت على الدكتوراه، أصبحت أمى تشعر بالسعادة وهى تقدمنى للناس قائلة: «هذا هو ابنى، نعم ابنى دكتور، ولكن ليس دكتورًا فى الطب».

لقد كان ولداى يقدران دومًا العمل لصالح للآخرين، حيث كانا يبحثان عن المشروعات غير المعهودة وينخرطان فى العمل فيها، فقد تعاهدا معًا على تمويل أحد المبانى المخصصة لإيواء 45 طالبة بتايلاند، وقد خصص هذا المبنى تحديدًا من أجل مساعدة الفتيات على البقاء فى مدارسهن وتجنب انحرافهن جنسيًا.

اعتادت والدتى أن تجود بمالها دومًا فى أعمال الخير، وكان أبى سعيدًا بالتصدق بكل ما لديه وبارتداء الخشن من الملبس وليس العيش فى الضواحى التى يحب الجميع العيش فيها، وأنا أرى أن أبى بمثل هذا التصرف رجل كريم بكل ما تحتويه الكلمة من معنى، رجل لم أر مثله، وإلى جانب هذا كان أبى أيضًا مناصرًا قويًا للعدالة

الاجتماعية، فعلى عكس أمى لم يكن أبى يطبق فكرة العادات الجامدة، فلقد كان أبى مهتماً بالقيم المثلى الأساسية ورأى فى العدالة أسمى الأهداف التى قد يسعى المرء لتحقيقها، فقد كانت تحدوه آمال عظيمة تجاه المجتمع، وعلى الرغم من أن آماله تلك كانت تئول للاشيء، إلا أن التفاؤل ظل معه لا يفارقه.

وعندما بلغ من عمره الثالثة والثمانين, أصيب أبى بسرطان فى الدم، وفور علمه أن رحيله من الدنيا قد غدا مسألة وقت، رتب للتبرع بجسده بعد وفاته لصالح خدمة العلوم الطبية، وتبرع كذلك من أجل استمرار برنامجه فى تايلاند بأموال تكفيه على الأقل لمدة ست سنوات.

العديد ممن شاهد محاضرتى الأخيرة، استوقفته صورة بعينها كنت عرضتها على أعلى الشاشة، وهى صورة أظهر فيها وأنا فى ملابس نومى متكئًا على مرفقى، أبدو للناظر إليها فى صورة الطفل الذى تراوده أحلام عظام.

وتلك القطعة الخشبية التى تعترض جسدى فى الصورة، هى مقدمة سريرى الصغير الذى صنعه أبى لى - وهو ماهر فى النجارة، وكلما نظرت إلى هذه الصورة، حيث الابتسامة التى تعلو وجهى الطفولى وتلك القطعة الخشبية التى تعترض جسدى ونظرة عينىّ الشاردة، تذكرنى بأننى قد فزت بأبوين عظيمين.

وعلى الرغم من أن أولادى سيحظون برعاية أم تكن لهم من الحب الكثير والتى أعرف أنها ستدفعهم إلى طريق المجد فى حياتهم، إلا أنهم سيفقدون آباهم، لقد تقبلت هذه الحقيقة وهى حقيقة مريرة يصعب على المرء تقبلها.

كنت أتمنى وجود أبى معى الآن لكى أساله عن كيفية قضائى لهذه الأشهر الأخيرة من حياتى، حيث كان سيسديني النصح بشأن تهيئة الأجواء تمامًا لزوجتى جاى، وبأن

أقضى من الوقت ما استطعت بين أولادى - وهى أمور أقوم بها الآن بالفعل، كما أعلم أنه كان سيرى فى انتقالى بأسرتى إلى فرجينيا عين الصواب.

وأعتقد أن أبى لو كان موجودًا ما توانى فى تذكرته لى دائمًا –أكثر من أى شىء آخر - بأن الأطفال فى حاجة إلى أن يروا حب آبائهم لهم، وذلك أمر ليس حكراً على الآباء الأحياء فقط.

الفصل الخامس
مصعد فى حجرة النوم

امتاز خيالى دومًا بالجموح الذى يصعب احتواؤه، واتسم بالعقلانية شيئًا ما مع التحاقي بالمدرسة الثانوية، وقد ألم بى شعور حثنى على أن أفرغ بعضًا من الأفكار الخيالية التى كانت تموج برأسى على جدران غرفة نومى عندما كنت طفلاً.

لذا قصدت أبى وأمى طالبًا الإذن.

قلت لهما: «أريد رسم بعض الأشياء على جدران غرفتى».

فسألونى: «مثل ماذا؟».

أجبت: «إنها أشياء تتعلق بى أنا، ستبدو رسومًا لطيفة، وسترون بأنفسكم».

اقتنع أبى بكلامى هذا، ورأى فى ذلك شيئًا عظيمًا، ومنحنى ابتسامة شعرت معها بتوهج الإبداعية، فقد أحب أن يرى أبى شرارة الحماسة التى تتقد بعين ولده وهى تزداد باطراد حتى تصبح فيضًا من التوهج، لقد فهمنى جيدًا وأدرك حاجتى إلى أن أعبر عن نفسى بطريقة تبدو غريبة الأطوار، لذا رأى فى رسومات الحائط فكرة عظيمة لصنع ذلك.

لم تتحمس والدتى بالدرجة الكافية لهذا العمل ورأته عملاً طائشاً, ولكن سرعان ما لان قلبها نظراً لما رأته فى عينى من حماسة لهذا الأمر, ولما أبداه أبى من تأييد للفكرة، فما كان منها إلا أن انصاعت وأقرت هذا العمل فى هدوء.

وبالفعل شرعت فى تنفيذ الفكرة بمساعدة أختى تامى وصديقى جاك شيرف، وواصلنا أعمال الرسم على جدران الغرفة على مدار يومين متتابعين، وبينما نحن كذلك، كان أبى يجلس بالصالون يتصفح الجريدة، ينتظر بفارغ الصبر رؤية أعمالنا فى شكلها النهائى، أما والدتى فكانت تتردد على الرواق باستمرار تتملكها حالة من العصبية الشديدة، وتتسلل إلى الغرفة تحاول أن تختلس نظرة لترى ما هذا الذى نصنع، ولكننا نجحنا فى أن نبقى فى منأى عن جميع العيون، كما يقولون فى الأفلام

كنا فى «موقع مغلق».

ماذا عن ماهية تلك الرسومات إذن؟

حسناً، رسمت على جدار الغرفة صيغة معادلة تربيعية، حيث تتمثل القوة الكبرى فى هذه المعادلة فى الجذر التربيعى، فلقد اعتقدت دومًا أن هذا شىء يستحق الاحتفاء به، حيث كتبت على

الجدار عن يمين الباب هذه المعادلة:

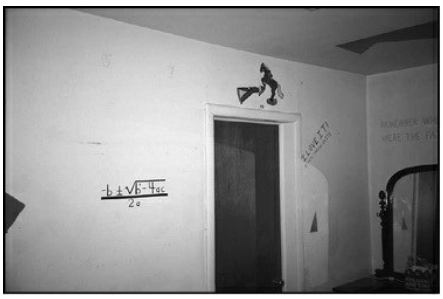

ورسمت أنا وجاك مصعدًا فضيًا كبيرًا على الباب، وعن يسار الباب، رسمنا أزرارًا بأعلى وبأسفل وفى أعلى المصعد رسمنا لوحة مكتوبًا فيها من واحد لستة تشير إلى أعداد الطوابق، وجعلنا علامة الطابق رقم ثلاثة مضيئة لتشير إلى أن هذا الطابق مطلوب. كنا نعيش فى منزل ذى طابق واحد، لذا كنت أحاول أن أتخيل أننى أسكن بيتًا من ستة طوابق، ولكن عندما أعود بذاكرتى للوراء أقول لماذا لم أجعل تلك الطوابق سبعين أو ثمانين؟ وسألت نفسى إذا كنت ممن تصل بهم أحلامهم إلى حد اللامعقول فلماذا جعلت المصعد يتوقف عند الطابق الثالث؟ حقيقة لا أعلم، ربما كان ذلك رمزًا على التوازن فى حياتى بين الطموح والواقع.

وفى ضوء مهاراتى الفنية المحدودة، رأيت أنه من الأفضل أن أظهر جميع الرسومات فى أشكال هندسية، لذا رسمت مركبة فضاء صغيرة وزودتها بأجنحة، ورسمت مرآة سنو وايت، وكتبت عليها هذه العبارة: «هل تتذكر عندما قلت لك إنك الأجمل؟ كنت أكذب عليك».

وعلى سقف الغرفة كتبت أنا وجاك تلك العبارة: «أنا معلق على السطح» وتعمدنا عند كتابتها أن أن تكون حروفها معكوسة، لذا فقد بدت وكأن هناك شخصاً مسجوناً يكتب نداء استغاثة.

ولأننى أحببت لعبة الشطرنج، فقد رسمت تامى قطعًا من قطع الشطرنج (كانت هى

الوحيدة فينا التى ليس لديها أى مهارات فى الرسم مطلقًا)، وبينما كانت تامى منهمكة فى رسمها، كنت أرسم غواصة تقبع فى الماء وذلك خلف السرير، وعلى غطاء السرير رسمت منظاراً وكأنه يبحث عن سفن العدو.

لطالما أحببت قصة «صندوق باندورا»، لذا قمت أنا وتامى برسم صورة له، وهذه القصة مردها إلى الأساطير الإغريقية، ومفادها أن باندورا قد وقع فى يديها صندوق ملىء بالأشرار الموجودين فى جميع أنحاء العالم، وطلب منها ألا تفتحه ولكنها خالفت ذلك، وبمجرد أن أزاحت غطاء الصندوق انتشر الشر ليعم أرجاء الدنيا، ودائمًا ما كنت أرسم نهاية لهذه القصة فى مخيلتى تبعث على التفاؤل، وعلى يسار قاع الصندوق كانت كلمة «أمل» مكتوبة، لذا قمت بكتابة كلمة «أمل» داخل صندوق باندورا، وما أن رأى جاك هذه الكلمة لم يستطع ان يمنع نفسه من كتابة كلمة «بوب» فوقها، وعندما كان يزورنى أصدقائى كانت تلك الكلمة تستوقفهم لدقيقة ليخمنوا السبب فى كتابة هذه الكلمة فى هذا المكان.

وبما أننا كنا فى أواخر السبعينات فقد كتبت على الباب «ديسكو»، ورأت والدتى أن مثل هذا التصرف سوقى، وفى غفلة منى قدمت والدتى إلى غرفتى ذات يوم وأزالت تلك الكلمة، وكان ذلك هو التغيير الوحيد الذى طرأ على تلك الأعمال الفنية.

ولقد كان أصدقائى يصيبهم الانبهار دائمًا كلما دخلوا إلى غرفتى، وكانوا يقولون لى: «نحن لا نصدق أن والديك قد تركاك تفعل هذا».

وعلى الرغم من أن الأمر لم يكن يروق لوالدتى إلا أنها لم تمح شيئًا من هذه الرسومات، حتى بعد رحيلى عن البيت بسنوات طويلة، فى الحقيقة، أصبحت غرفتى هى أهم ما يستوقف الزائرين لمنزلنا، وبدأت أمى تدرك أن جميع الزائرين يشيدون بهذا العمل ويرون أن السماح بعمل هذه الرسومات لهو أمر طيب.

فيا أيها الآباء، لو لدى أولادكم رغبة فى القيام بأعمال فنية فى غرف نومهم، دعوهم يفعلوا ذلك، وصدقونى، إنه أمر لا بأس به ولن يبخس من قيمة المنزل شيئًا عند إعادة بيعه.

لا أعرف حقيقة عدد المرات التى ذهبت فيها لزيارة بيت الطفولة، ولكن كل مرة أذهب فيها إلى هناك أعتبرها منحة بالنسبة لى، حيث أبقى فى سريرى الذى صنعه لى أبى، وأطوف ببصرى أنظر إلى تلك الجدران المجنونة، وأفكر كيف سمح لى والدى بصنع ذلك وبعدها أخلد للنوم وأنا فى حالة من السرور أشعر معها بأننى امرؤ قد واتاه الحظ.

الفصل السادس
التحليق فى الهواء بلا جاذبية

من المهم أن تكون لدينا جميعًا أحلام محددة.

عندما كنت طفلًا فى المرحلة الابتدائية، كان العديد من أقرانى فى المدرسة يراودهم حلم بأن يكونوا رواد فضاء، كنت مدركًا منذ البداية بأن وكالة الفضاء ناسا ليست فى حاجة إلىَّ، فقد سمعت بأن رواد الفضاء لا يرتدون النظارات ورأيت أنه لا بأس فى ذلك، لم تكن رغبتى فى أن أكون رائد فضاء بمعنى الكلمة بل كل ما أردته فقط هو أن أخوض تجربة التحليق فى الهواء.

ابتكرت ناسا طائرة تستعين بها لكى تعمل على تكيف رواد الفضاء مع انعدام الجاذبية، كان الجميع يطلق على هذه الطائرة اسم «مذنب التقيؤ»، وعلى الرغم من ذلك كانت ناسا تسميها بـ «أعجوبة انعدام الوزن»، وذلك بهدف تخفيف حدة وقع اسم هذه الطائرة.

وأيما كان اسم هذه الطائرة، فهى عبارة عن آلة استشعار تبعث أقواسًا كهربية شبيهة بالقطع المكافئ، وعلى قمة كل قوس تأخذ حوالى 25 ثانية حتى تشعر بانعدام الوزن الشديد، وعندما تقلع هذه الطائرة تشعر وكأنك فى سباق عربات ترفيهى، ولكنك فى الواقع تكون معلقًا تطير فى الهواء.

وقد أصبح تحقيق حلمى أمرًا محتملًا عندما علمت بأن ناسا لديها برنامج يسمح بتقديم طلبة الجامعات لاقتراحات بشأن التجارب الخاصة بهذه الطائرة، وقد قدم فريق طلاب فريق جامعة كارنيجى ميلون بالفعل مشروعًا مستعينين فيه بالواقع الافتراضى.

فالشعور بانعدام الوزن أمر من الصعب أن يتخيله من قضى طوال عمره على الأرض، فمع انعدام الجاذبية، لا يتوافق ماتسمعه أذنك الداخلية - التى تحافظ على توازنك - مع ماتراه عيناك، ونتيجة لذلك تشعر بالغثيان، وقد كان سؤالنا الذى قدمناه فى الاقتراح، هل يمكن للواقع الافتراضى أن يكون مفيداً فى هذا الصدد؟ وقد كان

سؤالا وجيهاً، وتمت دعوتنا على أثره إلى مركز حونسون للفضاء من أجل أن نستقل هذه الطائرة.

لعلى كنت أكثر تحمسًا من الطلاب أنفسهم، فها هى لحظة التحليق فى الهواء التى كنت أنتظرها قد جاءت، ولكن جاءتنى أخبار سيئة فى نهاية الأمر، فقد صرحت وكالة الفضاء ناسا بأن المشرفين لا يحق لهم مطلقًا السفر مع طلابهم.

انفطر قلبى لسماع هذا الخبر، ولكنه لم يثنينى عما أسعى إليه، حاولت أن أجد مخرجًا من هذا المأزق، لذا قررت أن أقرأ بعناية مجموع الكتابات بشأن هذا البرنامج محاولاً أن أجد ثغرة أستطيع من خلالها ركوب الطائرة، وبالفعل عثرت عليها، دائمًا ما تتوق ناسا إلى الدعاية الجيدة، ومن الممكن أن تسمح بالسفر لصحفى من مسقط رأس هؤلاء الطلاب.

اتصلت بمسئول فى وكالة ناسا وسألته عن رقم فاكسه البريدى، فأجابنى قائلاً: «وما السبب لكى ترسل لنا فاكسًا بريديًا»، فأوضحت له أننى أريد أن أقدم استقالتى كمشرف على الطلبة وأتقدم بطلب على أننى صحفى.

وقلت له: «سأرافق طلابى وأنا أتقلد دورًا جديدًا متمثلًا فى كونى أحد الأفراد العاملين بوسائل الإعلام».

فقال لى: «ألا ترى أن هذا الأمر تعوزه الشفافية نوعًا ما؟».

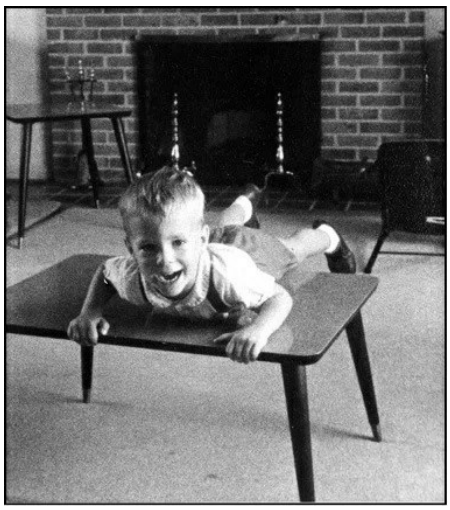

كنت فقط أريد الطفو...

فأجبته: «بالتأكيد»، ولكننى وعدته أيضًا بأننى سأعرض المعلومات المتعلقة بتجربتنا على المواقع الإخبارية على الإنترنت، وسأرسل فيلمًا يتعلق بمجهوداتنا

بشأن الواقع الافتراضى إلى مزيد من الصحفيين، كنت أعلم أن هذا الأمر سينجح بلا شك، وبالفعل فقد أعطانى رقم فاكسه البريدى.

وبعيدًا عن هذا فهناك درس لابد أن نتعلمه: لابد أن يكون لديك دومًا كارت رابح تستخدمه فى الوقت المناسب.

رحلتى مع انعدام الجاذبية كانت مدهشة (ولم أتقيأ خلالها، شكرًا على سؤالك)، على الرغم من ذلك فقد لحقنى بعض الأذى الهين، وذلك لأنه فى نهاية الخمس والعشرين ثانية السحرية، وعندما تعود الجاذبية للطائرة مرة أخرى، تشعر بأن وزنك قد زاد الضعف تقريبًا، وعندها يمكن أن تسقط على الأرض بصورة عنيفة، ولذا كانوا يقولون لنا مراراً: «أقدامكم إلى أسفل!» لكيلا تصطدم أعناقكم بالأرض.

لقد نجحت بالفعل أن أطير على متن هذه الطائرة، حيث حققت أحد أحلامى بعد مرور أربعة عقود، وهذا يبرهن على أنك لو وجدت مخرجًا، يمكنك أن تنفذ منه.

الفصل السابع
لم أتعمد أبدًا دخول عالم كرة القدم

أحب كرة القدم الأمريكية وأمارسها، كانت بداياتى معها عندما كنت فى التاسعة من عمرى، وبفضلها تمكنت من أن أجتاز أشياء كثيرة، فلقد ساعدتنى فى أن أكون كما ترونني الآن، وعلى الرغم من أننى لم يحالفنى الحظ باللعب فى الدورى المحلى، وقد كان هذا حلمًا لى لم أنله، إلا أننى أعتقد أحيانًا أننى بلغت الكثير من أحلامى من خلال سعيى لتحقيق هذا الحلم.

بدأ عشقى لكرة القدم الأمريكية، عندما أخذنى أبى دون إرادتي لكى ألتحق بأحد الفرق وكنت وقتها أركل الأرض بقدمى وأصرخ لا أريد الذهاب، فلم تكن لى رغبة فى أن التحق بدورى كرة القدم، كنت ضعيف البنية وأصغر الأطفال الموجودين، وقد تحول خوفى هذا إلى عذاب عندما قابلت مدربى، جيم جراهام، وهو رجل ضخم الجثة، فارع الطول، كان يلعب مدافعًا فى فريق ولاية بين، وقد كانت طريقته فى اللعب تقليدية، نعم قد كانت تقليدية بالفعل، على سبيل المثال كان يعتقد بأن التمريرة الأمامية هى تمريرة مخادعة.

فى أول أيام التدريب، كدنا نموت من الخوف الذى ملأ قلوبنا من المدرب، وإلى جانب هذا كنا نتدرب دون كرة، وبعد صبر وطول صمت نطق أحد الأطفال بلساننا قائلاً: « أيها المدرب معذرة إننا نتدرب دون كرة».

فأجابه المدرب: «لسنا فى حاجه إلى كرة».

وساد الصمت الملعب، بينما نحن نفكر فيما قاله المدرب.

ثم تحدث المدرب مرة أخرى يسألنا: «كم عدد لاعبى كرة القدم الأمريكية الذين يشتركون فى المباراة؟».

فأجبناه قائلين: «أحد عشر لاعبًا فى كل فريق، بمعنى أن مجموع الفريقين هو اثنان وعشرون لاعباً».

فطرح علينا سؤالًا آخر: « كم عدد اللاعبين الذين يلمسون الكرة؟».

فأجبناه: «لاعب واحد فقط».

فقال: « حسناً، سنصب تركيزنا فى التدريب إذن على هؤلاء الذين لا يلمسون الكرة».

الأساسيات، كانت تلك هى المنحة التى أعطانا إياها المدرب جراهام، نعم إنها الأساسيات ثم الأساسيات، فبما أننى أستاذ فى الجامعة أرى أن تعلم الأساسيات هو أحد الدروس التى يغفل عنها الأطفال، فيجب أن تكون ملمًا بالأساسيات أولًا وإلا فشلت فى عمل الأشياء الأخرى.

* * *

اعتاد المدرب جراهام أن يضغط علىَّ فى ممارسة التمارين، وأتذكر له تمريناً قال لى فيه: «أنت مخطئ بالكلية، ليس هكذا يؤدى التمرين يا بوتش، أعده مرة أخرى». حاولت أن أؤديه كما طلبه منى، ولكنى لم أستطع فقال لى: «أتعبتنى يا بوتش وعقاباً لك ستؤدى تمرين الضغط بعد انتهاء هذا التمرين».

وأخيرًا عندما طردت من التمرين، جاءنى مدرب مساعد يهدئ خاطرى وقال لى: «أثقل عليك المدرب جراهام فى التمرين، أليس كذلك؟».

وبالكاد خرجت منى كلمة: «بلى».

فأخبرنى المساعد قائلًا: «هذا شىء عظيم، لأنك عندما ترتكب خطأ وتفتقد توجيه الآخرين، يدل هذا على أنك أصبحت خارج دائرة اهتمامهم».

وقد أصبح هذا الموقف درسًا لى طوال حياتى، عندما ترى نفسك ترتكب خطأ فى مكان لا يلومك فيه أحد، فاعلم أنك لست فى المكان الصحيح، قد تكره أن يوجه أحد النقد لك، ولكن اعلم أن من يفعل هذا هو شخص يحبك ويهتم بك ويدفعك نحو الأفضل.

فلقد كثر الحديث أيامنا هذه عن إعطاء الأطفال حق تقدير الذات، وفى الواقع تقدير الذات شىء لا يعطى للأطفال بل يخلقه الأطفال بأنفسهم، وبالنسبة للمدرب جراهام فلم يكن يعرف ما يسمى بالتدليل، ولكن ماذا عن تقديره للذات؟ أدرك المدرب جراهام أن هناك طريقة واحده فقط يستطيع أن يشعر بها الأطفال بتقدير الذات، وذلك من خلال تكليفهم بمهام تفوق طاقتهم, حيث يعملون عليها بدأب وجد حتى يستطيعوا إنجازها، ثم يعيد تلك التمارين عليهم مرارًا وتكرارًا.

عندما وقفت أمام المدرب جراهام أول مرة فى تدريبى، كنت أبدو طفلًا ضعيف البنية ليس لديه من المميزات أى شىء، ليس لديه قوة جسمانية ولا يستطيع التكيف مع ما حوله، ولكنه جعلنى أبصر أننى لو بذلت قصارى جهدى، سأحقق غدًا ما

عجزت عنه اليوم، والآن وبعد أن ناهزت السابعة والأربعين من عمرى، أستطيع أن أخبركم بثلاثة أمور يفتخر بها أى لاعب هجوم رئيسى فى دورى كرة القدم الأمريكية المحلى.

فأنا أدرك أن مدرباً مثل المدرب جراهام، لو كان موجوداً هذه الأيام لطرد من منافسات دورى الشباب، حيث كان سيقسو فى تدريباته، وبالتالي سيشتكى منه الآباء.

أتذكر مباراة لنا كان أداء فريقنا فيها سيئاً للغاية، وفى الاستراحة انطلقنا نتهافت جميعًا على الماء، عندها امتقع وجه المدرب جراهام وصاح فينا مندهشًا: «هذه أكبر انطلاقاتكم، وحماسكم هذا نحو الماء لم أر مثله فى المباراة!». كنا وقتها فى الحادية عشرة من عمرنا، فوقفنا مكاننا إثر صيحته يتملكنا الخوف من أن تطولنا يده بالضرب واحدًا واحدًا، وصاح فينا قائلاً: «ماء، أتريدون الماء أيها الأطفال؟». ها هو الماء وقام فرفع حاوية الماء وسكب ما فيها على الأرض.

شاهدناه يمضى بعيداً و هو يتمتم لمدربه المساعد، قائلاً: «يمكنك أن تعطى الماء لخط الدفاع الأول، فلقد أبلوا بلاءً حسناً».

والآن دعونى أتحدث معكم بصراحة: إن المدرب جراهام لم يكن يقصد بتصرفه هذا أن يعرض حياة أى طفل للخطر، فأحد الأسباب التى جعلته يتصرف بهذا الشكل أنه كان يخشى علينا الإصابات، فعلى الرغم من أنه كان يومًا باردًا، إلا أن الماء كان فى متناولنا جميعًا فى الشوط الأول من المباراة، وقد كان هجومنا على الماء فى فترة الاستراحة تصرفًا صبيانيًا غير لائق أكثر من كونه احتياجًا للماء.

ولو حدث مثل هذا الأمر فى يومنا هذا، لرأينا آباء الأولاد يخرجون هواتفهم المحمولة للاتصال بالقائمين على تنظيم دورى كرة القدم، أو الاتصال بمحاميهم.

إنه ليحزننى أن أرى كثيراً من الأطفال المدللين اليوم، فأنا أحاول أن أتذكر الشعور الذى انتابنى خلال فترة الاستراحة هذه، نعم كنت فى الثالثة عشرة من عمرى، لا أنكر أبدًا أننى شعرت بالإهانة، فلقد خذلنا المدرب جراهام جميعًا، وقد جعلنا نشعر بذلك بطريقة لن تزول عن ذاكرتنا أبدًا، نعم لقد كان محقًا، فلم نظهر حماسًا فى هذه المباراة السيئة كذلك الحماس الذى ظهر علينا ونحن نتهافت على الماء، وقد جاء تعنيفه لنا بنتيجة، حيث بذلنا فى الشوط الثانى كل ما فى وسعنا من جهد.

لم أر المدرب جراهام منذ أن كنت مراهقًا، ولكنه بقى فى مخيلتى لا يفارقنى، يدفعنى تذكرى له نحو العمل الجاد كلما شعرت بالتكاسل، فهو محفزى دائمًا نحو الأفضل، فلقد بقيت متأثرًا به طوال حياتى.

* * *

فعندما نرسل أولادنا لممارسة رياضة منتظمة - ككرة القدم الأمريكية أو كرة القدم العادية أو السباحة أو أيًا ما يكون - نحتاج إلى أن يتعلموا أموراً مهمة بالفعل: كالعمل فى فريق واحد والدأب والمثابرة والروح الرياضية وقيمة التفانى فى العمل، والقدرة على التعامل مع الصعاب، وهذا النوع من التعلم غير المباشر هو ما يحلو للبعض أن يسميه بـ «خداع الرأس».

وهناك نوعان من خداع الرأس أولهما حرفى بمعنى الكلمة، ففى ملعب كرة القدم، يحرك اللاعب رأسه بطريقة فى اتجاه معين لتعتقد أنه سيجرى فى الاتجاه الذى حرك فيه رأسه، ثم يجرى فى الاتجاه المعاكس، بالضبط كالساحر الذى يستخدم أسلوب التضليل، وقد علمنا المدرب جراهام أن نراقب خصر اللاعب، حيث كان يقول لنا: «عندما ترون عضلات بطن اللاعب بدأت فى التحرك فى اتجاه معين فاعلموا أن جسده سيتحرك فى نفس الاتجاه هو الآخر».

والنوع الثانى من خداع الرأس هو النوع الأهم - حيث يتعلم الأشخاص أشياء لا يدركون أنهم يتعلمونها حتى ينخرطوا جيدًا فى أدائها، فلو كنت متخصصاً فى خداع الرأس، فإن هدفك غير المباشر هو أن تعلم الناس أشياء تريدهم أن يتعلموها فعلًا.

وهذا النوع من خداع الرأس نوع حيوى بكل تأكيد، وقد كان المدرب جراهام بارعاً فيه.

الفصل الثامن
ستجدنى تحت حرف ال- V

أعيش فى عصر الكمبيوتر وأحب العمل فى بيئته! فأنا أعشق الانخراط فى التفاصيل المتعلقة بعمل الكمبيوتر كوحدات قياس الصورة ومحطات عمل الشاشات المتعددة، وثورة المعلومات، فبإمكانى فى الحقيقة أن أتخيل وجود عالم خالٍ من الأوراق.

وعلى الرغم من ذلك فقد نشأت على خلاف هذا.

ولدت فى فترة الستينات، وكان الورق فى هذه الفترة هو المصدر الرئيسى للمعرفة، ففى فترة الستينات والسبعينات كان أفراد بيتنا يعشقون الاطلاع على موسوعة الكتب العالمية - الصور والخرائط وأعلام البلدان المختلفة، والملحقات اليدوية التى تتحدث عن سكان كل ولاية، وشعارها ومستوى تقدمها.

لم أقرأ بالطبع جميع أجزاء الموسوعة بحذافيرها كلمة كلمة، ولكن كنت ألقى على كل جزءٍ منها نظرة، فقد انبهرت بطريقة جمع هذه الأجزاء التى تحتوى على موضوعات مختلفة معًا وكنت أتساءل، من كتب هذا الجزء المتعلق بالنمور؟ كيف كتب بطريقة جعلت محررى هذا الموسوعة يقولون:»إن ما تعرفه أنت عن النمور يفوق ما يعرفه أى شخص آخر، فهل يمكنك أن تكتب لنا عنه نبذة؟»، ثم تصفحت الجزء الخاص بحرف الـz وتساءلت: مَنْ ذلك الشخص الذى أحاط علما بقبيلة الزولو حتى يكتب لنا نبذة عنها؟ هل كان هو نفسه من الزولو؟

كان والداى مدبرين، فقد جاءا على غير عادة الأمريكيين، فلم يبتاعا أى شيء من أجل لفت انتباه الآخرين، أو كنوع من أنواع الترفيه لنفسيهما، ولكنهما ابتاعا موسوعة كتاب العالم، وشعرا بالسعادة فى ذلك، حيث كانا يقضيان وقتاً كبيراً فى الاطلاع على هذه الموسوعة ورأيا أنهما ينقلان بذلك المعرفة لى أنا وأختى، كما شرعا أيضاً فى طلب الأجزاء التى تصدر سنويًا من هذه الموسوعة، ففى كل عام كان يصدر جزء جديد به إنجازات علمية جديدة وأحداث راهنة - وقد صنفت كالآتى,

1970، 1971، 1972، 1973 - وكنت أتلهف لقراءة هذه الكتب، وكانت هذه الأجزاء السنوية تصدر ومعها ملصقات مزودة بالمداخل الموجودة فى موسوعة كتاب العالم الأصلية والمرتبة ترتيبًا أبجديًا، وكانت وظيفتى هى أن ألحق هذه الملصقات فى صفحاتها المناسبة، وأخذت العمل فى هذه المهمة على محمل الجد، فقد كنت أضع ترتيبًا زمنيًا للتاريخ والعلوم يساعد أى فرد سوف يتصفح الموسوعة فى المستقبل.

وفى ضوء ارتباطى الشديد بهذه الموسوعة، كان أحد أحلام طفولتى أن أشارك في كتابتها، وكان هدفى ألا أتصل أنا بمقرها الرئيسى فى شيكاغو وأعرض عليهم الكتابة فيها، بل أجعلهم هم الذين يسعون ورائى ويتصلون بى.

وصدق أولا تصدق، فقد جاءنى هذا النداء منهم أخيرًا منذ بضع سنوات قليلة.

لقد جعلنى هذا الأمر أشعر بأننى خبير يلح عليه القائمون على موسوعة كتاب العالم من أجل الكتابة فيها، نعم لم أكن بالنسبة لهم أفضل خبير متخصص فى الواقع الافتراضى، حيث إن هذا الشخص سيكون مشغولًا بالطبع ولن يسمح له وقته بالكتابة فى هذه الموسوعة، لقد كنت بالنسبة لهم شخصًا له مكانته لم يصل بعد إلى حد الشهرة التى يعتذر من خلالها عن الكتابة فى الموسوعة.

وقد سألونى قائلين: «هل تحب أن تكتب لنا نبذة جديدة عن الواقع الافتراضى؟».

لم أستطع أن أخبرهم بأننى طالما حلمت بتلك اللحظة طوال عمرى، وكل ما استطعت أن أقوله لهم هو «نعم، بالطبع!». وكتبت تلك النبذة بالفعل، وألحقت معها صورة لإحدى طالباتى تدعى كايتلين كيلهير وهى ترتدى سماعة أذن تدل على الواقع الافتراضى.

لم يسألنى أى محرر قط عن ماهية ما كتبته، وأعتقد أنها عادة متعارف عليها بين القائمين على كتابة موسوعة كتاب العالم، أن يقوموا باختيار أحد الخبراء ويضعوا ثقتهم فيه حيث يعلمون أنه لن يقصر فى تأدية مهمته.

وبالنسبة لى لم أشتر المجموعة الأخيرة من إصدارات موسوعة كتاب العالم، ففى واقع الأمر، بعد أن تم اختيارى لأكون مؤلفًا فى كتاب العالم،أصبحت الآن أعتقد أن ويكيبديا هى أفضل المصادر التى قد تحصل منها على معلومات، حيث أعلم جيدًا مقياس الجودة عند الموسوعات الحقيقية، ولكن أحيانًا عندما أكون مع أولادى فى المكتبة، لا أستطيع مقاومة النظر إلى الجزء الخاص بحرف»ال- v» (والذى يشير إلى الواقع الافتراضى»)، حيث أترك أولادى يلقون عليه نظرة ليروا بأعينهم ماصنعه والدهم.

الفصل التاسع
مهارة القيادة

قضيت فترة من طفولتى، مثلى مثل العديد من الأمريكيين الذين ولدوا فى الستينات، يراودنى حلم بأن أكون مثل كابتن جيمس تى. كريك فى الفيلم السينمائى Starship، لم أر نفسى فى صورة كابتن بوتش، وإنما تخيلت وجود عالم أحاكى فيه بالفعل صورة كابتن كريك.

فبالنسبة للأطفال الطموحين ممن لهم نزعة علمية، كانوا يرون فى «تى. كريك» النموذج الأمثل لهم، وحقيقة أقول لكم إننى أعتقد أننى أصبحت مدرسًا وزميلًا جيداً - وربما كنت زوجًا جيدًا أيضاً - من خلال مشاهدتى لـ كريك وهو يدير أمور السفينة. فكر معى فى هذا الأمر، لو كنت شاهدت هذا الفيلم، ستعلم أن كريك لم يكن أذكى فتى موجودًا على متن السفينة، فقد كان مساعده الأول السيد سبوك، هو صاحب الأفكار السديدة دوماً، والدكتور ماكوى أحاط علمًا بجميع العلوم الطبية التى سيعرفها العالم فى عام 2260، أما سكوتى فكان المهندس الرئيسى، الذى كان على دراية بكيفية تشغيل السفينة، حتى عند تعرضها لهجوم من قبل العدو.

إذن فى أى شيء تمثلت مهارة كريك؟ لماذا صعد إلى متن السفينة وقام بتشغيلها؟

والإجابة هى أن مهارة كريك تكمن فيما يسمى بـ «القيادة»

لقد تعلمت كثيرًا من هذا الفتى عندما كان فى قلب الحدث، فقد كان مثالًا حيًا للقائد الذى ينبض أداؤه بالحركة والنشاط، كان فتى يعرف كيفية التفاوض، وكان لديه من العاطفة ما يمكنه من إلهاب مشاعر الآخرين، حيث بدا فتى حسن المنظر فى زى عمله، و لم يقل قط إن مواهبه تفوق مواهب أتباعه، بل على العكس أقر بأن كلًا منهم كان يعلم مهام وظيفته جيدًا، وشملت رؤيته الجميع وأحدث نوعًا من روح الانسجام بينهم فلقد كان مسئولًا عن رفع المعنويات وفوق هذا كله، تمتع كريك بروح الرومانسية، ولك أن تتخيلنى وأنا أشاهده على التلفاز فى المنزل مرتديًا نظارتى، حيث كنت وقتها فى العاشرة من عمرى، فقد كان ظهوره كل مرة على الشاشة بمثابة

رؤيتي لأسطورة إغريقية.
حاز كريك أفضل الأجهزة على الإطلاق، فعندما كنت طفلاً كنت أعتقد أنه من المبهر أن يكون كريك على كوكب ما ومعه ذاك الجهاز - جهاز اتصال ستار تريك - الذى مكنه من التحدث مع رفقائه الموجودين على السفينة، وبالنسبة لى فأنا أمضى الآن وأنا أحمل جهازًا شبيهًا به فى جيبى، فمن يتذكر الآن أن كريك كان أول من قدم لنا فكرة الهاتف المحمول.

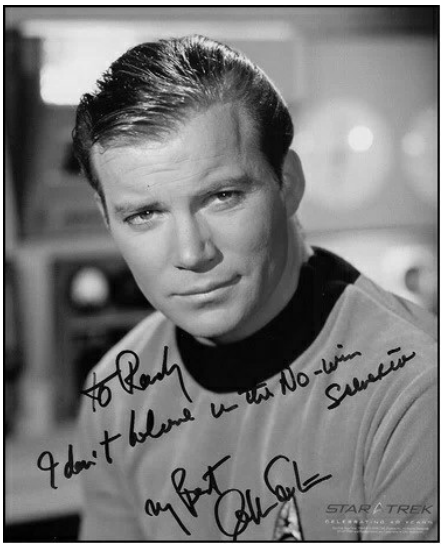

منذ عدة سنوات قليلة تلقيت اتصالاً (على هاتفى المحمول) من أحد المؤلفين بمدينة بيتسبرج يدعى تشيب والتر، حيث يشترك هو ووليام شاتنر (كريك فى الفيلم) فى تأليف كتاب يتحدث عن كيف كانت تلك الإنجازات العلمية، التى تم تصور وجودها للمرة الأولى فى فيلم ستار تريك، بوابة للتقدم التكنولوجى الذى نشهده اليوم، أراد كابتن كريك أن يزور معملى الخاص بالواقع الافتراضى فى كارنيجى ميلون.

الفصل العاشر
الفوز بأكبر دمية

كان أحد أحلام طفولتى المبكرة أن أكون أكثر الأولاد جذباً للانتباه عند تواجدى فى مدينة الملاهى أو حضورى لأى مهرجان، وكنت أعلم بالضبط كيف لى أن أكون هكذا.

كان من السهل تمييز أكثر الأطفال جذبًا للانتباه، حيث كان هو الطفل الذى يحمل بين يديه أكبر دمية فاز بها، فعندما كنت طفلًا كنت أرى بعض الأطفال يأتون من بعيد وقد توارى معظم رءوسهم تقريبًا بسبب حملهم لدمية عملاقة، وكان حجم الدمية هو العامل الرئيسى لجذب انتباه الحضور بغض النظر عما إذا كان يبدو فتى مفتول العضلات أم صبياً واهن البدن، فقط هو حجم الدمية، لذا من كان يأتى بأكبر دمية كان هو الفتى الذى يجذب انتباه جميع الحاضرين.

كان أبى هو الآخر يعتقد هذا، حيث كان ينتابه شعور سيئ عند عدم وضعه لدمية على شكل دب أو قرد ضخم مكسو بالفرو على فخذيه وهو يجلس مستمتعًا بلعبة العجلة الدوارة فى مدينة الملاهى، وفى ظل هذه الأجواء التنافسية التى عايشتها أسرتنا تحول جناح الملاهى إلى معركة، فأى من أفراد أسرتنا سوف يستأثر بأكبر حيوان مكسو بالفرو يوجد فى مملكة الألعاب؟

هل سبق لك وأن حملت دمية عملاقة وطفت بها وأنت فى مهرجان ما؟ هل سبق وأن لاحظت نظرات الآخرين لك وحقدهم عليك؟ هل سبق وأن أهديت امرأة دمية على سبيل التودد؟ أنا فعلت ذلك ... وقمت بالزواج من هذه المرأة.

لقد لعبت مثل هذه الألعاب دورًا فى حياتى منذ بدايتها، كنا ذات مرة فى القسم الخاص بالألعاب فى أحد المتاجر، وقال أبى وقتها لى أنا وأختى سأبتاع لكما أى لعبة تتفقان عليها لتلعبا بها معًا، أخذنا نطوف ببصرنا على كل الألعاب الموجودة حتى استقر على أعلى الرفوف، حيث كان يوجد عليه أرنب عملاق مكسو بالفرو، وحينها قالت أختى: «حسناً، أبى سنأخذ هذا الأرنب».

كانت هذه اللعبة هى أغلى الألعاب الموجودة فى المتجر على ما أعتقد، ومع هذا كان أبى رجلًا يلتزم بكلمته ولم ينكث وعده لنا، فابتاعها لنا بالفعل، ومن المحتمل أنه اعتقد بأن شراءه لهذه اللعبة يعتبر استثماراً جيداً، فدائمًا ما توجد دمية عملاقة أخرى فى أى بيت للاستعانة بها.

بلغت سن المراهقة وكنت لا أزال أعود إلى البيت بأكبر وأضخم الدمى، وساور أبى الشك فى أننى آتي بهذه الألعاب عن طريق الرشوة، حيث خيل له أننى كنت أنتظر الفائزين فى مسابقات ألعاب رمى الطوق ممن يحصلون على دمى كجوائز وأقوم باصطياد أحدهم وأدفع له مبلغًا معينًا على أن يعطينى دميته، ولكننى لم أكن يومًا راشيًا فى سبيل حصولى على هذه الدمى.

ولم أكن يومًا مخادعًا.

نعم أعترف أننى كنت أميل بجسمى إلى الأمام وأنا أرمى الطوق - وتلك هى الطريقة الوحيدة للفوز فى هذه اللعبة - ولكنى لم أكن مخادعًا محتالًا.

ومع ذلك، فقد حققت كثيراً من فوزى فى مثل هذه المسابقات دون أن يرانى أحد من أفراد أسرتى، وقد كنت أرى فى عيونهم هذه الشكوك المتزايدة تجاهى، ولكنى رأيت أن أفضل طريقة لجمع هذه الألعاب هى جمعها دون الضغط الذى يخلقه وجود أفراد الأسرة، ولم أرغب أيضًا فى أن يعرف أى شخص الوقت الذى استغرقته لكى أصل إلى النجاح، نعم الفوز فى وجود الجمهور شىء جميل، ولكن ليس أمرًا مهمًا أن يلحظ جميع الأفراد مدى الجهد الذى تبذله فى سبيل إنجاز شىء معين.

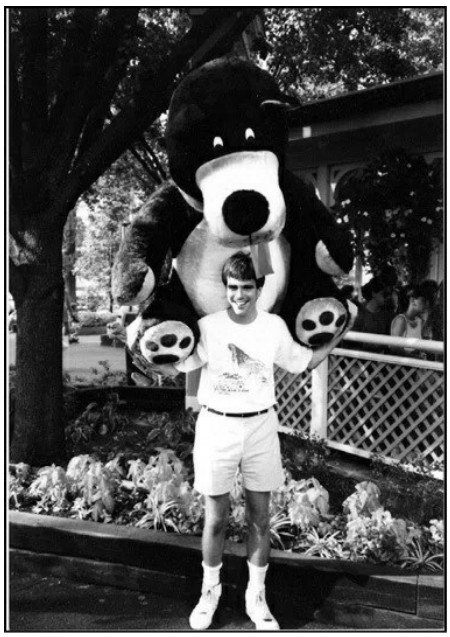

وأنا مستعد الآن لكى أفصح عن سرين تحصل بهما على ألعاب عملاقة من الحيوانات تحصد المراكز الأولى: السر الأول يتمثل فى الأذرع الطويلة والثانى فى أن يكون معك قدر يسير من المال، وإننى لسعيد أنه قد توفر لى هذان الشيئان فى حياتى.

تحدثت فى محاضرتى الأخيرة عن ألعابى من الدمى، وعرضت لها صورًا، ولو توفر لدى معالجة الصور رقميًا آنذاك لما احتفظت بصورة ورقية لألعاب الدببة الموجودة معى حاليًا، ولم أكن لألين فى الكلام مع الفائزين الفعليين فى المسابقات من أجل أن أحظى بصورة بجوار جوائزهم.

ولكن كيف لى فى ظل هذا العصر الذى انتشرت فيه الشكوك أن أقنع الحضور بأننى فزت فعلًا بهذه الأشياء؟ حسنًا، فكرت فى أنه من الممكن أن أظهر لهم ألعابى الحقيقية من الحيوانات، لذا جعلت بعضًا من طلابى يصعدون من جانب المسرح وهم يحملون دمية عملاقة كنت قد فزت بها منذ سنوات عدة.

لم أعد فى حاجة بعد الآن إلى هذه الألعاب، وعلى الرغم من أننى أعلم أن زوجتى أحبت ذاك الدب الذى علقته فى غرفة مكتبها، حيث كنت أغازلها هناك - كما أحبه أيضا أولادى الثلاثة بعد ذلك - إلا أن جاى لم ترغب فى ان يتكدس بيتنا الجديد بهذه الأشياء (فقد كانت ابنتنا كالوى تضع هذه الألعاب فى فمها وكان يتساقط منها مادة البوليسترين).

كنت أعلم أننى لو نجحت فى الاحتفاظ بهذه الأشياء لفترة زمنية محددة، سيأتى يوم

تقول لى فيه جاى: «أبعد هذه الألعاب ولا تحتفظ بها!»... أو شيئًا أسوأ من هذا، لذا قررت أن أهديها بعضًا من أصدقائى.

وبمجرد أن أخذت هذه الدمى شكل صف واحد أمامى على المسرح، قلت: «أى شخص يرغب فى أن يقتنى شيئًا يتذكرنى به، يصعد هنا على خشبة المسرح فى نهاية المحاضرة، ويأخذ بكل بساطه دمية من هذه الدمى، والأولوية لمن سبق وجاء أولًا».

وبالفعل حدث هذا واستقرت هذه الدمى فى بيوت معظم من حضر المحاضرة، وبعدها بأيام قليلة، علمت أن دمية أخذتها إحدى طالبات جامعة كارنيجى ميلون التى تعانى هى الأخرى من مرض السرطان، حيث صعدت على المسرح عقب انتهاء المحاضرة واختارت لنفسها فيلًا عملاقًا، وأنا أحيى فيها هذه الرمزية، فالفيل معروف أنه يرمز إلى وجود مشكلة عويصة.

الفصل الحادي عشر
أروع مكان على وجه الأرض

فى عام 1969، عندما كنت فى الثامنة من عمرى، ذهبت مع أسرتى فى رحلة لزيارة مدينة ديزنى لاند، كان ذلك حلماً تمنيت تحقيقه بشدة، وبمجرد أن وطئت قدماى مدينة ديزنى لاند، هالنى هذا المكان، فلقد كان بالنسبة لى أفضل مكان على الإطلاق يمكننى التواجد فيه.

وكل ما طرأ على ذهنى وقتها وأنا أقف فى أحد الصفوف مع أطفال آخرين هو شغفى بابتكار بيئة تحاكى هذه التى أراها ولا أستطيع أن أصبر كثيرًا حتى أقوم بذلك.

وبعدها بعقدين، عندما حصلت على درجة الدكتوراه فى علوم الحاسب الآلى من جامعة كارنيجى ميلون، اعتقدت بأن درجة الدكتوراه هذه ستؤهلنى لعمل أى شىء أرغب فيه، لذا أسرعت على الفور بإرسال طلب للعمل فى واحة الابتكارات بمؤسسة والت ديزنى، فجاءنى منهم رد مفاده أنهم فى غير حاجة لى، فقد أخبرونى بأنهم قاموا بمراجعة طلبى ولم يجدوا مجالًا تخصصيًا مطلوبًا فى مؤسستهم.

وتحدثت لنفسى قائلاً: لاشىء مطلقًا!! هذه المؤسسة الكبيرة المشهورة باستئجارها لجيوش من العاملين لكنس الشوارع! لا يوجد لى مكان فيها! ولا حتى وظيفة كناس!!

كان هذه انتكاسة بالنسبة لى، ولكنى لم أتخل عن تحقيق هذا الهدف، فالعوائق ما وجدت فى الحياة سدى، بل وجودها لسبب، فهى لا تعترض حياة المرء كى تفصله عن العالم الخارجى، وإنما لتعكس لنا سوء طريقتنا فى التماس شىء ما.

ومضى قطار العمر سريعًا، وأصبحت أستاذًا بجامعة فرجينيا عام 1995، وأسهمت فى إنشاء نظام يسمى «الواقع الافتراضى مقابل خمسة دولارات يوميًا، حيث كان يصر وقتها الخبراء المعنيون بالواقع الافتراضى على ضرورة توفير نصف مليون دولار تكلفة البدء فى مشروع مثل هذا، كما قمت بمعاونة زملائى بعمل نسختنا الصغيرة من «هيولت باكارد» وعملنا معًا وفقًا لنظام منخفض التكاليف خاص بالواقع الافتراضى،وقد رأى العاملون فى مجال علوم الكمبيوتر أن صنيعنا

هذا شيء عظيم.

وبعدها بقليل، علمت أن واحة الابتكارات بوالت ديزنى، تعمل فى مشروع إنشاء واقع افتراضى، وكان ذلك سرًا مهمًا، حيث كان هذا المشروع لعلاء الدين وبساط الريح، فاتصلت بوالت ديزنى وأخبرتهم بأننى باحث فى مجال الواقع الافتراضى وأبحث عن معلومات بشأنها، كنت ألح عليهم فى السؤال بطريقة مضحكة، واستمر اتصالى بهم وإلحاحى عليهم حتى أحالونى للحديث مع شاب يدعى جون سنودى، على مايبدو أنه كان أفضل المبتكرين الذين يقودون الفريق، وشعرت وكأننى كنت أتصل بالبيت الأبيض وقد قاموا بإحالتى للحديث مع الرئيس.

وبعد أن تحدثنا معًا لبرهة من الوقت، أخبرت جون بأننى سأعود إلى كاليفورنيا، فهلا تقابلنا هناك معًا! (والحقيقة أننى لم أكن لأعود لكاليفورنيا سوى لمقابلته فقط وذلك لو وافق، كنت على استعداد أن أذهب للمريخ إذا كان ذلك سيمكننى من رؤيته) فقال لى: موافق، سنتناول الغداء معًا مادمت أنت قادم على أية حال.

وقبل الذهاب لرؤيته، اجتهدت على مدار ثمانين ساعة أطلب خلالها من جميع الناجحين فى مجال الواقع الافتراضى ممن أنا على دراية بهم، وأخذنا نتبادل الأفكار والرؤى معًا بشأن مشروع والت ديزنى، ونتيجة لما بذلته من جهد، انبهر جون من مدى جاهزيتى عندما قابلته بعد طول انتظار (نعم، فمن السهل ان تبدو ذكيًا عند مخاطبة الأذكياء)، وفى آخر حديثى معه على الغداء قررت أن أخبره بما جئت من أجله فقلت له: «إننى سأنتدب قريبًا».

فرد على قائلًا: «ماذا تقصد بالانتداب؟»، كان سؤاله هذا بمثابة أول تصادم أواجهه بين ثقافة بيئة العمل الأكاديمى التى أمثلها وثقافته هو التى يستمدها من بيئة العمل الفعلى فى مؤسسة والت ديزنى للترفيه.

وبعد أن شرحت له مفهوم الانتداب، قال لى إنها فكرة عظيمة أن تقضى فترة انتدابك مع فريقى فى العمل، واتفقنا على أن أذهب للعمل مع فريقه بمؤسسة والت ديزنى فى هذا المشروع مدة ستة أشهر، وأقوم بإعداد ورقة بحثية وأنشرها بشأن هذا المشروع، وامتلأ قلبى فرحًا بهذا الأمر، فها أنا الأكاديمى المغمور قد دعيت من قبل مؤسسة والت ديزنى للعمل فى مشروعهم السرى.

وأصبح طريقى ممهدًا لا يعترضه سوى عقبة واحده، تمثلت فى الحصول على تصريح بالموافقه من رؤسائى فى الجامعة على هذا الانتداب غير المعهود.

حسنًا، فكما هو الحال فى قصص والت ديزنى، حيث لابد من وجود شخصية شريرة، كان أحد عمداء جامعة فرجينيا هو العقبة بالنسبة لى – الذى لقبته زوجتى بـ

«زعيم الدود» اقتباسًا من فيلم «بيت الحيوانات» - فقد كان يعتقد أن والت ديزنى سوف تسلب منى «الملكية الفكرية» والتى هى حق لهذه الجامعة، عارض هذا العميد انتدابى إلى والت ديزنى،فتوجهت إليه بالسؤال قائلًا: «ألا تعتقد أن انتدابى للعمل فى والت ديزنى فكرة صائبة؟»، فقال: «لا أدرى».

فلقد ضرب هذا العميد مثالًا حيًا على أن معظم العقبات العسيرة التى قد تعترض حياة المرء تتجسد أحيانًا فى صورة أشخاص فعليين.

وحيث إننى رأيت أنه لاجدوى من حديثى معه، اتجهت بطلبى إلى العميد المسئول عن البحث وسألته: «هل تعتقد أن انتدابى للعمل فى والت ديزنى فكرة صائبة؟». فأجابنى قائلًا: «ليس لدى معلومات كافية لكى أجيبك عن هذا السؤال، ولكن كل ما أراه أن أحد ألمع الأساتذة فى كليتنا موجود فى مكتبى ومهتم للغاية بموضوع ما، لذا أخبرنى بالمزيد عن خطبك».

وهنا درس فى التعامل مع الآخر يجب أن يتعلمه المدراء والإداريون، فإجابة العميد الثانى لم تختلف عن إجابة العميد الأول، فكل منهما لم يكن يدرى أهو أمر محمود أن يتم انتدابى إلى والت ديزنى أم لا، ولكن انظر كيف عبر كل منهما عن هذا!

وانتهى الأمر بالموافقة على انتدابى، فها هو الحلم قد صار حقيقة، ولدى اعتراف فى الحقيقة يصور هيامى وشغفى للعمل فى هذا المكان: فبمجرد وصولى إلى كاليفورنيا، اندفعت إلى داخل سيارتى ذات الغطاء القابل للطى أقودها متوجها إلى المقر الرئيسى لعالم المبتكرين، كان ذلك فى ليلة صيف تتسم أجواؤها بارتفاع درجة الحرارة، واستمعت أثناء القيادة إلى الموسيقى التصويرية لفيلم «الملك الأسد» الذى أنتجته والت ديزنى، وانسابت الدموع على خدى أثناء مرورى بالسيارة على المبنى،

ها هو المكان الذى حلمت بالتواجد فيه وأنا فى الثامنة من عمرى، لقد أصبحت مبتكرًا أخيراً.

الجزء الثالث
المغامرات...

والدروس المستفادة

الفصل الثاني عشر
المنتزه يفتح أبوابه حتى الثامنة مساءً

بدأت رحلة مع المرض فى صيف عام 2006، حيث شعرت فى بادئ الأمر بألم طفيف فى أعلى البطن لم أعرف له سببًا، وبعدها أصبت بالصفرة، وأطبائى فى إصابتى بالالتهاب الكبدى الوبائى، وتمنوا ألا تتجاوز الأمور هذا الحد، ولكن أوضحت الأشعة المقطعية أننى أعانى من سرطان فى البنكرياس، وما هى إلا بضعة ثوانٍ بحثت فيها عن هذا المرض على محرك البحث جوجل حتى اكتشفت شدة فتك وضراوة هذا المرض، وجدت أنه أكثر أنواع السرطان التى تودى بحياة البشر، فنصف من تم تشخيصهم على أنهم مصابون بهذا المرض لقوا حتفهم فى غضون ستة أشهر، و 96 فى المائة من المصابين به فارقوا الحياة خلال خمس سنوات من إصابتهم بالمرض.

أقدمت على علاجى كقدومى على العديد من الأشياء، أرتدى عباءة العالم، ولذا سألت الأطباء أسئلة كثيرة وأخذت أتبادل معهم الأفكار والافتراضات بشأن رحلة علاجى، وسجلت جلساتى معهم على أشرطة كى يتسنى لى الاستماع إليها جيدًا عندما أعود إلى المنزل، وكلما حان موعد زيارة الطبيب أخذت معى ما أجده من مقالات صحفية لقراءتها حتى مقابلة الطبيب، ولم أكن سببًا يومًا فى تأخير الأطباء عن موعد مغادرتهم للعيادة، ففى واقع الأمر كان يرانى العديد من الأطباء مريضًا مسليًا ومرحًا، حيث كنت أنخرط معهم وأناقشهم فى جميع التفاصيل (حتى أنهم لم يمانعونى أن أحضر معى إلى العيادة من يرفع من روحى المعنوية - فقد كنت اصطحب معى إلى العيادة صديقتى وزميلتى جيسيكا هودجينز كى تشد من عضدى وكذلك من أجل ما تتمتع به من مهارات بحثية يشار إليها بالبنان فى مجال المعلومات الطبية).

أخبرت الأطباء بأننى على استعداد لخوض أى مغامرة جراحية أو تناول أى دواء طبى مهما كان، فلقد كان لدى هدف تمثل فى أن أحاول البقاء حيًا قدر ما أمكن، وذلك من أجل زوجتى جاى وأولادى، وفى أول زيارة لى للطبيب الجراح هيرب زى

بمدينة بيتسبرج قلت له: «دعنا نتحدث بصراحة، هدفى هو أن أبقى حيًا ولو استمر العلاج عشر سنوات».

كنت من بين قلة من المرضى الذين انتفعوا بما يسمى بـ« عملية ويبل»، وقد سميت هذه العملية على اسم أحد الأطباء الذى خلص إلى هذا الإجراء المعقد فى الثلاثينات، ووصلت نسبة الوفيات بين المرضى الذين خاضوا هذه العملية إبان السبعينات إلى 25 %، وبحلول عام 2000 انخفضت نسبة الوفيات جراء خوض هذه العملية إلى 5 % عندما أجريت بواسطة أطباء متخصصين، وبالنسبة لى فقد علمت أننى مقبل على فترة عصيبة، خاصة عند علمى أن هذه الجراحة سيتبعها جرعة شديدة من العلاج الكيماوى والإشعاعى.

وكجزء من مراحل هذه الجراحة لم يقم الدكتور هيرب باستئصال الورم فقط، بل قام باستئصال المرارة أيضًا وثلث البنكرياس والمعدة وجزء كبير من الأمعاء الدقيقة، وما إن استرددت عافيتى، حتى ذهبت إلى معهد «إم. دى. أندرسون» لعلاج السرطان بولاية هيوستن، لأتلقى جرعات قوية من العلاج الكيماوى إلى جانب حرعة يومية عالية من العلاج الإشعاعى، افتقدت من وزنى كثيرًا فأصبحت أزن 32 رطلًا بعد أن كان وزنى 82 رطلًا، وفى نهاية المطاف، استطعت بالكاد أن أسير على قدمى، وبحلول شهر يناير عدت إلى منزلى بمدينة بيتسبرج ولم تظهر الأشعة المقطعية إصابتى بالسرطان، وبدأت تدريجيًا فى استعادة قواى.

وفى أغسطس، كان موعد فحصى الذى أجريه كل ثلاثة أشهر بمعهد أندرسون، وذهبت فى صحبة جاى إلى ولاية هيوستن من أجل الفحص، تاركين الأولاد مع المربية، كانت هذه الرحلة لى أنا وجاى بمثابة رحلة رومانسية، حتى أننا ذهبنا قبل موعد الفحص بيوم إلى منتزه وارنتر العملاق - فأنا أعرف جيدًا كيف أحيى علاقاتى الرومانسية - وركبنا الأرجوحة الأفعوانية ونحن نتقاسم الضحكات معًا بينما نتجه إلى أسفل.

بعدها، جاء يوم الأربعاء، الخامس عشر من شهر أغسطس لعام 2007، حيث وصلت أنا وجاى فى هذا اليوم إلى معهد «إم. دى. أندرسون» لأطلع على نتائج فحصى السابقة بالأشعة المقطعية فى حضور إخصائى الأورام، الدكتور روبرت وولف، تم إرشادنا للذهاب إلى غرفة الفحص، وهناك وجهت لى الممرضة بعض الأسئلة الروتينية: «هل شعرت بتغيرات فى الوزن يا راندى؟ هل مازلت تأخذ نفس الأدوية؟ ولاحظت جاى السعادة على وجه الممرضة، وانتبهت لها كذلك وهى تدندن عند انصرافها، ولفتت جاى نظرى قائلة: هل لمست السرور فى وجه الممرضة

عندما قالت لك وهى تغلق الباب وراءها: «حسنًا، عما قريب سيأتى الطبيب».

قلت لـ جاى: «هل لنا أن نلقى نظرة على تقاريرى الطبية؟» لم أجد حرجا فى أن أفعل ذلك، فقبل كل شىء تلك التقارير تخصنى أنا، وليس أحدا سواى.

نظرت حولى فوجدت التقرير الخاص بتحليل الدم، نظرت إليه فوجدت به ثلاثين قيمة غريبة، ولكن وقعت عيناى على قيمة أعرفها CA 19-9 — وتلك هى القيمة التى تدل على وجود الورم، عندما نظرت إليها وجدت الرقم مرعبًا فقد كان 208 مع العلم بأن القيمة الطبيعية تكون أقل من 37، نظرت إليها أفكر قليلًا، ثم قلت لـ جاى: «قضى الأمر يا حبيبتى».

فسألتنى قائلة: «ماذا تعنى بكلامك هذا؟».

فقلت لها أقصد قيمة الـ CA 19-9، وكانت جاى على دراية كافية بمرض السرطان تجعلها تعرف أن قيمة 208 تعنى نمو الورم وانتشاره فى أماكن أخرى من الجسم, ومن ثم قالت لى: «كف عن الدعابة يا راندى لا مجال للمزاح فى هذه المسألة».

وقفت أمام شاشة الكمبيوتر أعد الأورام التى تظهرها أشعتى المقطعية «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة.....».

وبينما أنا كذلك إذ بـ جاى تقول لى وصوتها ممزوج بمشاعر الهلع: «لا، لا تقل لى إن كل هذه أورام»، انتابتنى حالة لم أستطع معها التوقف فارتفع صوتى بالعد «سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة.....». أنهيت العد وتوقف الرقم عند عشرة أورام، لقد انتشر السرطان فى جسدى حتى أصاب الكبد.

انطلقت جاى تهرول إلى شاشة الكمبيوتر، ورأت بأم عينيها الحقيقة وارتمت بين ذراعى، وأجهشنا بالبكاء معًا، ونظرت حولى فلم أجد بالغرفة مناديل نجفف بها دموعنا، علمت حينها أن الموت قد أصبح وشيكًا، وفى ظل عدم قدرتى على التركيز، وجدت نفسى أفكر «أليس من المفترض أن يكون بالغرفة مناديل، بالأخص فى موقف مثل هذا؟ ياله من خطأ فادح».

فى هذا الوقت سمعت صوت طرق الباب،إنه الدكتور وولف وقد دخل الغرفة ممسكًا ملفًا بيده، وأخذت نظراته تتجه نحوى ونحو جاى والأشعة، فأدرك أننا اكتشفنا الأمر، فسبقته فى الحديث قائلًا: «نعم، أصبحت على بينة من أمرى أيها الطبيب».

أثناء هذا الموقف، تملك جاى الذهول وأصابتها الصدمة، فصرخت بشكل هستيرى، كنت حزينًا بالطبع، ومع ذلك انبهرت بالطريقة التى تعامل بها الدكتور وولف مع هذا الموقف العصيب، حيث جلس أمام جاى يهدئ من روعها، وبكل هدوء بدأ يشرح لها

أن مهمته لم تعد الحفاظ على حياتى، فقال لها: «اعلمى أن كل محاولتنا هى أن نمد فى حياته على قدر المستطاع حتى يستطيع أن ينعم بما تبقى له من أيام فى حياته، ففى ظل حالته هذه، يقف الطب عاجزًا عن أن يمد له يد العون ليحيا حياة طبيعية».

فقاطعته جاى قائلة: «مهلًا مهلًا، أتقول لى ما أنا على دراية به، لقد علمت هذا الأمر وفرغنا منه، ونحن ماضون فى طريقنا للتصدى له، فهل تعنى بكلامك هذا أن المعركة انتهت؟ أخبرنى ماذا عن زراعة الكبد؟».

فرد الطبيب قائلًا: «لن يجدى هذا نفعاً، وذلك لأن انتشار الورم لا يحدث مرة واحدة، بل يعاود انتشاره من جديد، وتحدث الطبيب معنا عن العلاج الكيماوى المهدئ – ليس علاجًا شافيًا ولكنه يحد من شدة الألم، ويتم تناوله لأشهر قليلة - وعن إيجاد سبل علاج توفر لى الراحة والانخراط فى أعمال الحياة دون أن أشعر بالألم كلما اقترب أجلى.

شعرت مع هذا التغيير المرعب فى حياتى بأن عقلى قد زال عنى، صحيح، فقد هالنى الأمر وأشفقت على نفسى وعلى جاى المكلومة التى لم تستطع أن تمنع نفسها من البكاء، ومع هذا بقيت أشعر بجانب من جوانب القوة فى حياتى كعالم، فبدأت أجمع خيوط الموضوع وأسأل الطبيب عن خيارات النجاة، وفى الوقت ذاته كان جانب من عقلى قد انغمس فى التفكير من وقع الصدمة، انبهرت فعلًا – ولكنى كنت أتمزق ألما فى الحقيقة - بالطريقة التى شرح بها الطبيب الأمر لـ جاى، وهمست لنفسى قائلًا: «ما هذه الطريقة البارعة للطبيب فى التعامل ماهذا الموقف، من الواضح أنه فعل ذلك قبل هذا مرارًا، إنه يحسن الحديث فى مثل هذا الموقف، فذاك دأبه فهو يكرر بدقة ما يفعله مع الآخرين، ومع هذا فكلامه نابع من القلب، يلقيه عفويًا دون سابق ترتيب».

لاحظت كيف استلقى الطبيب بظهره للوراء وهو على مقعده مغمضًا عينيه قبل الإجابة عن أى سؤال، ففى غالب الأمر أن ذاك كان يساعده على التفكير على نحو أفضل، وانتبهت إلى وضعية جسده عندما جلس أمام جاى، حيث وجدت نفسى فى معزل عنهما أتحدث لذاتى قائلًا: «أتفهم لماذا لم يضع الطبيب ذراعه على كتفيها، فقد يبدو هذا تبجحًا، فهو بدلًا عن ذلك يميل صوبها واضعًا يده على رقبتها، إنه لبارع فعلًا».

تمنيت أن يرى كل طلاب الطب المتخصصين فى الأورام ما شاهدته، فلقد شاهدت دكتور وولف وهو يصيغ عباراته وينتقى جمله بكل احترافية، فعندما وجهنا له سؤالنا قائلين: «كم بقى لى من العمر قبل مفارقة الحياه؟». كانت إجابته: «من المحتمل أنك

ستحيا بصحة جيدة مابين ثلاثة إلى ستة أشهر». وذكرنى هذا عندما كنت فى ملاهى والت ديزنى فكنت أسأل العمال متى ستغلق الملاهى فيجيبوننى قائلين: «الملاهى مفتوحة حتى الساعة الثامنة».

وفجأة،شعرت بإحساس غريب من الراحة النفسية، فعلى مدار عدة أشهر مضت عشت أنا وجاى حالة من الشد العصبى نترقب خلالها هل سيعود الورم لجسدى مجددًا أم لا، وإذا كان سيعود، فمتى، والأن أصبح الأمر جليًا، فليس ورمًا واحدًا بل أصابنى جيش من الأورام لينهى معه حالة الترقب والانتظار التى خيمت علينا، والآن يتعين علينا أن نواجه ما هو آت فى قادم الأيام.

وفكرت أثناء مغادرتنا مكتب الطبيب، فيما تحدثت به لـ جاى ونحن فى منتزه واتر نستمتع بركوب الأرجوحة الأفعوانية حيث قلت لها وقتها: «حتى لو خيبت نتائج الأشعة آمالنا، فأنا أريدك أن تعلمى فقط أنه لشرف عظيم ان أكون حيًا، وأنا أكون هنا اليوم معك، فمهما أظهرت الأشعة من نتائج، فلن أموت يوم علمى بها، ولا اليوم الذى بعده ولا الذى يليه، لذا دعينى ان أخبرك بأن هذا اليوم يوم رائع، ولكم هى السعادة التى أشعر بها وأنا معك الآن فى هذا اليوم».

فكرت فى هذا وفى تلك الابتسامة التى ارتسمت على ثغرها.

ها قد علمت الآن أن هذه الطريقة من الاستمتاع بالحياة هى التى يجب أن أحياها على مدار أيامى القادمة.

الفصل الثالث عشر
صاحب السيارة ذات الغطاء القابل للطى

تلقيت ذات صباح - وذلك بعد أن علمت بإصابتى بمرض السرطان - رسالة بريدية عبر الإنترنت من روبى كوساك، نائبة رئيس قسم التنمية بجامعة كارنيجى ميلون، تحكى لى فيها قصة.

كتبت لى تقول إنها كانت تقود سيارتها الى المنزل عائدة من عملها فى مساء يوم لطيف، حيث أجواء بداية الربيع الصافية، فوجدت أمامها رجلًا يقود سيارة ذات غطاء قابل للطى، كان غطاء سيارته مفتوحًا ونوافذ زجاج سيارته منخفضة حيث علق يده على باب السيارة المجاور له وهو يشغل الموسيقى على جهاز الراديو محركًا رأسه تفاعلًا مع ما يسمع، وشعره يرفرف من جراء ملامسة الهواء له.

تقول روبى إنها غيرت حارتها واقتربت منه قليلًا، فاستطاعت أن ترى أن هذا الرجل علته ابتسامة خفيفة من ذلك النوع من الابتسامات الشاردة التى تظهر على وجه المرء عندما يكون بمفرده، وهو سعيد يهيم فى التفكير، فوجدت روبى نفسها تفكر وتقول: «تلك الابتسامة علامة على أن هذا الرجل سعيد بيومه مستمتع باللحظة التى يعيشها».

وأخيرًا غيرت السيارة اتجاهها فاتضح لروبى وجه الرجل كاملًا, فقالت لنفسها عقب رؤيته:»يا إلهى، إنه راندى بوتش».

لقد ذهلت عند رؤيتها لى، فقد كانت تعرف أننى مصاب بسرطان مميت، ومع هذا، كتبت لى فى رسالتها البريدية، أنها انبهرت عندما رأت علامات الرضا على وجهى، ففى هذه اللحظة فعلًا كنت أشعر بروح معنوية عالية، كتبت لى روبى فى رسالتها تقول: «أنت لا تعرف كيف أثرت فى رؤيتى لك، لقد جعلتنى أبصر حقيقة الحياة».

قرأت رسالتها مرات عديدة، وكنت أنظر إليها وأنا أقرؤها على أنها حلقة تغذية مرتدة.

لم يكن من السهل علىَّ أن أبدو فى حالة نفسية جيدة طوال رحلة علاجى من مرض

السرطان، فمن الصعب أن تعرف مدى شعورك بالاضطراب العاطفى عندما تكون بصدد التعامل مع مسألة طبية حرجة، تساءلت كثيرًا هل احتفظت بتركيزى كاملًا عند تعاملى مع أشخاص آخرين، ربما أجبرت نفسى فى بعض الأحيان على أن أبدوا قويًا غير مستسلم للواقع، فالعديد من مرضى السرطان يشعرون بأنهم مضطرون لأن يرتدوا لباس الشجاعة، فهل كنت واحدًا منهم؟

لقد رأتنى روبى على حين غرة من أمرى، آمل أن تكون قد رأتنى على طبيعتى, بالتأكيد أنها رأتنى ذلك المساء على طبيعتى.

لم تكن رسالتها البريدية مجرد رسالة بل كانت عبارة عن فقرة كتابية، ولكنها تركت فى نفسى أثرًا عظيمًا، لقد كانت رسالتها تمثل نافذة أطللت منها على نفسى، فلقد علمت أننى مازلت أتفاعل مع أجواء الحياة، لم أسأم منها بعد، وأمضى على الدرب الصحيح.

الفصل الرابع عشر
العم الهولندى

إن أى شخص على معرفة بى يستطيع أن يخبرك بأننى شخص ينتابه شعور بتقدير الذات، ومؤمن بما لديه من قدرات، فأنا امرؤ يتحدث لسانه دائمًا بما يدور فى ذهنه وبما يؤمن به من أفكار، شخص لا يستطيع أن يتحمل وصفه بعدم الكفاءة.

ساعدتنى تلك الصفات كثيرًا فى حياتى، ولكن صدق أو لا تصدق، مرت بى أوقات تملكنى فيها الغرور وافتقدت فيها حسن اللباقة، وذلك يحدث لى عندما ألمح الضيق الشديد فى عيون هؤلاء الذين من المفترض أن يكونوا لى مرآة أرى فيها نفسى.

كان على أختى تامى أن تتعامل مع أخيها الطفل الذى ادعى أنه قد أحاط الكون علمًا, كنت دومًا أملى عليها ما الذى يتعين عليها فعله وما الذى لا يتعين، كما لو أن ميلادنا كان خطأً سعيت دومًا لتصحيحه.

ذات يوم كنا ننتظر قدوم حافلة المدرسة، وكنت وقتها فى السابعة من عمرى وتامى فى التاسعة، ارتفع صوتى بالضجيج كالعادة، لم تستطع تامى تحمل هذا الموقف فقد فاض بها الكيل منى، لذا قامت فأمسكت بحقيبتى المدرسية وألقتها فى بركة وحلة من الطين ... حيث جاءت الحافلة وتوقفت أثناء حدوث ذلك المشهد، ومن ثم انتهى الأمر بتامى فى مكتب المدير، بينما أُرسلت أنا إلى مكتب الناظر الذى قام فنظف الحقيبة بنفسه وألقى ما بها من ساندويتشات تسلل إليها الطين وأعطانى نقودًا للغداء فى لمسة طيبة منه.

أما المدير فأخبر تامى أنه اتصل بوالدتنا هاتفيا، حيث قال لـ تامى: «سأتصل بوالدتك لتتولى معالجة هذا الأمر بنفسها»، وفور عودتنا من المدرسة إلى البيت قالت والدتى: «سأجعل والدكما يعالج الأمور بذاته»، وجلست أختى طوال النهار تتوجس خيفة من جراء ما سيحدث لها.

وفور عودة أبى إلى المنزل، استمع إلى القصة وعقب عليها بابتسامة لطيفة، لم ينو أبى معاقبة تامى بل على العكس حياها على تصرفها معى على هذا النحو، فلقد كنت

طفلًا يستحق بالفعل أن تلقى حقيبته المدرسية فى بركة من الوحل، تنفست تامى الصعداء بينما أنا تسمرت مكانى من فرط الذهول ... وعلى الرغم من ذلك لم أستوعب الدرس جيداً.

وحينما التحقت بجامعة براون، كان لدى قدرات خاصة، وكان الناس يعلمون أننى على دراية بما لدى من قدرات، فهذا هو صديقى سكوت شيرمان الذى تعرفت عليه فى أولى سنوات الجامعة يرجع بذاكرته للوراء ويقول لى: «كنت تفتقد تمامًا حسن اللباقة، وكنت ذا شهرة ذائعة فى إثارتك لغضب هؤلاء الذين تلتقى بهم للمرة الأولى».

عادة لم أكن أنتبه إلى مثل هذه الأشياء، فقد كانت الأمور تسير على ما يرام ونجاحى الأكاديمى ماضٍ على وتيرة ثابتة، ثم تغيرت الأمور عندما أسدى لى الأستاذ الأسطورة فى علوم الحاسوب آندى فان دام نصيحة فى شكل قالب تعليمى، كان « آندى فان ديماند» كما هو مشهور بذلك، يحبنى، فقد كنت شخصاً يتحرك شعوره تجاه أمور شتى - وتلك سمة طيبة، ولكن كالعديد من الأشخاص، كان عندى مواطن قوة مثلت نقاط ضعفى فى الوقت ذاته، كنت فى أعين آندى ذلك الشخص الذى وصل به تقديره لذاته إلى درجة الخطأ، ووجد التهور سبيلًا فى تصرفاته، شخص خارج على سياسة القطيع لا يقبل إلا رأيه ويهمش آراء الباقين.

اصطحبنى آندى ذات يوم فى جولة، ووضع ذراعه حول كتفى وقال لى: «راندى، عار عليك أن تكون فى أعين الناس ذاك الشخص المغرور، فذلك سيحد من حجم الإنجازات التى فى مقدورك أن تحققها فى حياتك المستقبلية».

وعندما أفكر فى هذا الأمر أجد أن كلامه كان صائبًا تمامًا، فكأنه كان يريد أن يقول لى: «إنك أخرق ياراندى»، ولكنه قالها لى بطريقة جعلتنى أتقبل نقده، وأستمع إلى مثلى الأعلى وهو يخبرنى بما أنا فى حاجة بالفعل إلى سماعه، فهناك تعبير قديم يقول: «العم الهولندى»، وهو يشير إلى شخص يعتبر مرآة لك تنعكس فيها صورتك وتتضح بمنتهى الشفافية والأمانة، وقلما استخدم أحد هذا التعبير فى يومنا هذا، فقد صار تعبيرًا عفى عليه الزمن يكتنفه الغموض، (لقد كان راندى حقًا بمثابة العم الهولندى، وهو أفضل ما فى الأمر).

ومنذ نشر محاضرتى الأخيرة على مواقع الإنترنت، حدثنى عدد ليس بالقليل من أصدقائى يسخرون مما قلته فى المحاضرة، حيث نادونى بـ»إس. تى. راندى»، وذلك فى محاولة منهم لتذكيرى بأننى كنت فى وقت ما أوصف بطريقة مختلفة تتسم بالتباهى والفخر.

ولكنى أعتقد أن نقاط ضعفى تمثلت فى الجانب الاجتماعى لا الجانب الأخلاقى، ولكم كنت سعيد الحظ أن أنتفع على مدار السنين الماضية بنصيحة أشخاص كـ آندى، الذى أخبرنى بأشياء محببة كنت فى حاجة إلى أن أستمع إليها بالفعل.

الفصل الخامس عشر
نسكب الصودا على المقعد الخلفى

قضيت وقتًا طويلًا من حياتى أعرف بـ «العم الأعزب»، لم يكن لى من أولاد فى سن العشرينات والثلاثينات، وكان ولدا أختى فى هذا الفترة كريس ولورا يحظيان بجل عاطفتى، غمرتنى سعادة بالغة بمناداتهما لى خالى راندى، حيث كنت ذاك الشخص الذى يطل عليهما كل شهر وآخر ليفتح لهما آفاقًا جديدة تساعدهما على النظر إلى عالمهما من زوايا مختلفة جديدة.

لم أكن لأفسد عليهما نمط حياتهما، بل كل ما أردته فقط هو أن أنقل لهما رؤيتى للحياة، تلك الرؤية التى قادت أختى إلى الجنون.

ذات مرة، تقريبًا منذ ما يقرب من اثنتى عشرة سنة، اصطحبت ولدى أختى، كريس الذى كان فى السابعة من عمره وأخته لورا التى كانت فى التاسعة، فى رحلة بسيارتى الفولكس فاجن كابريو الجديدة، وقد نبهت عليهما والدتهما قائلة: «نظفا أحذيتكما جيدًا قبل ان تستقلا سيارة خالكما، إياكما أن تعبثا بها، وحافظا على نظافتها».

استمعت لما قالته لهما والدتهما من كلمات، وبما أننى كنت رجلاً أعزب فى هذا الوقت فقد تحدثت مع نفسى قائلًا: «إن هذا النوع من التحكم التى تفرضه أختى على ولديها ينتهى لا محال بالفشل، لا مفر من أن الولدين فى النهاية لن يحافظا على نظافة السيارة، فليس بوسعهما أن يفعلا ذلك فما هما إلا طفلان فى النهاية». لذا سهلت الأمر عليهم، فتركت أختى تملى على ولديها ما ينبغى عليهما الالتزام به، وقمت عن قصد وبمنتهى الهدوء بفتح زجاجة من مشروب الصودا، حيث أزلت غطاءها وأفرغتها بالكامل على مقاعد السيارة الخلفية المكسوة بالقماش، فرسالتى التى أردت أن أوصلها هى أن: الإنسان أغلى من الجماد، حتى ولو كان ذاك الجماد من القيمة بمكان كسيارتى الجديدة العملاقة ذات الغطاء القابل للطى.

وفور سكبى للزجاجة، شاهدت كريس ولورا وقد فغر كل منهما فاه وسهمت عيناه

تفاعلًا مع الموقف، فها هو الخال راندى المجنون يثور تمامًا على القواعد التى ينبنى عليها تربية الصغار.

كنت سعيدًا جدًا حينما قمت بهذا الموقف، فقد أصيب كريس الصغير بنزلة برد فى عطلة نهاية الأسبوع ولم ينتبه أى حرج عندما تقيأ على المقعد الخلفى للسيارة، بل على العكس شعر بالراحة، فلقد رأنى آنفًا وأنا أقوم بمثل هذا الصنيع، ومن ثم رأى أنه لا حرج فى أن يفعل ذلك.

ففى أى وقت يكون الأطفال بصحبتى، أتفق معهما على قاعدتين:

1) لا ضجر.

2) لا تعرف والدتكما بما نفعله معًا.

وتلك القاعدة الثانية جعلت من جميع الأشياء التى فعلناها تتخذ شكل مغامرات القراصنة، حتى عند القيام بأقل الأشياء كنا نشعر وكأنها أمور سحرية.

وفى معظم عطلات الأسبوع، كان كل من كريس ولورا يأتيان إلى شقتى فأمضى بهما إلى مطعم تشك إى تشيز، أو اصطحبهما فى نزهة أو زيارة لأحد المتاحف، وفى عطلات الأسبوع الخاصة، كنا ننزل بأحد الفنادق المزودة بحمام للسباحة.

كان ثلاثتنا يشتهى الفطائر المحلاة، وكان أبى دائمًا ما يطرح علينا سؤالًا: «لماذا تأخذ الفطائر شكلًا دائريًا؟». وأنا أيضًا كنت أطرح عليهما هذا السؤال، ومن ثم كنا نلعب بالفطيرة فنصنع منها أشكال حيوانات عجيبة الشكل، كان كريس ولورا يقولان: «ليس هذا هو الحيوان الذى أردت تشكيله». ولكننا كنا ننظر إلى الشكل كما هو ونتخيل أنه من الممكن أن يكون هو الحيوان الذى أردنا صنعه.

رأيت كلًا من لورا وكريس وهما يتقدمان فى المراحل السنية من عمرهما أمام عينى، فلورا قد بلغت الآن الواحد والعشرين من عمرها وكريس فى التاسعة عشرة، وفى هذه الآونة أفتخر أكثر من أى وقت أخر بأننى مثلت جزءاً من طفولتهما، حيث أشعر بأنى قد حققت شيئًا، إننى سأرحل عن الدنيا قبل أن يتجاوز أكبر أولادى السادسة من عمره، لذا كانت لحظاتى التى قضيتها مع كريس ولورا لا تقدر بثمن، لقد منحانى الفرصة لأن أكون جزءاً من حياتهما خلال سنوات فترة المراهقة وما قبلها وفى سن البلوغ.

طلبت من كريس ولورا مؤخراً أن يسديا لى صنيعاً، أردتهما عقب مفارقتى للحياة، أن يكونا برفقة أولادى فى عطلات نهاية الأسبوع، يصطحبانهم هنا وهناك ويحققان لهم كل ما يرغبون فيه، أى نوع من أنواع المرح يود الأطفال ممارسته، ليس بالضرورة أن يكون على شاكلة هذا الذى مارسته معهم فى السابق، لقد أردتهما أن

يتركا لأولادى قيادة دفة السفينة، فـ«ديلان» مثلًا يحب الديناصورات، فلا مانع من أن يأخذه كل من كريس ولورا إلى متحف الديناصورات التاريخى، ولوجان يحب الرياضة، فلا بأس أن يصطحبانه لمشاهدة الستيلرز، وكولى يحب الرقص، فمن الممكن أن يفكرا فى شىء يتوافق مع هذه الرغبة.

وأريد أيضًا من ولدى أختى أن يخبرا أولادى بعض الأشياء القليلة عنى، ويمكنهما ببساطة أن يمهدا للحديث عن هذا بقولهما: «لقد طلب منا والدكم أن نقضى وقتًا لطيفًا معكم، تمامًا كما كان يفعل معنا»، وأتمنى أيضًا أن يشرحا لهم كيف حاربت جاهدًا من أجل أن أبقى حيًا، حيث تداويت بأصعب أنواع العلاج التى قد يتطبب بها الإنسان، وذلك كله من أجل أن أكون بينهم فى رحابهم قدر ما أمكن، تلك هى فحوى الرسالة التى أردت من كريس ولورا أن يوصلاها إلى أولادى.

أوه عفوًا! هناك نقطة نسيتها، طلبت من كريس ولورا أيضاً، أن يتذكرانى ويبتسما عندما يعبث أولادى بسيارتهما

الفصل السادس عشر
شعور بالحب يعترضه حائط خرسانى

كان أكثر الحوائط الخرسانية التى واجهتها فى حياتى مناعة، يبلغ طوله خمس أقدام وست بوصات مع العلم بأنه كان غاية فى الجمال، جعلنى أبكى وأعيد تقييم نفسى وقادنى إلى أبى وأنا فى حالة يرثى لها أسأله سبيل هدايتى فى معالجة هذا الأمر.

كان هذا الحائط هو جاى زوجتى.

فكما قلت فى المحاضرة، إننى كنت خبيراً فى التعامل مع الحوائط الخرسانية التى مثلت لى تحديًا فى حياتى المهنية والأكاديمية، لم أخبر الحاضرين فى القاعة وقت المحاضرة عن علاقاتى الغرامية مع جاى لأننى شعرت بأنه بصنيعى هذا ستتملكنى عاطفة جياشة، وعلى الرغم من هذا فلقد تلفظت على المسرح بكلمات تنطبق تمامًا على أيامى الأولى التى قضيتها مع جاى، حيث قلت على سبيل المثال:

«... إنما توجد الحوائط الخرسانية لا لشىء سوى وقف أولئك الذين لا يريدون أن يزداد الأمر سوءًا، تقام الحوائط الخرسانية لوقف الآخرين».

كنت شابا أعزب يناهز السابعة والثلاثين من عمره عند أول لقاء لى مع جاى، كنت كثيرًا ما أخرج مع الفتيات، وكنت أترك الفتاة التى أجدها تأخذ بمنحنى العلاقة بيننا نحو الجدية، لم أشعر يومًا بأننى مضطر لأن أستقر فى مكان لطيف أشعر فيه بالراحة والهدوء، فعلى الرغم من تعيينى بصفة دائمة كأستاذ جامعي بإمكانه أن يقطن من المسكن أفضله، فقد استأجرت شقة فى علية أحد المبانى بمبلغ زهيد يقدر بـ 450 دولارًا شهريًا، وكان لها سلم للطوارئ ودون مصعد، لقد كان مسكنًا ينأى طلابى عن أن يقطنوا مثله، حيث اعتبروه مكانًا وضيعًا لا يليق بهم، أما أنا فرأيته أصلح الأماكن للسكنى.

سألنى أحد أصدقائى يومًا: «فى اعتقادك ما نوع تلك المرأة التى قد تنبهر عند استقدامك لها إلى هذا المكان؟».

فأجبته قائلًا: «ستكون من أفضل أنواع النساء».

ولكن على من كنت أمزح؟ على نفسى أم على غيرى؟ لقد كنت شخصًا عابثًا فى علاقاته الغرامية ولا يحملها على محمل الجد، شخص متفانٍ فى عمله إلى حد كبير، أبدو شابًا صغيرًا رغم تقدمه فى السن نسبيا، فحتى غرفة طعام منزله لا تزال مقاعدها معدنية من النوع القابل للطى، فما من امرأة حتى لوكانت من أفضل أنواع النساء يمكنها أن تقبل العيش فى هذا المكان على هذا الوضع (حتى عندما دخلت جاى حياتى لم تتقبل العيش فى هذا المكان وبهذه الصورة)، صحيح، أننى كنت أتبوأ وظيفة جيدة الى جانب بعض المميزات الأخرى، ولكن لم يكن لدى أى فكرة فيما يتعلق بتهيئة مناخ ملائم يساعد على الزواج.

قابلت جاى فى نهاية عام 1998، وذلك عندما دعيت لإلقاء محاضرة تتعلق بتكنولوجيا الواقع الافتراضى فى جامعة نورث كارولينا بتشابل هيل، كانت جاى متخصصة فى الأدب المقارن وفى ربيعها الواحد والثلاثين، وكانت تعمل دون تفرغ فى قسم علوم الحاسوب بجامعة نورث كارولينا، كانت مهام وظيفتها تتمثل فى استضافة الزائرين القادمين إلى المعامل، سواء كانوا من الحاصلين على جائزة نوبل أو أفواج فتيات الاستطلاع، وذات يوم كان عليها تحديدًا أن تقوم باستضافتى.

كانت جاى قد رأتنى أتحدث فى الصيف السابق حينها فى مؤتمر عن الرسومات الحاسوبية بجامعة أورلاندو، وأخبرتنى بعد ذلك أنها رغبت فى أن تقدم نفسها لى عقب سماعها لتلك المحاضرة ولكنها تخلت عن هذه الفكرة، وعندما علمت بأنها ستقوم على استضافتى فور وصولى إلى جامعة نورث كارولينا، زارت موقعى على الإنترنت لتعلم المزيد عنى، تصفحت جميع الأجزاء المتعلقة بحياتى الأكاديمية، ووجدت على موقعى روابط لمعلومات شخصية لطيفة - على سبيل المثال هوايتى التى تمثلت فى صنع الكعكة المحلاة بالزنجبيل وإخراجها فى شكل بيت إلى جانب ذلك من هوايات كالحياكة. وعرفت كذلك عمرى، وأنه لامكان لزوجة أو صديقة فى حياتى، فمعظم ما كان معروضًا من صور على موقعى كان يخص ابن وابنة أختى.

وخمنت جاى أننى امرؤ غريب الأطوار ومثير للاهتمام بلا شك، فقامت بإجراء بعض المكالمات الهاتفية لأصدقائها العاملين فى مجال علوم الحاسوب لتستفسر عنى.

فسألتهم قائلة: «ماذا تعرفون عن راندى، هل هو شاب مستهتر؟».

فأجابوها بأننى لست كذلك، ففى الواقع أخبروها بأننى أحظى بسمعة الشاب العابث الذى لن يستقر يومًا (حسنًا كنت «عابثًا» إلى الحد الذى يمكن به أن يوصف عالم كمبيوتر).

وبالنسبة لـ جاى، فقد تزوجت من أحب زملائها فى الجامعة زواجًا سرعان ما

انتهى بالطلاق دون إنجاب أطفال، ومن ثم كانت تخشى التورط مرة أخرى فى علاقة جديدة.

ومن أول لحظة قابلتها فيها فى أول يوم لزيارتى إلى جامعة نورث كارولينا، وجدت نفسى أسدد بصرى إليها، فهى امرأة ذات جمال بلا شك، زادها شعرها الطويل وقتها حسنًا وبهاءً، ناهيك عن ابتسامتها التى عبرت عن الدفء والبأس معًا، ذهبت إلى المعمل بطبيعة الحال لأرى عرض الطلاب لمشاريعهم حول الواقع الافتراضى ولكننى فى الواقع لم أستطع التركيز مع أى من هذه المشاريع فقد كان بالى يهيم بالتفكير فى جاى.

على الفور بدأت نظرات الغزل تنطلق من عينى تجاه جاى على نحو جرىء، بادلت جاى النظرات على نحو خارج على اللياقة حيث كنا فى المعمل وذاك مكان عمل مهنى، وأخبرتنى جاى لاحقًا: «لا أدرى ما إذا كنت تبادلت النظرات قبل ذلك كثيرًا مع أخريات أم أنك آثرتنى على الجميع». صدقينى يا جاى لقد آثرتك على الجميع.

وفى وقت معين من ذلك اليوم، جلست جاى معى لتطرح على بعض الأسئلة المتعلقة بإحضارى لمشاريع برمجيات إلى جامعة نورث كارولينا، ومن ذلك الوقت وقعت أسيرًا فى يدها، كان على أن أذهب برفقتها إلى عشاء رسمى بالكلية، وسألتها إذا ما كان لديها مانع فى أن نتقابل عقب الاجتماع، فأجابت بالموافقة.

افتقدت تركيزى أثناء تناولى للطعام، وتمنيت لو أن جميع هؤلاء الأساتذة أسرعوا فى تناول طعامهم، حتى أنى أقنعتهم جميعًا بعدم طلب الحلوى بعد الأكل، وأنهيت العشاء معهم فى الساعة الثامنة والنصف وناديت جاى وانطلقت بها.

اصطحبتها إلى أحد المقاهى، على الرغم من أننى لم أكن أتناول الشراب بالفعل، وتملكنى شعور غامر بأننى أريد البقاء فعلًا مع هذه المرأة، كنت قد حجزت بالفعل رحلة طيران للعودة، تقلع فى صباح اليوم التالى، ولكنى أخبرتها بأننى من الممكن أن أعدل عن رأيي حال ما إذا وافقت على موعد آخر نتقابل فيه معًا فى اليوم المقبل، فوافقت ولم تبد أى مانع، وقضينا معًا وقتًا ممتعًا.

وبعد عودتى لـ بيتسبرج، أرسلت لها العديد من الرسائل البريدية التمس منها أن تمن على بزيارة، كان شعورها تجاهى صريحًا فى غنى عن التأويل، ومع هذا كانت تشوبه مشاعر الخوف - إنه الخوف من سمعتى ومن الوقوع فى حبى.

بعثت لى رسالة بريدية تقول:»لن آتى لزيارتك، لقد فكرت فى الأمر مليًا ووجدت أننى لا أتطلع لإقامة علاقة طويلة المدى، أنا آسفة».

بالطبع أصابتنى تلك الرسالة بخيبة أمل، واعتبرتها جدارًا خرسانيًا على أن أتعامل معه، فأرسلت لها باقة من الورد مرفقة بكارت مكتوب عليه: «على الرغم من أن الحزن قد دب فى قلبى، إلا أننى أحترم قرارك ورغبتك ولا أتمنى لك سوى أن تكونى بأفضل حال دائما. راندى».

حسنًا كان تصرفًا صائبًا أتى بثماره، فقد استقلت جاى على أثره طائرة وجاءت لزيارتى.

وأعترف بأننى: إما أننى كنت شاباً غاية فى الرومانسية أوأننى كنت منافقًا فى الحب شيئًا ما، ولكن كل ما تمنيته فقط هو أن يكون لـ جاى مكان فى حياتى، حتى ولو كانت لم تحسم قرارها بعد.

كنا نرى بعضنا البعض كثيرًا خلال عطلة الأسبوع فى فصل الشتاء، وعلى الرغم من أن جاى لم يرق لها أسلوبى الحاد فى التعامل إلى جانب ذلك الشعور الذى كان يتملكنى بأننى أحيط الكون علمًا ومعرفة، إلا أنها وصفتنى بالإيجابية الكبيرة، ورأتنى شخصاً ملأه التفاؤل ولم يسبق لها أن قابلت مثله من قبل، وأخذت تعدد ما بى من أشياء إيجابية، ووجدت نفسى أحرص تمام الحرص على سعادتها وعمل ما هو فى صالحها أكثر من حرصى على أى شىء آخر.

وأخيرًا، طلبت منها أن تنتقل إلى بيتسبرج، وعرضت عليها الخطوبة،على الرغم من أننى كنت أعلم أنها مازالت تتوجس منى خيفة وان ذلك المطلب قد يصيبها بصدمة، لذا لم أضغط عليها، وقد وافقت على الاقتراح الأول حيث انتقلت بالفعل إلى بيتسبرج واسقرت فى شقة هناك.

وفى أبريل، قمت بعمل ترتيبات للقيام بحضور حلقة نقاشية تستغرق أسبوعًا فى جامعة نورث كارولينا، وقد سنح لى من خلال هذه الفرصة أن أساعد جاى على استجلاب مقتنياتها من نورث كارولينا إلى بيتسبرج.

وفور وصولنا إلى تشابل هيل، أخبرتنى جاى بأنها تريد التحدث معى، لمحت فى عينيها جدية لم أرها من قبل.

قالت لى: «لاأستطيع أن أذهب إلى بيتسبرج، أنا آسفة».

تساءلت عما يدور فى ذهنها، وطلبت منها تبريرًا لهذا الموقف.

فكانت إجابتها: «ليس هذا فى صالحنا». ولكنى أردت أن أعرف السبب حقًا.

فقالت: «أنا فقط ... أنا لا أحبك على النحو الذى تعتقده ولكى أؤكد لك أننى لا أحبك راندى، لا أحبك».

هالنى الموقف وانفطر قلبى على أثره، وشعرت بأننى تلقيت ضربة قاضية،

وتساءلت هل تعنى ما قالته فعلًا؟

ياله من مشهد محطم للقلوب، لم يستطع كلانا التحكم فى مشاعره، وأردت أن أتجه إلى حيث يقع فندقى، فسألتها: «هل تكرمت وقدت بنا السيارة أو اتصلت بالشرطة؟».

قادت السيارة بالفعل، وعندما وصلنا إلى وجهتنا، انتزعت منها حقيبتى وأنا أحبس دموعى جاهدًا قدر ما أمكن، لو تملكنى الغرور وقتها وعلانى التشاؤم وضربنى اليأس لاستطعت أن أقول لها: «انظرى ... إننى التمس طريق السعادة، وحقيقة أود أن يكون هذا الطريق من خلالك ولكن إذا لم يكن من خلالك فسأسعى لالتماسه دونك».

وفى الفندق، قضيت معظم فترات اليوم أتحدث مع والدى ووالدتى على الهاتف أحدثهما عن ذلك الجدار الذى حطمته، وجاءت أجابتهما على نحو مذهل.

قال لى والدى: «انظر يا راندى، أنا لا أعتقد أن كلام جاى لك نابع من قلبها، فهو متعارض مع ما تقوم به من تصرفات، ولقد قمت بما عليك، حيث طلبت منها أن تنسى ماضيها وتفتح معك صفحة جديدة بالارتباط معًا، ومن المحتمل أن قلبها يمتلئ رعبًا، فاعلم أنها إن لم تكن تحبك فسينتهى الأمر إلى لا شىء، أما إن كانت تحبك فسينتصر الحب على ما سواه».

ونصحتنى والدتى قائلة: «كن داعمًا لها، فقف بجانبها ودعم هذا الحب».

وبالفعل استمعت إلى النصيحة ونفذتها، قضيت طوال هذا الأسبوع الذى جئت لأحاضر فيه، فى مكتب فى الرواق المؤدى إلى مكتب جاى ووقفت أمامه مرتين أتردد فى الدخول عليها لكى أقول لها فقط: «أريد أن أطمئن على حالك فقط، هل هناك من خدمة يمكننى القيام بها لك، أخبرينى».

وبعد بضعة أيام، نادتنى جاى وقالت: «حسناً، راندى، إننى أجلس هنا منتظرة قدومك، وكل ما أتمناه حضورك هنا، أعتقد أن هذا يعنى شيئًا، أليس كذلك؟».

لقد أدركت حقيقة أمرها، فلقد وقعت أسيرة حبى بالفعل بعد كل شىء.

مرة أخرى، ثبتت جدوى نصيحة والدىّ، فقد انتصر الحب، وانتقلت جاى إلى بيتسبرج نهاية الأسبوع.

مجددًا أقول لم توجد الحوائط الخرسانية سدى، بل لتوضح لنا سوء طريقتنا عند التماس الأشياء.

الفصل السابع عشر
نـهايـة غير سعيدة

أقمت حفل زواجى أنا وجاى فى رحاب حديقة فسيحة لقصر فيكتورى رحيب بمدينة بيتسبرج، تحوطنا أشجار البلوط التى يزيد عمرها على مائة عام، كان حفلًا صغيرًا ولكن كانت أجواء الرومانسية فيه كبيرة، حيث اتفقت أنا و جاى على أن نبدأ مراسم حفل زواجنا بطريقة غير معهودة.

فلم نغادر الحفل ونحن نستقل سيارة ونستمع لأصوات تلامس الكئوس المترعة بعضها بعضًا، ولم ندخل إلى الحفل فى عربة تجرها الأحصنة، بل ركبنا منطادًا ضخمًا ذا ألوان زاهية ارتفع بنا بخفة ورشاقة فى عنان السماء، ونحن نرى أصدقاءنا وأحباءنا واقفين على الأرض يلوحون لنا ويتمنون لنا رحلة سعيدة، فيا لها من لحظة تصويرية.

عندما وطئت أقدامنا المنطاد، كان وجه جاى يشع بالبهجة ويملؤه الفرح، حيث قالت لى: «أشعر وكأننى أعيش أجواء قصة خيالية تنتهى بفيلم لـ ديزنى».

فجأة، عطب المنطاد من جراء اصطدامه بفروع الأشجار وهو فى طريقه إلى الارتقاء، لم تصل فيه نسبة التلف كطائرة هينبرج، ولكن الأمر كان باعثًا على القلق إلى حد ما، وتعقيبًا على هذا الموقف قال المسئول عن عمل المنطاد: «لا مشكلة، لا بأس فى أن نطير عبر فروع الأشجار، فهذا أمر طبيعى».

أمر طبيعى؟!

صعد المنطاد بنا وارتفع أكثر مما كان مقرراً له، وقال المسئول عنه إن هذا سيصعب من حدة الموقف، وذلك لأننا على وشك أن يطبق علينا الظلام فضلًا عن تغير اتجاه الرياح وعقب قائلًا: «لا أستطيع حقًا أن أتحكم فى حركة سير المنطاد، إننا تحت وطأة الريح، ولكن يجب علينا أن نكون فى مأمن».

طاف المنطاد محلقًا فوق مدينة بيتسبرج، وراح يحلق ذهابًا وإيابًا فوق الأنهار الثلاثة المشهورة فى المدينة، ولم تكن تلك بالطبع هى الوجهة التى أرادها المسئول

عن المنطاد، ولمحت القلق فى عينيه، وتحدث إلى نفسه تقريبًا يقول: «لا أجد مكانًا مناسبًا أستطيع أن أهبط فيه بهذا الطائر». ثم ارتفع صوته بالحديث إلينا قائلًا: «علينا أن ننظر جيدًا إلى مكان مناسب كى نهبط فيه».

خرج المشهد من حيز الاستمتاع بالنسبة للزوجين الجديدين، فالجميع تقريبًا راحوا يطوفون بأعينهم يبحثون عن ساحة فسيحة بين جميع هذه البنايات الحضرية كى يهبط فيها المنطاد، وأخيرًا، جاب المنطاد حول ضواحى المدينة ووقع عين المسئول عن المنطاد على حقل كبير يقع هناك على مد البصر، فقرر أن يهبط فيه، وقال وهو يهبط بالمنطاد على نحو سريع: «هذا هو الحل».

سددت بصرى إلى الحقل بأسفل، فوجدته فسيحًا بما فيه الكفاية، ولكنى وجدت هناك على حافته شريطًا للقطار، وراحت عيناى تتبع مسار الشريط فوجدت قطارًا قادمًا بالفعل، وفى تلك اللحظة خرجت عن كونى عريسًا وارتديت لباس المهندس، وقلت للمسئول عن المنطاد: «سيدى، أرى متغيرًا هنا».

فرد علىَّ مستفسرًا: «متغير؟ تقصد أنها مشكله بلغة أهل الكمبيوتر، أليس كذلك؟».

« نعم أقصد ذلك، فماذا لو اصطدمنا بالقطار أثناء هبوطنا؟».

فأصدقنى الحديث قائلًا بأننا واقفون فى سلة المنطاد، واحتمالية اصطدامها بالقطار صغيرة جدًا، ومع ذلك كان الخطر لا يزال قائمًا، فالمنطاد العملاق نفسه «الذى يسمى بالغلاف» قد ينحرف ويسقط على شريط القطار عندما نهبط على الأرض، ولو اشتبك القطار السريع بغلاف المنطاد حال هبوطه، فقد نميل ونحن نقبع فى داخل سلة يتم سحبها إلى الزاوية الخطأ من الحبل، وفى هذه الحالة إمكانية إصابتنا بضرر بدنى ستكون قائمة بالفعل.

قال المسئول عن المنطاد: «لا تنزعج، فبمجرد أن يلامس المنطاد الأرض، ستراه يجرى على نحو سريع جدًا». بالطبع لا يحلم أى زوجين أن يستمعا لمثل هذه الكلمات فى مناسبة حفل زفافهما، باختصار لم تعد جاى ينتابها شعور الملكة فى أفلام والت ديزنى، وبدأت أرى نفسى متقمصًا دور إحدى الشخصيات التى تمثل فيلم إثارة، يفكر فى كيفية النجاة بعروسه من كارثة على وشك الوقوع.

نظرت إلى أعين المسئول عن المنطاد، فأنا غالبًا ما أعتمد على الأشخاص ممن هم على خبرة بأشياء لا علم لى بها، أردت أن استشف من عينيه بوضوح مدى تقييمه للموقف الذى نتعرض له، فرأيت علامات القلق وقد ارتسم كثير منها على وجهه، كما رأيته أيضًا فى حالة أشبه بالهلع، ناهيك عن الخوف الشديد الذى تملكه، نظرت إلى جاى، لقد استمتعنا بزواجنا حتى الآن.

وأثناء هبوط المنطاد، حاولت تقدير السرعة اللازمة التى نحتاج إليها للقفز من السلة والنجاة بحياتنا، قدرت أن المسئول عن المنطاد باستطاعته أن يتعامل مع الموقف وينجو بنفسه، وإذ لم يستطع، فسأبدأ بإنقاذ جاى أولًا فهى حبيبتى، ثم أتوجه إليه بعد ذلك، فهو شخص لم أقابله إلا منذ قليل.

واستمر المسئول عن المنطاد يفرغ منه الهواء شيئًا فشيئًا، ونزع جميع الروافع الموجودة بالمنطاد، أراد أن يهبط بالمنطاد سريعًا إلى مكان ما، وهنا كان على وشك الاصطدام بأحد المنازل القريبة منه وليس بالقطار السريع.

تم التقاط هذه الصورة قبل أن نطير بالمنطاد.

تلقت السلة صدمة عنيفة إثر ملامستها لأرض الحقل أثناء نزولنا، حيث قفزنا بضع قفزات وأخذنا نترنح يمينًا ويسارًا ومالت أجسامنا جانبًا حتى كدنا نسقط على الأرض تقريباً، وفى غضون ثوانٍ، سقط الغلاف الذى فرغ هواءه منثنيًا على الأرض، ولحسن الحظ تفادى الاصطدام بالقطار، وفى الوقت ذاته، شاهد الأشخاص على الطريق السريع المجاور للحقل مشهد هبوطنا على الأرض، فأوقفوا سياراتهم، وهرعوا إلى مساعدتنا، لقد كان مشهدًا غريباً حقًا: جاى ترتدى زى العروس وأنا فى حُلة الفرح، والمنطاد على الأرض ساقط، والمسئول عنه بجواره يلتقط أنفاسه.

جميعنا فقد أعصابه،أما صديقى جاك فكان يتتبع مسار المنطاد من سيارة المتابعة على الأرض، وانتشت نفسه عندما عثر علينا سالمين فور خوضنا لتجربة كنا فيها قاب قوسين من الموت.

وقضيت بعض الوقت أنا وجاى - بينما كان مسئول المنطاد يقوم بوضعه فى الشاحنة - نحاول أن نزيل عن أذهاننا ما حدث لنا.

وبعد ذلك، ومع استعداد جاك كى يصطحبنا بسيارته إلى المنزل، رأينا مسئول المنطاد يهرول وراءنا مناديًا: «تمهلوا، تمهلوا، لقد طلبتم هدية الزفاف! إنها تأتى

ومعها زجاجة من الشراب هدية!». وأعطانا زجاجة رخيصة أتى بها من شاحنته وقال لنا «مبارك لكما».

ارتسمت على وجوهنا ابتسامة لطيفة ووجهنا له الشكر، وهكذا كان ظلام أول ليلة من زواجنا قد خيم على السماء، وما كان للظلام أن يلحق بنا لولا صنيعنا هذا.

الفصل الثامن عشر
لوسى - أنا بالمنزل

فى أيام زواجنا الأولى، ذهبت ذات يوم اتسمت أجواؤه بالدفء والصفاء، إلى جامعة كارنيجى ميلون، بينما كانت جاى قابعة بالمنزل، تذكرت هذا اليوم تحديدًا لأنه كان يومًا لا ينسى فى حياتنا الأسرية؛ حيث كان اليوم الذى استطاعت أن تقود فيه جاى السيارة بمفردها، وتسببت فى حادثين.

كانت سيارتنا الـ مينيفان فى الجراج بينما كانت الـ فولكس فاجن ذات الغطاء القابل للطى فى الممر، أقدمت جاى على سيارة الـ مينيفان لتستقلها دون إدراك منها بأن الـ فولكس فاجن تقف فى الممر تعترض طريق الـ مينيفان، ونتيجة لذلك ارتطمت بها ارتطامًا شديداااااا، ياللهول.

ما حدث بعد ذلك يدل على أننا كنا فى أوقات معينة نعيش أجواء حلقة من حلقات مسلسل الست كوم الشهير «أنا أحب لوسى» I love lucy، حيث قضت جاى طوال اليوم مشغولة البال بكيفية شرح ما حدث لـ ريكى عند عودته من نادى بابلو إلى المنزل.

فكرت جاى وخلصت إلى أنه أفضل ما تقوم به هى تهيئة مناخ جيد كى تكسر من حدة الخبر عندما تلقيه على مسامعى، فقادت أولاً السيارتين ودخلت بهما إلى الجراج وتأكدت من أن الأبواب موصدة، ثم قامت فتزينت لأجدها فى أبهى صورة عندما عاودت إلى المنزل، وفور عودتى أخذت تسألنى عما قمت به طيلة اليوم، وقامت فشغلت الموسيقى وقدمت لى وجبتى المفضلة، صحيح لم تكن ترتدى فستان نوم – يالحظى - ولكنها بذلت ما فى وسعها لتظهر فى صورة الزوجة المثالية المحبة لزوجها.

وقبل أن نفرغ من هذا العشاء الرومانسى، قالت لى: «راندى، أود أن أخبرك شيئًا، لقد صدمت واحدة من سيارتنا بالأخرى».

طلبت منها أن تفسر لى كيفية حدوث ذلك، وتركتها تصف لى مقدار التلف، حيث

قالت لى إن السيارة ذات الغطاء القابل للطى قد نالت القسط الأكبر من التلف، ولكنهما لا تزالان تعملان ثم سألتنى قائلة: «هل ترغب فى أن تلقى عليهما نظرة فى الجراج».

فأجبتها بقولى: «لا، فلنفرغ من طعامنا أولًا».

أصابتها الدهشة، حيث لم تظهر على علامات الغضب ولم أبد حتى مكترثاً بالأمر، وقد تعلمت فيما بعد أن ردة فعلى المتزنة سمة غرست فىّ منذ نشأتى.

وبعد انتهائنا من تناول العشاء ألقينا نظرة على السيارتين، واكتفيت فقط بهز كتفى تعليقًا على ما شاهدت، وقلت لـ جاى: «انسى الأمر فقد انتهى هذا اليوم بأكمله وراح عنا بما فيه من قلق وسوء»، فوعدتنى جاى قائلة: «فى الصباح الباكر، سأقف على حجم ما بها من تلف للقيام بتصليحها».

فأخبرتها بأن هذا ليس أمراً ضروريًا، لا بأس بما تلقت من صدمات، فلقد ربانى والداى على أن السيارات ما صنعت إلا من أجل أن تنقلنا من مكان إلى مكان آخر، فقد صنعت من أجل المنفعة، فهى ليست بواجهة اجتماعية، ومن ثم أخبرتها بأننا لسنا فى حاجة إلى أن نعيد لها رونقها ونضفى عليها لمسات جمالية من جديد، سنتكيف مع ما بها من انبعاجات وما تلقته من صدمات.

صدمت جاى نوعًا ما من جراء ما قلته واستفسرت: «هل بالفعل سنستقل السيارتين على مابهما من صدمات؟».

فأوضحت لها قائلًا: «جاى عليك أن تقبلينى بكل ما فى لا أن تأخذى منى شيئاً وتتركى الآخر، لقد أحييت فى جزء من شخصيتى تمثل فى عدم غضبى عندما أخبرتنى بارتطام السيارتين، ولكن الجزء الآخر الذى عليك أن تعرفيه فهو أنه مادامت الأشياء تؤدى ما هو مفترض بها أن تؤديه فما من حاجة لإصلاحها، والسيارتان لا تزالان تعملان على نحو جيد، فدعينا نجربهما، أتفهمينني؟».

حسناً يبدو هذا أمرًا غير مألوف، ولكن هل إذا حدث تلف بصندوق قمامتك أو ضرر بعجلة اليد الخاصة بك، وجب عليك تغييرها، بالطبع لا فأنت فى غنى عن شراء أخرى، ربما السبب فى ذلك هو أن عجلة اليد وصندوق القمامة لا يعبران عن واجهة اجتماعية للمرء، وبالنسبة لى أنا وجاى، أصبحت هذه السيارات علامة فى زواجنا ومثلت لنا قيمة مفادها أن كل شىء ليس فى احتياج إلى إعادة إصلاحه.

الفصل التاسع عشر
حكاية رأس السنة الجديدة

تعلمت فى عشية رأس السنة لعام 2001 درس لن أنساه كان مفاده، أنه بغض النظر عما يحوطك من ظروف سيئة، فبمقدورك أنت أن تتحكم فى هذه الظروف بأن تزيدها سوءًا أو بأن تعمل على تحسينها.

كانت جاى فى الشهر السابع من شهور حملها بـ ديلان، وكنا على وشك استقبال عام 2002، حيث أطفأنا الأنوار وجلسنا نشاهد الـ DVD.

وما أن بدأ عرض الفيلم حتى قالت جاى:»أشعر بنزول الماء منى»، ولكنه فى الواقع لم يكن ماء بل كان دمًا، فجأة، وجدتها تنزف بغزارة لدرجة أن الموقف لم يكن يتحمل الانتظار حتى أستدعى عربة الإسعاف، كان مستشفى ماجى للسيدات بـ بيتسبرج يقع على بعد أربع دقائق وذلك حال ما إذا قمت بإضاءة الأنوار الحمراء وأنا أقود السيارة وهو ما قمت به بالفعل.

عندما دخلنا إلى غرفة الطوارئ بالمستشفى، رأيت الأطباء والممرضات وطاقم العاملين الآخرين فى المستشفى يتقدمون نحونا ومعهم أنابيب الجلوكوز والسماعات الطبية واستمارات التأمين، وبسرعة قالوا إن مشيمة جاى قد تمزقت من ناحية الرحم، ويعرف هذا من الناحية العلمية بـ «تمزق المشيمة»، وفى ظل هذا الوضع المؤسف لمشيمة جاى تعرضت حياة الجنين للخطر، لا أستطيع أن أحكى لكم عن مدى خطورة الموقف، فلقد كانت صحة جاى وحياة الجنين فى خطر كبير.

فعلى مدار عدة أسابيع لم يكن الحمل يمضى بسلاسة على وتيرته الطبيعية، فنادرًا ما شعرت جاى بتحرك الجنين فى رحمها، كما أن وزنها لم يطرد فى الزيادة المعهودة عند الحوامل، وفى ظل معرفتى بأهمية عدم الاستهانة بالرعاية الطبية أصررت على أن تجرى جاى فحوصات أخرى بالموجات فوق الصوتية، وذلك عندما أدرك الأطباء أن مشيمتها لا تؤدى عملها بالكفاءة المرجوة، كان الجنين على وشك أن يفقد الحياة، لذا أعطى الأطباء جاى جرعة من مادة الأستيرويد لتنبيه رئة

الجنين وتحفيزها على القيام بوظائفها.

كان الأمر باعثًا على القلق الشديد، وفى هذه اللحظة، هنا فى غرفة الطوارئ، ازدادت حدة الموقف وخطورته.

قالت لى الممرضة: «زوجتك على وشك الإصابة بصدمة سريرية». انتاب جاى الرعب، وقرأت ذلك فى عينيها، وتملكنى الخوف أنا أيضًا، ولكنى حاولت أن أحافظ على رباطة جأشى وأهدأ حتى يتسنى لى تقييم الموقف.

نظرت حولى، فوجدت الساعة التاسعة مساء عشية رأس السنة، وبالتأكيد لن يوجد هنا طبيب استشارى كبير أو ممرضة خبيرة فى هذا الوقت، فالجميع ذهب للاحتفال بليلة رأس السنة، وخمنت أن الطاقم الطبى الموجود بالمستشفى هو طاقم احتياطى، وقلت لنفسى هل هم أهل لمهمة الحفاظ على زوجتى وإنقاذ الجنين؟

ومع ذلك، لم يستغرق الوقت طويلًا حتى اقتنعت بكفاءة هؤلاء الأطباء والممرضات، فحتى لو كانوا طاقمًا احتياطيًا فهم بالتأكيد أكفاء، فلقد عالجوا الأمر عند قدوم جاى للمستشفى على نحو سريع وبكل هدوء، ولم يبد عليهم القلق والخوف، فقد تعاملوا مع الموقف بكفاءة كمن يدرى تمامًا ما كان ينبغى عليه فعله، لحظة بلحظة، كما أنهم لم يخطئوا التشخيص وكان الصواب حليفهم.

وبينما جاى مقبلة على خوض عملية قيصرية طارئة، قالت للطبيبة: «إن الأمر مؤسف، أليس كذلك؟».

فأجابتها الطبيبة إجابة استحقت إشادتى بها، فلقد نطقت بالإجابة المناسبة فى الوقت المناسب حيث أجابت: «لو كان الأمر مؤسفًا بالفعل، لم جعلناك توقعين على كل استمارات التأمين، ألاترى ذلك؟»، ثم أردفت: «لم يعد الوقت فى صالحنا». كان للطبيبة هدف معين، ولقد تساءلت كم عدد المرات التى استعانت فيها بكلمات تزيل حدة القلق عن المرضى.

وأيما كان الأمر فلقد أتت كلماتها لـ جاى بنتيجة، وبعد ذلك قام طبيب التخدير فنحانى جانبًا، وقال لى: «اسمع، لديك مهمة عليك أن تقوم بها الليلة، وما من أحد غيرك يستطيع أداءها، إن زوجتك على وشك الإصابة بصدمة سريرية، فلو تعرضت لها، فأنت فقط الشخص الوحيد القادر على إخراجها منها، فهذا ليس بالأمر اليسير علينا، لذا يجب عليك أن تساعدها على أن تبقى هادئة، نريد منك أن تجعلها تتجاوب معنا».

غالبًا ما يقال إن الأزواج يضطلعون بدور فعلى عند ولادة أبنائهم، كما كنت أفعل مع زوجتى؛ حيث كنت أقول لها: «هيّا يا حبيبتى! هيّا تنفسى! جيد! واصلى التنفس

... عظيم!». كان أبى يرى أن تعلم مهارات الوظائف الأخرى أمر ممتع، حيث كان يتناول التشيز برجر خارج البيت عند ولادة أول مولود له، ولكنى فى ظل هذا الموقف كنت بصدد مهمة حقيقية، كان طبيب التخدير حاسمًا فى كلامه والتمست الجدية فى طلبه، حيث قال لى: «أنا لا أعرف ما يجب عليك أن تقوله لزوجتك، أو كيفية التلفظ به، ولكنى أثق فى قدرتك على النطق به، عليك فقط أن تبعدها عن حافة السرير كلما انتابها الخوف».

وبدأت العملية القيصرية وأمسكت بيد جاى مطبقًا عليها بقدر ماتسنى لى، استطعت أن أرى بعينى مايجرى بينما عجزت هى عن رؤية مايحدث، وقررت من جانبى أن أخبرها فى هدوء بكل مايحدث، وأصدقها القول.

اكتست شفتاها باللون الأزرق، وكانت ترتجف، بينما كنت أقوم أنا بتمسيد رأسها ثم أقبض على يدها بكلتا يدى محاولًا أن أصف لها أحداث الجراحة على نحو صريح ومطمئن فى نفس الوقت، ومن جانبها حاولت جاهدة أن تتجاوب معنا وتحتفظ بهدوئها ووعيها.

ثم قلت لها: «ها أنا أرى طفلًا، هناك طفل يخرج».

ومن فرط ماذرفت من دموع لم تستطع أن تسأل السؤال الصعب، ولكنى فطنت إليه وبادرت بالإجابة دون سؤال، قائلاً: «نعم إنه يتحرك، فهو حى».

وبمجرد خروجه أجهش وليدنا الأول ديلان بعويل لم أسمع مثله من ذى قبل، كان الطفل ملطخاً بالدم فور خروجه من رحم أمه، ابتسمت الممرضات وقالت إحداهن: «عظيم»، ثم تحدثت لنفسى قائلاً، إن الطفل الذى يخرج من رحم أمه فى هدوء دون صخب سيعانى فى حياته كثيرًا، أما الأطفال الذين تتعالى أصواتهم بالعويل ويحدثون جلبة وصخبًا، فأولئك هم المقاتلون، وسينعمون بالرغد فى حياتهم.

كان ديلان عند ولادته رطلين وخمسين أوقية، ورأسه كان فى حجم كرة البيسبول، ولكن أفضل ما فى الأمر أنه كان يلتقط أنفاسه على نحو طبيعى.

التقطت جاى أنفاسها، حيث شعرت بالراحة وحركتها العاطفة، وعند ابتسامتها لاحظت أن الزرقة التى كست شفتيها قد تلاشت وعادت شفتاها للونهما الطبيعى، كنت فى غاية الفخر بها، وأذهلتنى شجاعتها، فهل كان لى الفضل فى عدم تعرضها لصدمة؟ حقيقة لا أدرى، ولكن فى الواقع فعلت معها كل شىء من قول وفعل ومساندة بالمشاعر كى تبقى يقظة معنا، وحاولت ألا أظهر فى صورة من أصابه الذعر، فربما يكون قد ساعدها هذا أيضًا.

تم إرسال ديلان فور ولادته إلى الحضانة، وأدركت أن من يرسل بأولادهم إلى هذا

المكان قى حاجة إلى تأكيدات من الأطباء تطمئنهم على صحة أبنائهم، وفى ذلك المستشفى، مشتشفى ماجى، كانوا يتعاملون مع من لهم أبناء فى الحضانة بطريقة رائعة، حيث كانت تتم طمأنة الآباء بطريقتين مختلفتين تمامًا، أولاً، كانوا يطنبون فى الحديث مع الآباء يقولون لهم: 1) إن ابنكم له مكانة خاصة وليس كبقية الأولاد، وهو فى حاجة إلى عناية طبية خاصة و 2) لا يساوركم القلق بشأن سلامة ابنكم فنحن لدينا ملايين الأطفال هنا فى الحضانة.

لم يحتج ديلان إلى تنفس صناعى، ولكنّ يومًا تلو الآخر، كنا نشعر بخوف متزايد من أن يحدث تغير ما وتتردى حالته، كان لا يزال الوقت مبكرًا للاحتفاء بثالث أفراد أسرتنا، فعندما كنت أستقل السيارة أنا وجاى فى طريقنا إلى المستشفى، كان يشغل ذهنينا شىء واحد: «هل سنجد طفلنا حيًّا عند قدومنا إلى المستشفى؟».

ذات يوم، وصلنا إلى المستشفى ولم نلق وجودًا لسرير ديلان، كادت جاى تنهار تقريبًا من فرط العاطفة، وتعالت ضربات قلبى بصورة كبيرة، جذبت أقرب ممرضة تقف بجوارى، بالتحديد جذبتها من صدريتها، كنت ألهث من الخوف وصوتى يتقطع ولم أستطع حتى أن أخرج جملة مفيدة.

قلت لها وأنا فى هذه الحالة:»طفل اسمه الأخير باوتش، أين هو؟».

وفى هذه اللحظة، كدت أفقد قواى، لا أستطيع أن أصف هذا الموقف، كنت أخشى دخولى نفقًا مظلمًا لم أعتد دخوله من قبل.

ولكن الممرضة علتها ابتسامة وقالت: «أوه، لقد تحسن حال طفلك، ولذا نقلناه إلى الطابق العلوى، حيث ينام الآن فى سرير الأولاد المفتوح». فقد قالت إنه كان فيما يسمى بـ «السرير المغلق» وهو لفظ لطيف أكثر من لفظ الحضانة.

هرولنا ونحن نشعر بحالة من الراحة بالصعود إلى الطابق الأعلى واتجهنا إلى جناح آخر من المستشفى، حيث وجدنا ديلان وهو يصرخ كعادة الأطفال.

لقد ذكرنى مولد ديلان، بما يلعبه المرء من أدوار فيما هو مقدر له، فأنا وجاى كنا سنزيد الأمر سوءًا لو تملكتنا حالة من الهلع، فلو انتابت جاى حالة من الهلع الجنوني أثناء ولادتها كانت ستئول بها إلى التعرض لصدمة، أما لو استسلمت للخوف فما من مساعدة كنت سأقدمها لـ جاى فى غرفة العمليات.

فطوال تعرضنا لهذه المحنة، لا أتذكر أننا قلنا مطلقًا لبعضنا البعض: «هذا ليس عدلًا»، ولكننا بدلًا من ذلك مضينا فى طريقنا قدمًا، لقد أدركنا أن هناك أشياء يمكننا فعلها لكى تساعدنا على الخروج بنتائج إيجابية ... ولقد نفذنا هذه الأمور بالفعل، كان مبدؤنا عمليًا وليس مجرد كلام، تعكسه تلك العبارة «دعنا نسرج الفرس ونمتطه».

الفصل العشرون
«خمسون عامًا وأنا لا أدرى»

بعد وفاة والدى فى عام 2006، رحنا نبحث فى متعلقاته، كان أبى محبًا للحياة حبًا جمًا، حيث تجد متعلقاته تتحدث عن مغامراته التى خاض غمارها فى الحياة، فلقد رأيت له صورا شتى فى مختلف أعماره السنية، حيث وجدت له صورة وهو شاب فى مقتبل العمر يعزف على الأكورديون، وأخرى وهو رجل فى أواسط العمر يرتدى زى بابانويل (كان يحب هذه الشخصية)، وتلك التى ظهر فيها رجلاً قد نال منه الكبر ممسكًا بدمية على شكل دب يكبره هو شخصيًا فى الحجم، وفى صورة أخرى التقطت له فى عيد ميلاه الثمانين، ظهر وهو يركب قطار الملاهى وبيده أشياء كثيرة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

وبينما أنا أبحث فى متعلقات والدى، إذ بى أجد أشياء لم يكن قد أراها لنا من قبل دفعتنى رؤيتها إلى الضحك، فها هى صورة شخصية - التقطت له على ما يبدو فى باكورة السبعينات - وهو يرتدى جاكيت ورابطة عنق فى محل للخضراوات، وقد أمسك بحقيبة أوراق بنية اللون فى إحدى يديه، صحيح لا أعرف ماهية ما كان فى هذه الحقيبة بالضبط، ولكنى أعرف أبى جيدًا؛ لا بد أنه كان يحمل فيها شيئا لطيفًا.

ذكرتنى صورة هذه الحقيبة بأبى عندما كان يعود من العمل إلى المنزل ومعه لعبة صغيرة أو قطعة من الحلوى، حيث كان أبى يفتعل سياقًا دراميًا يمتاز بالمتعة وروح الدعابة يستطيع من خلاله أن يقدم لنا هذه الأشياء، وقد كان هذا أجمل ما فى الأمر بعيدًا عن جلبه للهدية نفسها.

احتفظ أبى كذلك بمجموعة من الأوراق ما بين خطابات التأمين الخاصة بشركته والوثائق المتعلقة بمشاريعه الخيرية، ومن بين ثنايا هذه الأوراق عثرنا على شهادة تقدير خاصة بأبى حررت فى عام 1945، أى وقت أن كان أبى فى الجيش، كانت تلك الإشادة مقدمة لأبى من القائد العام لفرقة المشاة الخامسة والسبعين، وذلك نظرًا لما قام به أبى من «عمل بطولى».

ففى أبريل من عام 1945، هاجمت القوات الألمانية سرية والدى، ودارت رحى المعركة التى سقط فى ساعاتها الأولى ثمانية جرحى من صفوفنا جراء القصف العنيف للمدفعية الألمانية الثقيلة، وهذا ما كتب فى شهادة التقدير: «لم يفكر الجندى باوتش فى سلامة حياته، فوثب مندفعًا خارج إحدى نقاطه الحصينة وهرول لإسعاف الجرحى بينما القنابل تواصل سقوطها على مقربة منه، أولى هذا الجندى الجرحى بالعناية الطبية على نحو طيب حتى تم سحبهم من أرض المعركة بنجاح».

وتقديرًا لهذا الحدث، تقلد أبى نوط الشجاعة المتمثل فى النجمة البرونزية، وكان حينها فى الثانية والعشرين من عمره.

تزوج أبى من والدتى فى الخمسينات، تكلمت مع أبى ودارت بيننا حوارات آلاف المرات ومع هذا، لم يحدثنى مطلقًا عن هذا الأمر، وها أنا بعد عدة أسابيع من وفاته أكتشف هذا الأمر وأتعلم منه درسًا جديدًا عن معنى التضحية - وعن قوة نكران الذات والتواضع.

الفصل الحادي والعشرون
جاى

سألت جاى ماذا يمكنها أن تقول بعد أن تم تشخيص إصابتى بسرطان البنكرياس، كان من الممكن أن ينتهى بها الأمر بكتابة كتاب تسميه «انس المحاضرة الأخيرة؛ وعش الواقع».

جاى امرأة قوية، أحترم فيها صراحتها المباشرة واحيى فيها أمانتها واستعدادها للحديث معى مباشرة وبكل وضوح، فعلى الرغم من أنه لم يبق فى حياتنا الزوجية سوى أشهر معدودة، إلا أننا لازلنا نتفاعل مع بعضنا البعض كما لو كان كل شىء يتخذ مساره الطبيعى وحياتنا الزوجية ممتدة لعقود قادمة، حيث نتناقش معًا ويصيبنا الاحباط حينًا ويجن جنوننا فى أحيان أخرى، ونرتدى من الملبس أجمله فى بعض الأوقات.

وتقول جاى إنها لاتزال تحاول حتى الآن الوقوف على طريقة تستطيع من خلالها أن تتعامل معى، ولكنها تزداد تحسنًا فى هذا الأمر.

دائمًا ما تقول لى جاى: «إنك دائمًا ترتدى زى العالم، يا راندى، هل تريد كل شىء يمضى على وتيرة علمية؟ حسنًا لك هذا». اعتادت جاى أن تقول لى: «ضقت بك ذرعاً» عند تصرفى بشكل معين نحو شىء ما، ولكنها الآن أصبحت تقدم لى البيانات العلمية التى تؤيد كلامها.

فعلى سبيل المثال، كان من المقرر أن نذهب معًا أنا وجاى والأولاد لزيارة أقربائى - المصابين جميعًا وقتها بالأنفلونزا - فى عيد رأس السنة المنصرم، أرادت جاى أن تجنبنى أنا والأولاد خطر الإصابة بعدوى الأنفلونزا، ولكن بالنسبة لى كان لابد من قيامى بهذة الزيارة، فوقتى محدود ولن يتاح أمامى بعد ذلك كثير من الفرص التى أقوم من خلالها بزيارة عائلتى.

ولذا قلت لـ جاى: «سنبتعد عنهم قدر ما أمكن لنكون فى مأمن من العدوى، اطمئنى فسنكون بخير».

أدركت جاى أنه عليها أن توفر البيانات العلمية حتى يقتنع زوجها، فاتصلت بصديقة لها تعمل ممرضة، واتصلت بطبيبين يقطنان شارعنا، وأخذت من جميعهم النصيحة الطبية التى كان مفادها لا ينصح باصطحاب الأولاد مع أبيهم، ومن ثم حدثتنى جاى قائلة: «لقد استشرت الأطباء ونصحونى بعدم اصطحابك للأطفال وهم طرف محايد يا راندى»، ومع تقديمها لى البيانات العلمية لم أستطع أن أمانع ونزلت على رأيها، وذهبت بمفردى فى زيارة سريعة لرؤية أفراد عائلتى بينما جلست جاى بصحبة الأولاد فى البيت. (للعلم، لم أصب بالبرد).

أعلم فيما تفكر الآن عزيزى القارئ، فالعلماء ممن هم على شاكلتى أناس يصعب العيش معهم.

كانت الصراحة هى سلاح جاى فى تعاملها معى، فعندما كنت أتمادى فى عدم اللياقة كانت تواجهنى بذلك مباشرة، أو تعطينى إشارة تحذير كهذه: «هناك شىء يضايقنى، لا أعلم ما هو حينما أعلمه سأخبرك به».

وكان من ضمن الإشارات التحذيرية أيضًا، أن تقوم جاى بإسقاط شىء صغير من الأمتعة على الأرض، وذلك بناء على نصيحة مستشارنا الطبى الدكتورة ريس، حيث كانت نصيحة مجدية لمساعدة الأزواج على إعادة تقييم حياتهم الزوجية عندما يصاب أحدهم بمرض مميت، فالأزواج الذين هم على شاكلتنا عليهم أن يجدوا طريقة للعيش على نحو طبيعى.

أنا شخص يتسم ببعثرة الأشياء، حيث كنت ألقى بملابسى، النظيف منها والقذر، فى جميع جنبات غرفة النوم، ودائمًا ما تجد حوض حمامى يعوزه النظام، كانت جاى يجن جنونها عند رؤيتها لهذا المنظر، كانت تعقب على هذا ببعض العبارات قبل إصابتى بالمرض ولكن بعد أن أصبت بالمرض نصحتها الدكتورة ريس بألا تدع هذه الأشياء الصغيرة تعكر صفو حياتنا.

بصراحة، ينبغى على أن أكون أكثر تنظيمًا، وأقدم لـ جاى اعتذارى الشديد عن هذا، ولكنها لم تعد تخبرنى عن ذلك الشىء الذى يضايقها، هل سنقضى شهورنا الأخيرة نتجادل حول لماذا لم أقم بتعليق ملابسى؟ بالطبع لا، لذا لم تعد جاى تعير ذلك الأمر اهتمامًا فصارت تركل ملابسى بقدمها إلى إحدى زوايا الغرفة كلما رأتها وتمضى فى عملها قدمًا.

اقترح أحد أصدقائنا أن تكتب جاى لنفسها صحيفة يومية تفرغ فيها ما عجزت عن مواجهتى به، وقالت جاى إنها فكرة صائبة، كتبت فيها جاى كل الأشياء التى كنت أثير بها غضبها، حتي كتبت ذات ليلة «راندى لم يضع طبقه فى آلة غسل الأطباق،

بل تركه على الطاولة واتجه نحو حاسوبه». كانت تعلم أننى مشغول بتصفح الإنترنت على نحو دائم لرؤية الأبحاث المتعلقة بالعلاجات الطبية، ومع هذا فقد كان مشهد الطبق على الطاولة يثير غضبها، ولا أستطيع من جانبى أن ألومها، لذا فقد كتبت عنه وشعرت بهدوء أعصابها بعد كتابتها، ومرة أخرى تجنبنا الدخول فى مشاجرة بهذه الطريقة.

تحاول جاى أن تركز على الأشياء الإيجابية وليس السلبية، حيث تقول: «لن يكون مجديًا لو قضينا أيامنا هذه نرثى فيها مستقبلنا».

ليلة راس السنة الماضية مثلًا، على الرغم من أنها كانت تتسم بروح الود وبفيض المشاعر إلا أن مشاعر الحزن فيها اختلطت بمشاعر السعادة، فلقد كانت عيد ميلاد ديلان السادس، وأقمنا فيها احتفالًا على شرف هذه المناسبة، ومع هذا لم نتطرق إلى المشكلة العويصة وهى عدم وجودى فى احتفالات ليالى رأس السنة القادمة.

اصطحبت ديلان معى إلى السينما هذه الليلة لمشاهدة فيلم «متجر السيد ماجريوم العجيب، وتدور فكرته الرئيسية حول صانع ألعاب، قرأت على صفحات الإنترنت وصفًا عن هذا الفيلم، ولكنه لم يذكر أن ماجريوم سيقضى نحبه وسيئول متجره من بعده لصبيه فى المتجر، ولذا صرخ ديلان ونحن فى دار السينما عند وفاة ماجريوم متأثرًا بموته (لم يكن يعلم بعد نتيجة تشخيصى وأننى سألقى نفس مصير ماجريوم)، فلو كانت حياتى مجرد فيلم سينمائى لتناولت ألسنة النقاد مشهدى أنا وديلان بالهجوم الشديد، وهناك مشهد بين الصبى (الذى قام بدوره ناتيلى بورت مان) وصانع الألعاب (الذى قام بدوره دوستين هوفمان) لا تفارق إحدى عباراته ذاكرتى، حيث يقول له الصبى ليس بإمكانك أن تموت بل يجب أن تعيش فيجيبه قائلًا: «لقد عشت حياتى بالفعل».

وفى آخر الليلة ومع اقتراب السنة الجديدة، لمحت جاى اليأس فى عينى وكادت تواجهنى بذلك، ومن أجل رسم البهجة على وجهى، استعرضت معى جاى أحداث العام الماضى وتوقفت عند بعض الأشياء الرائعة التى حدثت خلالها، كالإجازات التى قضينا فيها أوقاتًا رومانسية لطيفة، كلانا فقط، حيث لم تشغل الإصابة بالسرطان بالنا ولم تؤثر فى وقتنا الثمين، ورأينا الأطفال وهم يكبرون أمام عيوننا ومنزلنا وهو مفعم بالطاقة و يملؤه الحب.

وتعهدت لى جاى أنها ستكمل المسيرة وستكون دومًا فى خدمتى وخدمة الأولاد ووعدتنى قائلة: «لدى أربعة أفراد علىَّ الحفاظ عليهم وسأفعل».

وأخبرتنى جاى بأن أحد أفضل أوقات يومها هو وقت مشاهدتها لى وأنا أتفاعل مع

الأطفال، حيث تقول إن وجهى يكون كالبدر عندما تتحدث لى كالوى (تبلغ كالوى من العمر ثمانية عشر شهرًا وهى تتحدث بالفعل جملًا من أربع كلمات).

وفى حفلة رأس السنة، قمت بمغامرة عند تعليق أنوار شجرة الكريسماس، فبدلًا من أن أعطى التعليمات لكل من ديلان ولوجان التى على أساسها يعلقان الأنوار بشكل صحيح، تركتهما يعلقانها على نحو عشوائى، فعلى الرغم من أنهم أرادوا أن يلقوا بالأنوار على الشجرة دون تعليق محكم إلا أننى لم أجد فى هذا مشكلة، سجلت على أحد أشرطة الفيديو هذا المشهد الفوضوى، ووصفت جاى هذه اللحظة بأنها «لحظة سحرية» ستبقى خالدة فى ذاكرة جميع أفراد الأسرة كواحدة من أفضل الذكريات التى اجتمعت فيها أفراد الأسرة معًا.

* * *

بحثت جاى عبر الإنترنت عن المواقع الخاصة بمرضى السرطان وأسرهم، ووجدت معلومات قيمة على هذه المواقع، ولكنها لم تستطع أن تتصفحها طويلًا، حيث تقول جاى: «العديد من روابط هذه المواقع تبدأ بعبارات من قبيل «انتهت حياة بوب...» و»انتهت حياة جيم...»، ولا أعتقد أنه سيكون أمرًا مجديًا قراءة مثل هذه العبارات.

ومع ذلك فقد وجدت جاى إحدى الروابط الذى ألهب مشاعرها وبث فيها الحيوية، حيث كتبته امرأة أصيب زوجها بسرطان البنكرياس، كان من المخطط أن تذهب هى وزوجها لقضاء نزهة أسرية فى إحدى الإجازات ولكنهم أجلوها ومات زوجها قبل الخروج معها، فكتبت تلك المرأة إلى مقدمى الرعاية الآخرين تنصحهم: «عليكم بمثل هذه النزه القصيرة، فلطالما احتجتم إليها، عيشوا لحظتكم». وتعهدت جاى أن تعمل وفقًا لتلك النصيحة.

وقد بحثت جاى على نطاق محلى عن مقدمى الرعاية لأزواجهم أو زوجاتهم الذين يعانون من أمراض مميتة، ووجدت أنه من المجدى التحدث إليهم، حيث هو السبيل أمامها لو أرادت أن تشتكى حالى أو أن تنفس عن الضغط الذى تتعرض له نظرًا لما أنا فيه.

وفى الوقت ذاته كانت تحاول أن تركز فى حديثها على أوقاتنا السعيدة، فعند تعبيرى لها عن الحب كنت أرسل لها باقة من الزهور مرة كل أسبوع أو أعلق دمية فى مكتبها، أو أتوارى فى مكان جانبًا - ليس بقصد تخويفها - ثم أظهر لها فجأة، حيث كانت تستمتع بذلك، وقد قالت لى مؤخرًا إن الابتسامة ترتسم على وجهها كلما تذكرت مواقفى الرومانسة وذلك أمر تستعين به على تخطى هذه اللحظات.

وبالمناسبة، حققت جاى عدداً لا بأس به من أحلام طفولتها، فقد أرادت أن تمتلك حصانًا خاصًا بها (لم يحدث ذلك مطلقًا، ولكنها امتطت أحصنة كثيرة) أرادت أن تسافر إلى فرنسا (وقد حدث ذلك بالفعل؛ فقد عاشت صيفًا فى فرنسا وهى فى الكلية)، وفوق ذلك كله يأتى حلمها، كأى فتاة بأن تكون أمًا يومًا وبالطبع قد تحقق.

أتمنى أن أكون قد ساعدتها فى العديد من الأوقات على تحقيق مزيد من الأحلام الأخرى, ولكن يبقى حلم الأطفال هو الحلم الأعظم الذى تحقق، وها نحن معًا نجد السلوى فى هذا الحلم.

عندما تحدثت مع جاى عن الدروس التى تعلمتها طيلة مشوارنا معًا، تحدثت عن القوة التى استمددناها من وقوفنا جنبًا إلى جنب، نشد أزر بعضنا البعض، وتقول إن أجمل ما فى حديثنا معًا أنه ينبع من القلب، وبعدها حدثتنى عن ملابسى التى كانت تتناثر هنا وهناك فى جميع أرجاء الغرفة وكيف كان هذا الأمر يثير حفيظتها، ولكنها كانت تتغاضى عنه، وعددت لى من الأشياء الكثير، كنت أعلم أنها قبل أن تبدأ كتابة مذكراتها اليومية، ستتحدث عن فوضويتى، سأسعى جاهدا للالتزام بالنظام، فهو إحدى خططى فى السنة الجديدة.

الفصل الثاني والعشرون
الصدق ينجيك

تم إيقافى مؤخرًا وأنا أقود سيارتى بسبب تخطى حد السرعة المسموح بها، وقد كان ذلك على مقربة من منزلنا الجديد بـ فرجينيا، لم أنتبه لمسألة السرعة حقًا، فقد تجاوزت بالفعل السرعة المقررة بعدة أميال للساعة.

أوقفنى ضابط الشرطة قائلاً: «هل لى أن أرى رخصتك ووثيقة تسجيلك؟». فأخرجتهما له، فاطلع عليهما ولاحظ أن العنوان المكتوب على رخصة القيادة هو مدينة بيتسبرج بولاية بنسلفانيا.

فسألنى قائلاً: «ماذا تفعل هنا، أضمن صفوف الجيش أنت؟».

فأجبته بالنفى، موضحاً له أننى انتقلت لتوى إلى فرجينبا ولم يكن لدى وقت لأعيد فيه التسجيل.

فوجه لى سؤالًا مباشراً: «إذن، ما الذى أتى بك إلى هنا؟». وبدون أن أطيل التفكير أجبته قائلاً: «حسناً، سيدى، بما أنك سألت هذا السؤال، فأقول لك إننى رجل مصاب بمرض مميت، ولم يبق لى فى الحياة سوى أيام تحصى، وقد انتقلت بأسرتى مؤخراً إلى فرجينيا كى أكون على مقربة من أسرة زوجتى».

فرفع الضابط رأسه وحملق فىّ قائلاً بصوت فاتر: «إذن أنت مصاب بالسرطان»، محاولًا أن يتحقق من صحة كلامى هل أنا بالفعل مشرف على الموت؟ أم مجرد مخادع؟ ومن ثم أطال النظر ثم قال: «تقول إنه لم يبق لك فى الحياة سوى شهور معدودة، ولكنى أرى أمامى رجلًا يتمتع بصحة جيدة».

كان الضابط يفكر على هذا النحو: إما أن هذا الرجل يدعى كذبًا أو أنه يصدقنى القول، ولكن كيف لى أن أهتدى إلى الحقيقة. لم يكن هذا بالأمر الهين عليه، فقد حاول أن يشكك فى صدقى دون أن ينعتنى بالكذب صراحة، لذا فقد أجبرنى على أن أثبت له صدق كلامى معه، فكيف كان لى إذن أن أتصرف حيال هذا الموقف؟

قلت له: «حسنًا أيها الضابط، أعلم أننى أبدو فى صحة جيدة، ولكن بالمفارقات

القدر، فحسن حالى هو الظاهر للعيان وما استترت إلا أورامى». وبعدها لا أعلم ما الذى دفعنى لأن أرفع له قميصى حتى يتسنى له رؤية آثار العمليات الجراحية.

نظر الضابط إلى مابى من ندبات، ثم اتجه ببصره نحو عينىّ، ولمحت فى وجهه مايفيد بأنه يتحدث بالفعل إلى شخص قد داهمه الموت، فقد كنت بالنسبة له أغرب شخصية حدث وأن استوقفها فى حياته على الإطلاق وكف عن التمادى معى فى الحديث، وأعاد لى رخصة القيادة قائلًا: «أريد منك أن تسدى لى خدمة، رجاء هدئ سرعتك من الآن فصاعداً».

ها أنا بفضل الحقيقة المرة قد عفى عنى، ومع رجوع الضابط إلى سيارته، أدركت بأننى لم أكن يومًا من هولاء المتصنعين المراوغين، أخذت سيارتى وانطلقت بها إلى المنزل فى حدود السرعة المصرح بها، وابتسمت أثناء قيادتى وكأنى ملك متوج.

الجزء الرابع
مساعدة الآخرين على

تحقيق أحلامهم

الفصل الثالث والعشرون
أنا فى شهر العسل

ولكن لو أردتنى فسوف . . .

ذهبت ذات يوم إلى المتجر بناء على رغبة جاى لشراء بعض الخضراوات والفاكهة، وبعد أن وجدت جميع السلع التى أبغى شراءها، قلت لنفسى من الممكن أن أنتهى وأخرج سريعًا من المتجر إذا ما استعنت بجناح فحص السلع الذاتى، حيث وجدت الماكينة فأدرجت فيها بطاقتى الائتمانية واتبعت التعليمات، وتأكدت من السلع بنفسى، أحدثت الماكينة صوتًا كصوت الصرير وأوضحت أن المبلغ المطلوب دفعه هو 16.دولار، ولكنها لم تخرج فاتورة، فما كان منى إلا أن سحبت البطاقة وأدرجتها مرة أخرى.

وماهى إلا لحظات وخرجت لى فاتورتان، فقد ضاعفت الماكينة المبلغ المراد دفعه.

وفى هذه اللحظة، فكرت فى أن أذهب إلى المدير، حيث من الممكن أن يستمع لقصتى، ويملأ لى استمارة ويأخذ بطاقتى الائتمانية إلى جهاز تسجيله فيلغى فاتورة ويبقى على أخرى، ولكن كان هذا سيستغرق من عشر إلى خمس عشرة دقيقة، ولن يكون ذلك امراً محموداً لى فى الواقع.

وفى ضوء مسافتى القصيرة التى سأقطعها إلى البيت، فكرت مع نفسى قائلًا هل أستغرق هذه الدقائق الثمينة فى تسديد هذه الأموال مجددًا؟ لا، لا لن أفعل ذلك، إذن هل أتحمل دفع فاتورة إضافية بمبلغ 16.55 دولار؟ نعم، وهذا ما كان بالفعل، غادرت المتجر سعيداً لأننى فضلت أن أوفر من وقتى خمس عشرة دقيقة على دفع ستة عشر دولارًا.

كنت أعى تماما طوال حياتى أن الوقت محدود، وأعترف بأننى أحكم عقلى وأستعين بالمنطق على نحو زائد فى كثير من الأمور، ولكن لدى اعتقاد راسخ فى أن أفضل ثوابتى التى لا تتزعزع هو حسن إدارة الوقت، ودائماً ما كنت أعنف طلابى بشأن موضوع حسن إدراة الوقت، وألقيت من المحاضرات ما يتعلق بهذا الأمر، ولأننى أدرت وقتى على خير وجه، أشعر بأننى قد جمعت كثيراً من أمور الدنيا فى دورة حياتى القصيرة التى عشتها.

وهذا ما أومن به:

لابد من حسن إدارة الوقت، تمامًا كالمال. كان طلابى أحيانًا يركزون أثناء المحاضرة على "لزماتى" فى المحاضرة، لذا كنت أقف بجوارهم وأحثهم على عدم إهدار الوقت فى التركيز على مثل هذه التفاصيل التافهة حيث كنت أقول لهم: "ما من داعٍ لأن تزين أسفل درابزين سلمك لتظهره فى أبهى صوره".

يمكنك أن تغير خطتك، ولكن فقط إذا كان لديك خطة. أومن بشكل كبير بضرورة إعداد قائمة مهام يتعين إنجازها، فهى تساعد على تجزئة الحياة إلى خطوات صغيرة، ذات مرة وضعت على قائمة مهامى أن "أحصل على وظيفة دائمة"، كان هذا فعلا ساذجا ولكننى حققته، إن أفضل ما تفعله تلك القوائم هى تجزئة المهام إلى خطوات صغيرة، إنها بالضبط كتشجيعى لابنى لوجان على أن ينظف غرفته من خلال التقاط شىء واحد كل مرة.

اسأل نفسك: هل تنفق مالك فى مصارفه الصحيحة. قد يكون لك أسباب أو أهداف أو مهام، فهل تستحق هذه الأشياء السعى وراء تحقيقها؟ احتفظت بصورة نشرت فى إحدى الصحف لامرأة حامل وهى تحتج على أحد مواقع البناء المحلية، كانت المرأة تخشى من أن يلحق صوت مثقاب الخرسانة الضرر برضيعها، ولكن انظر إلى هذا الموقف المتناقض، كانت المرأة تظهر فى الصورة وهى تنفث السجائر، فلو كانت هذه المرأة تحرص على سلامة وليدها حقًا، لكن من الأحرى بها بدلًا من أن تقضى وقتها فى الاحتجاج ضد الموقع أن تطفئ سيجارتها.

ضع نظاماً جيداً لترتيب الملفات. عندما أخبرت جاى بأننى أريد أن أخصص مكاناً فى المنزل نحفظ فيه كل شىء فى ملفات بترتيب أبجدى، قالت لى إننى أبدو شخصية مصابة بالوسواس القهرى، فأخبرتها: "إن ترتيب الملفات أبجدياً لهو خير من أن نظل نبحث عن الشىء ونقول، أتذكر ذلك الشىء كان لونه أزرق حيث كنت أتناول شيئاً ما عندما كان معى".

أعد التفكير فى أمر الهاتف. أعيش فى ظل ثقافة تجعلنى أقضى وقتاً كثيراً على

الهاتف، أستمع لمن يقول: "مكالمتك من الأهمية بمكان بالنسبة لنا". نعم، هذا صحيح، وهذا يشبه بالضبط من يقابل فتاة للمرة الأولى فيصفعها على وجهها قائلًا لها: "أنا أحبك بالفعل". على الرغم من هذا فذلك ما تقوم به بالضبط خدمة العملاء الحديثة، وأنا أرفض هذا، حيث لا أضع مطلقًا سماعة الهاتف على أذنى وأنا أتحدث خلاله، فدائمًا ما أستعين بسماعة خارجية لكى أبقى على حرية يدى فيتسنى لى أن أفعل بها ما أشاء.

كما توصلت أيضًا إلى سبل أستطيع من خلالها أن أحد من وقت المكالمات غير الضرورية، فلو كنت جالسًا على سبيل المثال وأنا أتحدث على الهاتف لا أستند على شىء ولا أرفع قدمىّ مطلقًا، فمن الأفضل أن تقف وأنت تتحدث على الهاتف، إذ إن ذلك سيساعدك على إنهاء المكالمة سريعًا، كما أحب أيضًا أن أضع أمامى على المكتب شيئًا يستلزم عمله كى يدفعنى إلى أن أعجل فى الحديث مع المتصل.

وعلى مدار السنين، توصلت إلى طرق أخرى تتعلق باستخدام الهاتف، هل تريد أن تنهى مكالمتك على نحو سريع؟ توقف فى حديثك أثناء المكالمة الهاتفية، سيظن الطرف الآخر أن شيئاً ما قد حدث فى الاتصال وسينهى معك المكالمة وسيحاول الاتصال بك فيما بعد. هل تريد أن تحد من وقت مكالمتك مع الطرف الآخر؟ اتصل به فى الثانية عشرة إلا خمس دقائق صباحًا، أى قبل الغداء مباشرة، سيتحدث إليك على نحو سريع، قد تعتقد عند حديثه معك على هذه الصورة أنك شخص مهم ولكنك لست أهم من الغداء.

حمل المسئولية للآخرين. كأستاذ جامعى، تعلمت مبكراً كيف أحمل طلابى ذوى العقول النيرة ممن هم فى سن التاسعة عشرة المسئولية، وقد كانوا أكفاء لها بشكل لافت للنظر، فليست المرحلة السنية بعائق لتولى المسئولية، فابنتى كالوى تبلغ من العمر ثمانية عشر شهراً فقط، وهاتان صورتان من أفضل الصور التى التقطها لها حيث تظهر فيهما وهى بين ذراعى، ففى الصورة الأولى أعطيها زجاجة الرضاعة بيدى، وفى الصورة الثانية وكلت إليها المهمة وجعلتها تمسك زجاجة الرضاعة بنفسها، وقد بدا عليها الرضا وكذلك أنا.

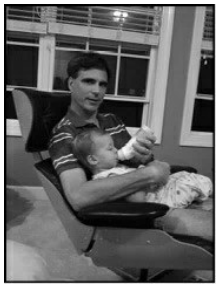

تفرغ لبعض الوقت: لن تستمتع حق الاستمتاع بعطلتك لو قمت خلالها بتصفح الرسائل البريدية أو إرسال الرسائل. عندما كنت فى شهر العسل أنا وجاى أردنا أن نكون وحدنا دون إزعاج من أحد، ومع ذلك، رأى رئيسى فى العمل أننى لابد وأن أجد طريقة يستطيع الآخرون أن يتواصلوا معى من خلالها، لذا واتتنى فكرة الرسالة الهاتفية المثالية وذلك هو نصها:

"مرحبًا، معك راندى يتحدث، لقد انتظرت حتى التاسعة والثلاثين من عمرى كى أتزوج، لذا سأختفى أنا وزجتى عن أعين الناس لمدة شهر أستمتع فيه بصحبتها، آمل ألا يسبب لك هذا مشكلة وإن كان هذا لا يروق لرئيسى فى العمل. يبدو أن على أن أجد وسيلة للاتصال يتأتى من خلالها الاتصال بى". وبعد ذلك أذكر أسماء أقارب جاى والمدينة التى يقطنون بها؛ حيث أكمل قائلًا: "لو اتصلت بخدمة الدليل، يمكنك أن تحصل على أرقامهم، وإذا كنت قادراً على أن تقنع أقارب زوجتى بأن لديك أمراً ملحاً قد يقطع شهر عسل ابنتهم الوحيدة، فاتصل بهم لتأخذ منهم رقمنا".

وقد أنهت هذه الطريقة جميع المكالمات الواردة إلينا.

إن بعضًا من خطوات إدارتى للوقت اتسمت بالجدية وبعضها افتقدت لها، ولكنى أعتقد بأن جميع الخطوات جديرة بالاعتبار.

إن الوقت هو كل ما تملك، وقد يأتى يوم تشعر فيه بأن لديك من الوقت أقل مما تعتقد.

الفصل الرابع والعشرون
عودة الرشد

هناك عبارة متداولة فى الأوساط التعليمية تقول إن أول الأهداف التى يسعى الأساتذة إلى تحقيقها هى مساعدة طلابهم أن يتعلموا كيفية التعلم.

لقد رأيت الحكمة بالطبع فى هذه المقولة، ولكننى أستطيع أن أصوغها بطريقة أفضل وهى مساعدة الطلاب أن يتعلموا تقييم أنفسهم.

هل يدرك الطلاب قدراتهم الحقيقة؟ هل يقفون على نقاط ضعفهم؟ هل يتفاعلون بشىء من الواقعية تجاه رؤية الآخرين لهم؟

خلاصة الأمر، من الأفضل للمعلمين أن يساعدوا الطلاب كى يصبحوا أكثر إدراكًا بأنفسهم، والطريقة الوحيدة التى نستطيع أن ننميها ونطورها فى سبيل ذلك - كما علمنى مدربى جراهام - هى تطوير إحدى قدراتنا الحقيقية كى تساعدنا على تقييم أنفسنا، فإذا عجزنا عن فعل ذلك بكل دقة، فكيف سيتسنى لنا إذن معرفة ما إذا كان أداؤنا يتجه نحو الأفضل أم يزداد سوءًا؟

ويشتكى بعض الطلاب الذين يدرسون على النمط التعليمى القديم من أن التعليم العالى لم يعد إلا مجرد خدمة عملاء تقدم للطلاب، حيث يعتقد أولياء أمور هؤلاء الطلاب بأنهم يدفعون المزيد من الدولارات من أجل الحصول على منتج فى النهاية - يتمثل فى أولادهم - ذى مواصفات عالية الجودة، فحالهم تمامًا أشبه بمن يمضى إلى قسم ما للمشتريات بأحد المتاجر وبدلًا من شرائه لخمسة أزواج من السراويل الجينز يشترى خمس سنوات محشوة بالمناهج.

أنا لا أرفض هذا النموذج بالكلية، ولكنى أعتقد أنه من المهم أن نستعين بالمصطلح الصناعى الأنسب، فهو ليس بيعًا بالتجزئة، بل يمكن تشبيه تلك الرسوم التى تدفع للكلية بتلك التى يتم دفعها لمدرب شخصى فى إحدى النوادى الرياضية،ونحن الأساتذة نلعب دور هؤلاء المدربين، حيث نزود الجميع بما يحتاجون إليه من أشياء (كتب، وأجهزة حاسب آلى، ونكسبهم خبرتنا أيضاً) وعلاوة على هذا كله، فوظيفتنا

هى أن نظل مطلوبين دائمًا. نحن فى حاجة إلى أن نتأكد من أن طلابنا يبذلون جهدًا بأنفسهم، علينا أن نشيد بهم فى مواطن الإشادة، ونخبرهم بمنتهى الأمانة عندما يقصرون ويتطلب منهم الأمر مزيدًا من العمل الجاد.

والأهم من ذلك، أنه علينا أن ندع لهم مسألة تقييم أنفسهم والخطوات التى يتخذونها قدمًا، إن أهم ما فى ممارسة التمارين الرياضية هو أنك ترى نتائج جهدك الذى تبذله تنعكس على مظهرك، وهو نفس الشىء بالنسبة للدراسة فى الكليات، فوظيفة الأستاذ الجامعى هى الوصول بعقول طلابه إلى حالة من النضج التى تطرد فى الزيادة تمامًا كما هو الحال بالنسبة لعضلات الجسم عند ممارسة التمارين الرياضية.

ومن أجل هذه الغاية، بذلت جهدًا مضنيًا من أجل الوصول إلى أساليب ميكانيكية تمكن الطلاب من الاستماع الى التغذية المرتدة، حيث ساعدت طلابى باستمرار وأهلتهم على تقبل التغذية المرتدة من الآخرين، لم يكن ذلك بالأمر السهل، كان هذا الأمر من أصعب الأشياء التى قابلتها فى حياتى كمعلم، (ولم يكن أمراً سهلاً كذلك أيضًا على الجانب الشخصى) وإنه ليحزننى أن أرى العديد من أولياء الأمور اليوم لا يهتمون بذلك، حيث نرى كلامهم عندما يتحدثون عن تقدير الذات، تعلوه نبرة الإطراء الأجوف لا الأمانة التى تبنى على أساسها الشخصية، فمعظمنا اليوم يتحدث عن التدهور فى المنظومة التعليمية وأنا أرى أن السبب الذى يسهم بشكل رئيسى فى هذا التدهور هو زيادة سياسة التدليل وندرة وجود تغذية مرتدة حقيقية.

فعندما كنت أقوم بتدريس كيفية تعلم "بناء العوالم الافتراضية" بجامعة كارنيجى ميلون، كانت هناك تغذية مرتدة بين الطلاب بعضهم البعض كل أسبوعين، حيث سادت الفصل أجواء تعاونية إلى حد كبير و كان الطلاب يعملونت فى فرق عمل كل فريق يتكون من أربعة طلاب وذلك فى مشاريع خاصة بالواقع الافتراضى، وكان كل منهم يعتمد على الآخر وهو ما أوضحته نتائجهم.

كنا نأخذ كل هذه التغذية المرتدة، ونخزنها على أحد برامج الحاسوب، وفى نهاية الفصل الدراسى وبعد أن يكون كل طالب قد عمل على خمسة مشاريع مع مجموعة مختلفة من الطلاب فى كل مشروع، يحصل كل منهم على خمس عشرة نقطة، وكانت تلك طريقة برمجية إحصائية صالحة لتقييم أنفسهم.

كانت جداول بيانية ذات قوائم ملونة يستطيع أن يرى فيها الطلاب تصنيفهم وفقًا لمعايير بسيطة على سبيل المثال:

1) هل اعتقد رفقاؤه فى العمل بأنه أبلى بلاءً حسنًا؟ كم عدد الساعات تحديدًا التى يعتقد رفقاؤه بأنه كرسها للعمل على هذا المشروع؟

2) إلى أى مدى تجلت الإبداعية فى عمله؟
3) هل وجد رفقاؤه صعوبة فى العمل معه أم أن العمل معه كان ميسورًا؟ هل كان عضوًا ضمن فريق عمل؟

وكما أوضحت دائمًا، فالعنصر الثالث بصفة خاصة يمثل تقييماً دقيقاً لمدى سهولة العمل معك.

كانت الجداول البيانية متعددة الألوان خاصة جدًا، حيث مكنت كل طالب من الوقوف على مستواه مقارنة بمستوى باقى الطلاب التسعة والأربعين.

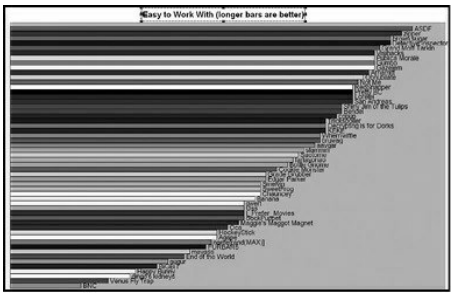

كانت الجداول البيانية مليئة بعبارات التغذية المرتدة، والتى كانت تلميحات فى حد ذاتها تهدف إلى تحسين أداء الطلاب، على سبيل المثال "دع الآخرين ينهوا كلامهم ولا تقاطعهم حتى يفرغوا".

وكان أملى أن يرى عدد لا بأس به من الطلاب تلك المعلومات ويقولوا: "واوو، كانت تغذية مرتدة يصعب تجاهلها".

وفى إحدى الدورات التدريبية التى قمت بالتدريس فيها، طلبت من الطلاب أن يقيم كل منهم الآخر بنفس الطريقة، ولكنى تركتهم فقط يعلمون المرتبة التى تم تصنيفهم فيها، وأتذكر محادثة دارت بينى وبين أحد طلابى الذى رآه زملاؤه شخصية غير مرغوب فيها، لقد كان ذكياً، ولكن شعوره بالمبالغة فى تقدير ذاته كان حائلاً بينه وبين تحقيقه للنجاح، وقد أتى تصنيفه فى مؤخرة الجدول البيانى ولم يأبه لذلك.

فقد كان يتصور أنه لو جاء فى شريحة ال-25 % الأخيرة، فإن ترتيبه بالتأكيد سيكون الرابع أو الخامس والعشرين (وليس فى شريحة ال-5 % الأخيرة مثلاً)، لذا كان فى اعتقاده انه تربع تقريبًا على قمة تصنيف الجدول البيانى، ولذا فقد رأى أنه "لم يبتعد كثيرًا عن الخمسين بالمائة"، وهو الأمر الذى أدخل عليه الشعور بالرضا.

تحدثت إليه قائلًا: "أنا سعيد بحديثنا معًا، لأننى أعتقد أنها فرصة جيدة لكى أقول لك

بعض المعلومات، فأنت لست فقط فى شريحة الـ25 % الأخيرة، فمن جملة 50 طالبًا فى الفصل تذيلت أنت قائمة التصنيف وجئت فى المركز الخمسين، مما يدل على أنك تعانى من مشكلة خطيرة، فزملاؤك يقولون عنك إنك لا تستمع للنصيحة، ومن الصعب الحديث معك، وهذا ليس بالأمر المحمود".

أصاب الطالب الذهول مما قلته له (وكذلك بقية الطلاب)، لقد فتحت ناظره على حقيقة أمره بعد أن ظل موهومًا بنفسه كثيرًا.

وبعد ذلك حدثته عن نفسى؛ حيث قلت له: "كنت مثلك تمامًا فيما سبق موهوماً بنفسى ولا أستمع للآخرين، حتى جاء أحد أساتذتى فى الجامعة وجعلنى على حقيقة من أمرى، وذلك هو سر تميزى: الاستماع للآخر".

أفاق الطلاب على الحقيقة، وأخبرته قائلًا: "أنا أعترف بأننى كنت شخصًا أخرق عاد له رشده، وقد استفدت من الدرس وها أنت بمقدورك أيضًا أن يعود لك رشدك مثلى".

وعلى مدار بقية الفصل الدراسى الثانى، استمع الطالب لكلام الآخرين وتحسن أداؤه، فلقد أسديت إليه معروفًا بالمثل كما فعل معى آندى فان دام منذ عدة سنوات مضت.

الفصل الخامس والعشرون
تدريب

من الممتع أن تحقق أحلام طفولتك، ومع تقدمك فى السن سترى مزيدًا من المتعة فى مساعدة الآخرين كى يحققوا أحلامهم .

عندما كنت أدرس بجامعة فرجينيا عام 1993، كان هناك شاب متخصص فى برامج الجرافيك يناهز الثانية والعشرين من عمره، يريد العمل فى فريقى البحثى، وبعد حديثى معه عن حياته وأهدافه، فاجأنى بجملة قال لى فيها: "أوه، لدى حلم منذ أن كنت طفلًا طالما راودنى".

وفى واقع الأمر فإن أى شخص يجمع بين كلمة "طفولة" وكلمة "حلم" فى جملة واحدة، يسترعى انتباهى.

فسألته قائلًا: "وما حلمك ياتومى؟".

فأجابنى: "أريد العمل فى فيلم حروب الكواكب القادم".

أتذكر أن حديثى معه كان فى عام 1993، وقد كان آخر فيلم تم عرضه لحروب الكواكب عام 1983، ولم يكن هناك من خطط لإنتاج فيلم آخر من هذه السلسلة، وشرحت له ذلك قائلاً: "إنه لحلم من الصعب تحقيقه يا تومى، لأن القائمين على هذه السلسلة قد أنهوا العمل فيها".

فأجابنى قائلاً: "كلا، لاتقل هذا، سيشرعون فى إنتاج المزيد منها، وعندما يقومون بذلك، سألتحق فى ركب العمل معهم، وذلك هو ما أنويه".

كان تومى فى السادسة من عمره عند عرض أول فيلم من سلسلة حروب الكواكب عام 1977، أخبرنى تومى قائلاً: "هناك أطفال تمنوا أن يكونوا مثل هان سولو فى الفيلم، أما أنا فلم أكن كذلك، لقد أردت أن أكون كالشاب الذى صنع أشياء كان لها تأثير عظيم - كمركبة الفضاء، والكواكب والإنسان الآلى".

وقال لى أيضًا إنه قرأ عندما كان طفلًا معظم المقالات التى كتبت عن حروب الكواكب والتى وقعت فى يديه آنذاك، واقتنى جميع الكتب التى شرحت كيفية بناء

النماذج وكيفية تحقيق الإنجازات العظيمة.

وفى أثناء حديثه، عدت بذاكرتى للوراء حيث زيارتى عندما كنت طفلًا إلى ديزنى لاند، وكيف تملكنى هذا الشعور القوى بإيجاد بيئة تحاكى ما أراه عندما أكبر، توقعت بأن حلم تومى الكبير لن يتحقق أبدًا، ولكنه قد يدفعه إلى الأفضل، وقلت لنفسى إننى من الممكن ان أستعين بصانع أحلام مثل تومى، فلقد تعلمت من دورى كرة القدم أن المرء إن لم يستطع تحقيق حلمه فقد يدفعه مجرد الحلم إلى الأفضل، ولذا طلبت منه أن يلتحق بفريقنا البحثى.

ويستطيع تومى أن يخبرك بأننى كنت رئيسًا شديدًا فى العمل، وكما يقول تومى عنى الآن عندما يعود بذاكرته للوراء فإننى كلفته بمهام شاقة وعلقت عليه آمالاً كبيرة، ولكنه كان يعرف أيضًا أننى لم أفعل إلا ما فى صالحه، فهو يشبهنى بمدرب كرة قدم لحوح، (أعتقد أننى كنت أضاهى فى ذلك، المدرب جراهام)، يقول تومى إنه لم يتعلم منى فقط برامج الواقع الافتراضى، ولكنه تعلم أيضًا كيفية العمل فى أسرة واحدة، ويذكرنى دائمًا بحديثى له: "أعرف أنك ذكى، ولكن اعلم أنه ما من أحد هنا إلا وهو ذكى، فالذكاء ليس كافيًا، إن نوعية الأشخاص التى أريدها للعمل معى فى فريقى البحثى، هم الذين يساعدون بعضهم البعض ويشعرون بالسعادة للعمل هنا معًا".

وقد صار تومى بالفعل واحداً من هؤلاء الأشخاص، وبعد أن حصلت على العمل بشكل دائم فى الجامعة، أحضرت معى تومى وأعضاء الفريق الآخرين إلى عالم والت ديزنى تعبيرًا عن تقديم الشكر لهم.

وعندما انتقلت إلى كارنيجى ميلون، أتى معى جميع أفراد طاقمى من جامعة فرجينيا - ماعدا تومى، لم يستطع القدوم معنا والسبب فى ذلك، هو استئجاره للعمل فى شركة المخرج والمنتج جورج لوكاس التى تعرف باندستريال لايت اند ماجيك، ومن الجدير بالذكر أنهم لم يستعينوا به من أجل الحلم الذى راوده، بل من أجل ما كان يحظى به من مهارات، ففى خلال الفترة التى كان يعمل فيها معنا، أصبح مبرمجًا ذا صيت ذائع فى لغة البيثون، والتى كان لحسن حظه مجال عمل هذه الشركة، فالحظ يأتى بالفعل عندما يتوافق استعداد المرء مع ما يواتيه من فرص.

ليس من الصعب إذن أن تتنبأ بباقى فصول هذه القصة، فقد تم عمل ثلاثة أفلام جديدة من سلسلة حرب الكواكب عام 1999، و2002 و2005 وقد عمل تومى فيها جميعًا.

ففى الجزء الثانى من حرب الكواكب: هجوم المستنسخين، كان تومى هو المخرج

الفنى الأول لهذا الجزء، وقد شاهدنا فى هذا الجزء مشهدًا بارعًا لمعركة دار رحاها مدة خمس عشرة دقيقة على كوكب أحمر صخرى بين المستنسخين والدرويدز، والفضل فى فكرة وتنفيذ هذا المشهد كله يرجع إلى تومى، حيث استخدم هو وفريقه صورًا لصحراء أوتاوه من أجل الخروج بهذا المشهد الافتراضى الذى رأيناه للمعركة بهذه الصورة، فلو تحدثنا عن الوظائف الممتعة نقول إن تومى قد حظى بوظيفة جعلته يقضى كل يوم على كوكب آخر.

وبعد بضع سنوات، رحب بى تومى أنا وطلابى ترحيبًا كبيرًا عندما قمنا بزيارة إلى شركة اندستريال لايت اند ماجيك - حيث قد سن صديقى دون مارينلين عادة رائعة، فكان يأخذ الطلاب فى رحلة كل سنة، ينعمون خلالها بالمتعة وبزيارة الشركات فائقة التكنولوجيا التى قد تمثل لهم نقطة انطلاق فى عالم الجرافيك - وفى ذلك الوقت، رأى الطلاب فى تومى رائدًا لايشق له غبار فى هذا المجال، حقًا كان تومى يعيش أحلامه.

جلس تومى مع ثلاثة من طلابى القدامى ينصت لأسئلة الطلاب الجدد، كانت هذه المجموعة بالتحديد من الطلاب الجدد فى شك من أمرى، فلقد كنت كما أنا - معلمًا قاسيًا يأمل فى طلابه خيرًا، ولديه بعض الأساليب التعليمية الغريبة - ولم يكن ذلك أمرًا يروق لهم، وبعد مرور فصل دراسى كامل، كان لا يزال البعض يحذرون منى بشكل ملحوظ.

تحولت المناقشة ودارت كلها حول صعوبة وضع المرء قدمه للمرة الأولى فى عالم شركات الأفلام، وأراد بعض الطلاب أن يعرفوا الدور الذى يلعبه الحظ فى مثل هذه الأمور، فتطوع تومى للإجابة عن هذا السؤال قائلًا: "نعم يلعب الحظ دورًا كبيرًا جدًا، ولكنكم جميعا محظوظون، حيث تعملون مع راندى وتتعلمون منه، وهذا هو عين الحظ، فلولا راندى ماكان لى وجود هنا".

وعلى الرغم من أننى قد حلقت يومًا فى الفضاء، حيث انعدام الجاذبية، إلا أننى أشعر بأن روحى قد حلقت عاليًا هذا اليوم حتى بلغت عنان السماء، انتابتنى سعادة لا توصف عندما شعر تومى بأننى قد ساعدته على تحقيق أحلامه، وأهم ما فى الأمر حقًا أن تومى قد رد لى الجميل، حيث مد لطلابى الجدد يد العون فى تحقيق أحلامهم (وساعدنى على هذا الأمر)، وأصبح هذا الموقف نقطة تحول فى علاقتى مع الطلاب فى الفصل، وذلك بفضل تومى.

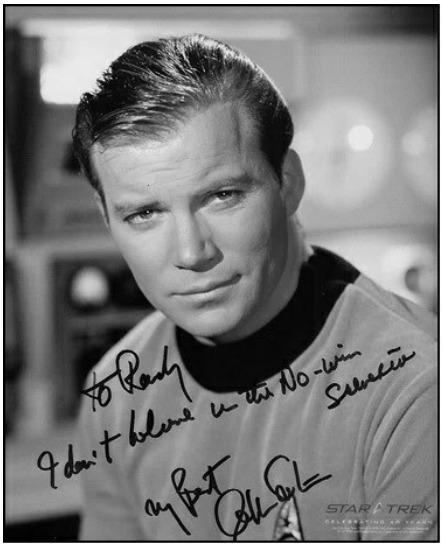
STAR TREK

الفصل السادس والعشرون
يا لروعة ما قدمه الطلاب

إن الأشخاص الذين يعرفوننى يقولون إننى رجل غريب الأطوار إلى حد كبير، فمن الواضح أنهم لديهم رأى خاص يتعلق بى، فأنا دائمًا ما أقوم بأداء شيئين مفيدين فى وقت واحد، بل من الممكن ان يكونوا ثلاثة أشياء وعلى نحو جيد، ولهذا، بدأت أفكر فى هذا السؤال، مع تقدم حياتى التعليمية:

إذا ما كنت قادرًا على مساعدة الطلاب على تحقيق أحلامهم بشكل فردى، هل بإمكانى أن أجد طريقة أستطيع من خلالها مساعدة مجموعة كبيرة من الطلاب فى آن واحد أيضًا؟

وبالفعل أتيحت لى هذه الفرصة عندما ذهبت إلى جامعة كارنيجى ميلون عام 1 للعمل بها كمدرس مساعد لعلوم الكمبيوتر/ وكان مجال تخصصى هو "التفاعل بين الكمبيوتر والإنسان". وقمت بإعطاء دورة تدريبية عرفت بـ "إنشاء عوالم افتراضية" أو يمكن أن نختصرها ونقول BVW.

لم تكن فكرة كل من ميكى رونى وجوى جارلند "دعنا نعتمد على العرض" قد تم التخلى عنها، كل ما حدث فقط هو تحديثها لكى تتناسب مع عصر الجرافيك والأبعاد الثلاثية وإنشاء ما يسمى بـ "عوالم الواقع الافتراضى التفاعلى العميقة".

سمحت فى هذه الدورة التدريبية بمشاركة خمسين طالبًا جامعيًا من مختلف أقسام الجامعة، حيث شملت ممثلين ودارسين للغة الإنجليزية ونحاتين إلى جانب مهندسين ومتخصصين فى علوم الرياضيات وخبراء فى الحاسب الآلى، وهذه المجموعة من الطلاب لم تكن لمناهجهم التعليمية أن تتفق مع بعضها يومًا، الأمر الذى يعطيك فكره عن تنوع المناهج المتعددة التى يتم تدريسها فى جامعة كارنيجى ميلون، ومع هذا كله فقد تمكنا من أن نجعل هؤلاء جميعًا فى انسجام مع بعضهم البعض وأجبرناهم على أن يؤدوا معًا ما لم يستطيعوا أن يقوموا بفعله فرادى.

ضم كل فريق عمل أربعة طلاب تم اختيارهم عشوائيًا، واستمروا فى العمل معًا فى

بعض المشاريع على مدار أسبوعين، لم أقل لهم شيئًا سوى: "ابتكروا عالمًا افتراضيًا"، ومن ثم فقد كانوا يقومون ببرمجة شيء ما ويحلمون بتحقيق آخر ثم أقوم بعد ذلك بتغيير أعضاء الفريق فيلتحق كل فرد مهم بثلاثة رفقاء جدد ويبدأون العمل من جديد.

كان لدى قاعدتان فيما يتعلق بإنشائهم لعوالم الواقع الافتراضى: لا لإنشاء عوالم الواقع الافتراضية الخاصة بالعنف أو الجنس، أصدرت هذا القرار تقريبًا لأن مثل هذه العوالم قد تم إنشاؤها من قبل ملايين المرات، أما أنا فكنت أبحث عن التفكير الرشيد.

قد تصيبك الدهشة عندما تعلم أن هؤلاء الأولاد ممن هم فى التاسعة عشرة من عمرهم لا يمتلكون أفكارًا سوى فى هذين المجالين؛ الجنس والعنف، وعندما طلبت منهم أن يخرجوا بأفكارهم من نطاق هذين المجالين واجهت تحديًا من معظمهم، ففى واقع الأمر، قدم لى الطلاب فى السنة الأولى من عمر إقامة هذه الدورة التدريبية مشاريعهم الأولية،وقد انبهرت من هذه المشاريع، بالفعل فاق عملهم جميع تخيلاتى، حقًا بهرنى عملهم بالتحديد لأنهم كانوا يعملون على أجهزة دون المستوى التكنولوجى المطلوب وفقًا لمعايير الواقع الافتراضى بهوليود ومع هذا حققوا إنجازات هائلة.

فهذا المجال – إنشاء العوالم الافتراضية - أقوم بالتدريس فيه منذ عقد من الزمن، وعندما بدأت العمل به لم يكن لدى توقع بما سيئول إليه العمل فيه، كلفت الطلاب بمهمة مدتها أسبوعان، وبهرتنى نتائجهم، لم أعلم ماذا أفعل فى الخطوة القادمة، شعرت وكأننى غارق فى بحر فاتصلت بناصحى آندى فان دام وقلت له: "آندى، لقد كلفت طلابى بمهمة استمرت اسبوعين، وقد أدوها على أكمل وجه، هل كان على أن أطيل مدة قيامهم بهذه المهمة لتكون على مدار الفصل الدراسى بأكمله؟ ماذا أفعل؟".

فكر آندى لدقيقة ثم قال لى: "حسنًا إليك ما ستفعله، ارجع إلى الفصل غدًا، وقل للطلاب وأنت تنظر فى عيونهم: يا شباب، قمتم بعمل موفق حقًا، ولكن مازال فى جعبتكم ما هو أفضل من هذا".

أصابتنى إجابته بالدهشة، ولكننى اتبعتها وقد أثبتت نجاحها بالفعل، كان آندى يريد إن يقول لابد من أن تكون على علم بارتفاع العائق الذى يجب أن تعترض به مسيرة الطلاب بوضعه لهم فى أى مكان.

وبالفعل حافظ الطلاب على أدائهم المميز، وداوموا على إلهاب مشاعرى من جراء إبداعاتهم، فالعديد من مشاريعهم كانت رائعة بالفعل، حيث مغامرات المياه السريعة ورحلات جوندولوا الرومانسية فى فينسيا وسلاحف النينجا، وقد ابتكر بعض طلابى

عوالم تحاكى عالمنا بالمثل يسكنها مخلوقات لطيفة تم صنعها باستخدام تقنية الثرى دى، وقد كان هذا حلمًا لهؤلاء الطلاب عندما كانوا أطفالًا.

يوم عرض هذه المشاريع، ذهبت للفصل فوجدت طلابى الخمسين ومعهم خمسون شخصاً آخرون لا أعرفهم - رفقاء فى العمل، وأصدقاء، وأولياء أمورهم, لم أر من قبل أولياء أمور قد حضروا إلى الفصل الدراسى! وقد أخذ عدد الحضور يطرد فى الزيادة، فانتهى بنا الأمر إلى أن أخذنا هذه الأعداد الغفيرة التى جاءت فى أيام عرض المشاريع واتجهنا بهم إلى قاعة محاضرات كبيرة، كان هناك فى الغرفة فقط أكثر من 400 فرد يشيدون بما يشاهدونه من عروض مفضلة تتعلق بالواقع الافتراضى، وقد أخبرنى رئيس جامعة كارنيجى ميلون، جارد كوهون، بأن المشهد يبدو وكأنه حشد جماهيرى كبير بولاية أوهايو، إلا أن هذا الحشد قد التف حول عمل أكاديمى.

فى أيام عرض المشاريع، كنت أعلم أى المشاريع ستكون هى الأفضل، كنت أعرف ذلك من خلال لغة الجسد، فلو اصطف الطلاب من مجموعة محددة بالقرب من بعضهم البعض أعلم أنهم مجموعة مترابطة وأن مشروعهم جدير بالمشاهدة.

كان أكثر ما أحببته فى كل هذا الأمر ترابط الفريق الواحد الذى كان يعرف طريقه للنجاح جيدًا، إلى أى مدى وصل تقدم هولاء الطلاب؟ فى الحقيقة ليس لدى فكرة، هل استطاعوا أن يحققوا أحلامهم؟ لا أعلم حقًا، ولكن الشىء الوحيد المؤكد "أنه لابد لك من مساعدة الآخرين، فلن تستطيع أن تكمل المشوار وحدك".

* * *

ولكن هل كان هناك من طريقة تقيم ما قمنا بفعله؟

لقد استطعت أنا وأستاذ الدراما دون مارينلى - بفضل مساعدة جامعة كارنيجى ميلون - أن نخرج من عباءة التعليم التكنولجى التقليدى ونبتكر هذه الفكرة المجنونة التى عرفت ولاتزال ب- "مركز تكنولوجيا الترفيه"، (www.etc.cmu.edu) والذى نحب أن نطلق عليه "مصنع تحقيق الأحلام"؛ وهو برنامج يستغرق مدة سنتين للحصول على درجة الماجستير، يشترك فيه فنانون وإخصائيون فى التكنولوجيا للعمل معًا فى إنشاء برامج ترفيهية وألعاب وأفلام كرتون وأى شىء آخر يحلمون به.

لم تحاول الجامعات الأخرى القيام بهذا الأمر، أما جامعة كارنيجى ميلون فقد أعطتنا تصريحًا واضحًا للمضى قدمًا وكسر النموذج التعليمى النمطى للجامعات الأخرى.

وقد قام كلانا بعمل هذا الخليط بين أصحاب الفنون والتكنولوجيا؛ العقل الأيمن/ العقل الأيسر/ فتى الدراما/ فتى التكنولوجيا، وفى ضوء اختلاف شخصيتى عن

شخصية دون، كان كل منا فى بعض الأوقات يمثل عائقًا للآخر، ولكننا دائمًا ما وجدنا طريقة للتعامل مع الأمور، وكانت النتيجة أن حصل الطلاب على مزايا مناهجنا التعليمية المختلفة (وتعلموا كيف يتعاملون مع الشخصيات المختلفة بينهم)، وقد أدى توافر مناخ الحرية مع روح فريق العمل إلى شعور الطلاب بالقدرة على صنع الأعاجيب، وسرعان ما عرفت الشركات أمرنا، وقدموا لنا بالفعل طلبات مكتوبة للاستعانة بطلابنا مدة ثلاث سنوات، الأمر الذى يعنى أنهم كانوا يرغبون فى الاستعانة بطلاب لم نقم بعد بإعطاء شهادات لهم.

أدى دون 70 فى المائة من نسبة العمل فى"مركز تكنولوجيا الترفيه"، وهو يستحق بالفعل إشادة أكثر من 70 فى المائة، كما قام بإنشاء مكان مخصص فى الجامعة لعلوم الأقمار الصناعية فى أستراليا إلى جانب خططه لإنشاء مثل هذه الأماكن فى كوريا وسنغافورة، إن مئات من الطلاب الذين لم يسبق لى معرفتهم فى جميع أنحاء العالم، سيكون لديهم القدرة على تحقيق أحلام طفولتهم المجنونة، وإنه لشعور بالسعادة عظيم.

الفصل السابع والعشرون
أرض الموعد

إن مساعدة الآخرين على تحقيق أحلامهم من الممكن أن تتم بأشكال مختلفة، فيمكنك أن تقوم بها على نطاق فردى، كما فعلت أنا مع تومى الذى راوده حلم العمل فى سلسلة أفلام حرب الكواكب، ويمكنك أن تقدم هذه المساعدة لخمسين أو مائة طالب فى وقت واحد، وذلك كما فعلت مع الطلاب عند بنائهم لعوالم افتراضية أو فى "مركز تكنولوجيا الترفيه" أما لو كنت رجلًا تمتاز بطموح عالٍ ولديك قدر من الثقة فى النفس، فيمكنك أن تحاول تقديم هذه المساعدة على نطاق واسع جدًا، فتسعى لمساعدة الملايين من الأشخاص على تحقيق أحلامهم.

وأود أن أذكر فى هذا المقام قصة "أليس" هذه الأداة التعليمية البرمجية الموجودة بجامعة كارنيجى ميلون والذى كان من حسن حظى أن قمت بتطويرها، تمكن هذه الآلة الطلاب المبتدئين فى دراسة علوم الحاسوب - أو أى شخص آخر سواء كان شابًا أو كبيرًا - من أن يبتكر رسومًا متحركة بكل سهولة، حيث تروى قصة ما أو تتفاعل فى إحدى الألعاب أو تستخدم فى صنع مقاطع فيديو، وتستعين هذه الآلة بخاصية الثرى دى جرافيك وتقنيات السحب والإدراج لتعين مستخدميها على مزيد من الانخراط فى العمل وتقلل من نسبة الإحباط التى قد تصيبهم عند أول تجربة لهم فى عالم البرمجيات، وهناك ما يزيد على مليون شخص قاموا بتحميل هذه الأداة، ومن المتوقع زيادة مستخدميها بشكل كبير جدًا فى الأعوام المقبلة.

وبالنسبة لى فأنا اعتبر "أليس" أداة قيمة للغاية، حيث بفضلها رأيت ملايين الأطفال وهم فى طريقهم لتحقيق أحلامهم.

فمنذ أن بدأت "أليس" عملها فى باكورة عام 1990، أحببت طريقة تعليمها لبرمجة الكمبيوتر وذلك باستخدامها لخداع الرأس، هل تتذكر خداع الرأس الذى تحدثنا عنه سابقًا؟ خداع الرأس هو تعليم شخص شيئًا ما من خلال اعتقاده بأنه يتعلم شيئاً آخر، ومن ثم فإن الطلاب يعتقدون بأنهم يستخدمون "أليس" من أجل صنع الأفلام والعاب

الفيديو، ولكنهم فى الحقيقة يتعلمون كيفية أن يكونوا مبرمجين للكمبيوتر.

كان حلم والت ديزنى عند إنشائه لعالم ديزنى، أن يستمر عالم ديزنى فى التقدم ولا يقف تطوره عند حد، حيث أراده أن يكبر وينمو ويقبل التغيرات على مدار الزمن، وهو نفس الأمر بالنسبة لى، فأنا سعيد جدًا لأن النسخ القادمة من "أليس" والتى يطورها زملائى الآن ستكون أفضل من النسخ السابقة، فالنسخ القادمة من "أليس" سيعتقد مستخدموها أنهم يكتبون معها نصوص أفلام، ولكنها فى الواقع ستعلمهم لغة البرمجة (جافا)، وبفضل صديقى ستيف سيبولت فى قسم علوم الإلكترونيات، حصلنا على الموافقة للاستعانة بأفضل الشخصيات فى التاريخ التى حققت أفضل المبيعات فى عالم ألعاب الفيديو, مثل "ذا سيمز" ياله من شىء مثير!

أعرف أن برنامج أليس يعمل على تطويره الآن عباقرة، فرئيسا التصميم هما دينس كوسجروف، وهو أحد طلابى فى جامعة فيرجينيا، وكيتلين كيلهر، وهى إحدى طلابى السابقين التى صارت زميلة لى الآن، نظرت كايتلين إلى "أليس" فى مراحلها الأولى وقالت لى: "أعلم أنها تسهل من البرمجة، ولكن ما السبب فى أنها تبدو مرحة؟".

فأجبتها قائلًا: "حسنًا، أنا رجل شمولى وأحب أن أصنع جنوداً على شكل قطع ألعاب صغيرة تتحرك وفقاً لأمرى، وهذا أمر ممتع".

ومن ثم تساءلت كيتلين كيف لها أن تضفى على "أليس" روح المرح كى تبدو أداة ممتعة فى أعين الفتيات أيضًا، ورأت أن تجعل هذه الأداة حكاءة للقصص وقد كان ذلك هو السر التى أثار إعجاب الفتيات بها، وفى رسالة الدكتوراه الخاصة بـ كيتلين، قامت بإنشاء نظام يعرف بـ "أليس راوية القصص".

والآن تقوم دكتورة علوم الحاسب الآلى بجامعة واشنطن، كيتلين (أوه، أنا آسف، أقصد الدكتورة كيلهر) بتطوير أنظمة جديدة جميعها يخدم التجربة الأولى للفتيات فى علوم البرمجة، حيث أوضحت كيتلين أنه لو تم تقديم "أليس" على أنها أداة راوية للقصص، سنرى الفتيات على أتم استعداد لتعلم البرمجيات، وفى الواقع، فإن الفتيات يحببن ذلك، ومن الجدير بالذكر أيضًا أنها تجذب اهتمام الأولاد سريعًا أيضًا، فما من أحد إلا ويحب القصص، وهى إحدى الوسائل العالمية التى تتحدث بصدق عن المخلوقات الموجودة على كوكبنا، لذا أرى أن من حق كيتلين أن تفوز على الدوام بجائزة أفضل خداع للرأس.

وفى محاضرتى الأخيرة، نوهت بأننى أصبحت على معرفة أكبر بقصة نبى الله موسى، وكيفية ذهابه لأرض الميعاد، على الرغم من أننى لم أطأها يومًا بقدمى، فأنا

أشعر بالسعادة تجاه جميع النجاحات التى أسهمت بها "أليس".

أردت أن تكون محاضرتى بمثابة نداء لزملائى وطلابى يعلن لهم المضى قدمًا دونى، ولكى يعلموا أننى على ثقة فى حسن إدارتهم للأمور (يمكنك أن ترى ما قاموا به من إنجازات على هذا الموقع www.alice.org)

فبفضل "أليس" ، يجد ملايين الأطفال اليوم سهولة كبيرة عند تعلمهم لشىء صعب، وبذلك سيطورون مهارات قد تساعدهم على تحقيق أحلامهم، وهنا أستطيع أن أفارق الحياة وأنا أشعر بالراحة، حيث تركت إرثًا مهنيًا متمثلًا فى "أليس".

ومن ثم فلا بأس من أن قدمى لم تطأ أرض الميعاد، ولكنه يبقى مشهداً رائعاً.

الجزء الخامس
كيف تعيش

حياتك الخاصة؟

قد يطلق على هذا الفصل عنوان "كيف تعيش حياتك؟" ولكنه يتحدث فعلياً عن الطريقة التى كنت أحاول أن أعيش حياتى الخاصة بها. وأعتقد أن تلك طريقتى فى أن أقول: هذا ما نجح معى.

ــ آر. بى.

الفصل الثامن والعشرون
الحلم الكبير

شهد صيف عام 1969 أول إنسان تطأ قدماه سطح القمر، وكنت وقتها فى الثامنة من عمرى، كسر هذا الحدث حاجز المستحيل فى حياتى وأصبح تحقيق أى شىء بالنسبة لى أمراً ممكناً، لم يقتصر هذا الشعور علىَّ وحدى بل امتد ليشمل البشرية جمعاء، فهذا المشهد كان يمثل تصريحًا بأنه لا بأس من أن تراودك أحلام عظام.

كنت فى معسكر أثناء وقوع هذا الحدث، حيث التففنا جميعاً حول التلفاز فى مزرعة البيت الرئيسية عند هبوط مركبة الفضاء على سطح القمر، أمضى رواد الفضاء وقتاً طويلاً فى إعداد الترتيبات قبل النزول من سلم المركبة والسير على سطح القمر، فهمت أن معهم كثيراً من المعدات ومازال أمامهم كثير من الترتيبات، فانتظرت صابراً.

ولكنَّ القائمين على تنظيم المعسكر داوموا النظر إلى ساعاتهم بين الحين والآخر، فلقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة بالفعل، وأخيراً وبعد أن أنهى رواد الفضاء استعداداتهم على سطح القمر، كان الوقت قد تأخر جداً، وأمرنا جميعاً أن نلجأ إلى خيامنا للنوم.

تملكنى الغيظ من جراء هذا التصرف الذى قام به القائمون على تنظيم المعسكر، وكان هذا هو التفكير الذى يسيطر علىَّ وقتها: "مخلوقات بشرية مثلى تخرج من حيز هذا الكوكب وتطأ بقدمها عالماً جديداً للمرة الأولى، وأنتم أيها المديرون لا يهمكم إلا النوم".

ولكن فور عودتى للمنزل بأسابيع قليلة، علمت أن أبى قد التقط صورة من على شاشة التلفاز لـ نيل أرمسترونج وهو يطأ بقدمه سطح القمر، وقد التقطها خصيصاً من أجلى، حيث علم أن تلك الصورة من شأنها أن تدفعنى وتحثنى على تحقيق أحلامى الكبيرة، ومازلنا نحتفظ بهذه الصورة فى أحد الألبومات.

أنا أتفهم أن كل هذه المليارات التى تنفق لصعود الإنسان إلى سطح القمر يمكن

إنفاقها لمحاربة الفقر والجوع على سطح الأرض، ولكنى عالم يرى أن إلهاب المشاعر هو الوسيلة الناجعة لصنع الخير.

فإنفاق المال لمحاربة الفقر، أمر ذو قيمة كبيرة، ولكنه غالباً ما يكون موجهاً لفئة بعينها، أما الإنفاق من أجل الصعود إلى القمر فأثره الجيد يمتد ليلهب مشاعر جميع البشر فيبذلون بذلك جل طاقتهم من أجل تحقيق ما يحلمون به، وبهذه الطريقة سنجد حلاً أخيراً لكل ما استعصى من مشكلات جسام علينا.

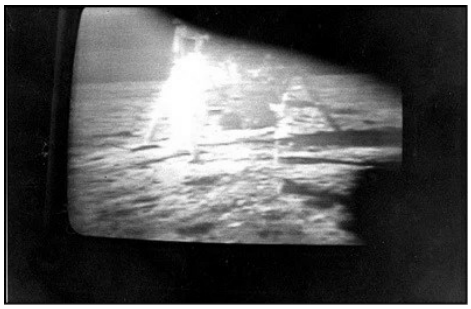

صورة للهبوط على القمر معروضة على التلفاز، طبعت بإذن من أبى

احلم وشجع أولادك أن يحلموا أيضاً، واتركهم يتجاوزوا موعد نومهم طالما كان فى صالح تحقيق أحلامهم.

الفصل التاسع والعشرون
جد لا هزل

دائمًا ما أفضل أن أظهر فى شخصية الرجل الجاد لا السطحى، وذلك لأن السطحية أمدها قصير أما الجدية فتتسم بطول المدى.

والجدية يبخس حقها على نحو كبير، وهى نابعة من القلب بينما السطحية تحيطك بسفاسف الأمور.

فالأشخاص"السطحيون" يحبون المحاكاة دومًا، وما من شىء يضاهى فى تفاهته المحاكاة الدائمة للأشياء، أليس كذلك؟ فأنا أكن كل التقدير والاحترام للشاب الجاد الذى يصنع شيئًا تستفيد منه أجيال مقبلة، فى الوقت الذى يعجز فيه الشاب السطحى عن تقديم شىء سوى مضاهاة ما فعله الشاب الجاد.

وعندما أفكر فى الشاب الجاد، يحضرنى دائمًا فتى الكشافة الذى يعمل بجد حتى يصبح رئيساً للكشافة، فعند مقابلتى لهؤلاء الذين تقدموا للعمل معى، ووجدت من بينهم من كان رئيساً للكشافة، شعرت بأن له مكانًا للعمل معى، فقد توسمت فيه الجدية التى لا يستطيع أن يتسلل له معها أى نوع من السطحية أو التفاهات.

فكر معى فى هذا الأمر، إن الوصول لمنصب رئيس الكشافة هو حلم يضعه الشاب نصب عينيه وهو فى الرابعة عشرة من عمره ولا يحققه إلا فى سن الخمسين، إنه لشىء مبهر (فعلى الرغم من الجدية التى داومت عليها طول الوقت، إلا أننى لم أصل فى المثابرة إلى الحد الذى أصبر معه حتى أكون رئيساً للكشافة).

ملابسى لم تتغير

وبالمناسبة، لا يفوتنا الحديث هنا عن الموضة، فهى الأخرى نوع من التصنع، لم أهتم يومًا بالموضة، وذلك يفسر أننى نادرًا ما كنت أشترى الجديد من الملبس، فمسمى الموضة على الملابس من عدمه مرده إلى ما يبيعه فئة قليلة من الناس فى مكان ما، أى أن تلك الفئه هى التى تقرر الأفضل لى فى الملبس، وهذا لا يعدو إلا أن يكون ضربًا من الجنون.

نصحنى والداى بألا أشترى ملابس جديدة إلا عندما تبلى ملابسى القديمة، وأى شخص شاهد محاضرتى الأخيرة يمكنه أن يرى الزى الذى ارتديته يومها، ليعلم أن تلك النصيحة مازالت حية فى حياتى!

إن دولاب ملابسى يدل على جدية صاحبه لا سطحيته، وهو من الأشياء التى تحقق لى النجاح فى حياتى.

الفصل الثلاثون
رفع الراية البيضاء

تنادينى والدتى دائمًا بـ "راندولف".
نشأت والدتى فى رحاب مزرعة صغيرة للألبان بفيرجينيا فى أثناء فترة الكساد، وأتت عليها ليالٍ لم تجد فيها ما يكفى لطعام العشاء، نادتنى بـ "راندولف" لأنها شعرت بأن هذا الاسم تدلل به الطبقات الراقية فى فيرجينيا أبناءها، ولعل هذا هو السبب الذى جعلنى أكره هذا الاسم وأرفض رفضًا شديدًا، فمن منا يرغب فى أن يدلل بمثل هذا الاسم؟
وعلى الرغم من ذلك واصلت والدتى مناداتى بهذا الاسم، وقد واجهتها مع بلوغى سن المراهقة قائلاً: "هل تعتقدين أنه من حقك أن تسمينى ما شئت وتستبدلى هويتى الحقيقية؟".
فأجابتنى قائلة: "نعم، يا راندولف".
حسناً، تعرف كل منا فى نهاية الأمر على موقفه من الآخر!
ومع التحاقى بالكلية، فاض بى الكيل وضقت ذرعًا، فكانت ترسل لى بريدًا مكتوبًا عليه يسلم لـ "راندولف بوتش"، فأكتب علي الظرف بخط يصعب قراءته من سرعة كتابته "ما من شخص هنا بهذا الاسم" وأرسل لها الظرف مغلقاً كما هو.
وفى خطوة تدل على المصالحة، بدأت والدتى ترسل لى خطابات تكتب عليها "آر. بوتش". لذا كنت أقوم بقراءتها، ولكن عند محادثتى لها على الهاتف كانت تعود فتنادينى مجدداً بـ راندلوف؛ حيث كانت تقول: "ها يا رندلوف، هل وصلك خطابى؟".
وها أنا قد استسلمت للأمر الواقع بعد كل هذه السنين، فها أنا أكن لوالدتى كل التقدير حتى بعد أن أثقلت كاهلى بهذا المقطع الذى أضافته على أسمى "أولف" ونادتنى به فى جميع المحافل، فأنا الآن فى منتهى السعاده بهذا الاسم ولست غاضبًا، فالحياة قصيرة جدًا.

أنا ولى على الشاطئ

ففى ضوء مرور الوقت واقتراب خط النهاية، يكون الاستسلام هو أفضل ما يفعله المرء.

الفصل الحادي والثلاثون
فلنعقد اتفاقية

عندما كنت فى المرحلة الابتدائية، اعتدت التأرجح على مقعد طاولة غرفة الغداء عند جلوسى عليه، وهى عادة كنت أفعلها أيضًا عند زيارتى لمنزل أقاربى، وكانت والدتى تعنفنى دائمًا وتقول: "راندولف، ستكسر المقعد!".

كنت أحب أن أستلقى بظهرى للوراء وأنا جالس على المقعد، كنت أشعر وأنا أفعل ذلك، و كان المقعد يبدو متوازنًا وفى حالة طيبة وهو واقف على رجلين اثنتين فقط، لذا كنت أداوم على فعل هذه العادة بعد كل وجبة وبالطبع أنال التوبيخ من والدتى.

وذات يوم قالت لى والدتى: "كف عن فعل هذه العادة، لن أقول لك هذا ثانية".

بدا لى قولها وكأنه اتفاقية يمكننى أن أوقع عليها، لذا اقترحت أن نعقد اتفاقاً مكتوباً بين طفل ووالدته مفاده أننى لو كسرت المقعد لن أتحمل فقط تكلفة إصلاحه ... بل تكلفة غرفة الطعام كاملة (والسبب فى ذلك أنه من المستحيل أن أجد بديلاً لمقعد تجاوز عمره العشرين عامًا)، فى مقابل أننى لن أتلقى أى توجيهات من والدتى، مادام المقعد فى حالة طيبة.

بالتأكيد كانت والدتى محقة فيما تقول، فلقد كنت ألقى بالضغط على أرجل الكرسى، ولكن وجد كلانا أن هذه الاتفاقية وسيلة لتجنب الحديث حول هذا الموضوع، فتعهدت بتحمل المسئولية حال إتلافى للمقعد، أما والدتى فكأن لسان حالها كان يريد أن يقول لى: "يجب أن تصغى دائمًا لوالدتك" لو تصدعت إحدى أرجل المقعد.

لم ينكسر المقعد مطلقًا، ووقتما قمت بزيارة بيتها بعد ذلك وجلست على المقعد وألقيت ظهرى للوراء، كانت الاتفاقية لا تزال سارية، ولكن فى واقع الأمر، تغير المشهد برمته، لم تعد والدتى تولى هذا الأمر اهتمامًا فقد استبدلت الغرفة جميعها بأخرى جديدة.

الفصل الثاني والثلاثون
لا للشكوى، نعم للعمل الجاد

هناك العديد من الأشخاص دائمى الشكوى من المشاكل فى حياتهم، وأنا أعتقد أنهم لو سخروا عشر هذه الطاقة التى يستنفدونها فى الشكوى واستعانوا بها فى حل مشاكلهم، لحققوا نجاحًا مبهرًا فى حل تلك المشاكل.

وقد قابلت فى حياتى بعضاً من هؤلاء الذين لم يشتكوا يومًا، على سبيل المثال، "ساندى بلات"، صديقى فى الغرفة التى استأجرناها فترة دراستى فى الجامعة، كان ساندى قد تعرض فى شبابه لحادثة عانى على أثرها من شلل رباعى طوال حياته، فبينما كان يقوم بتنزيل حمولة إحدى الشاحنات ويودعها فى إحدى غرف التخزين، رجعت الشاحنة للخلف فأطاحت به للوراء، وعندما سألته: "إلى أى مدى كانت شدة السقوط؟" أجابنى بكل بساطة: "كانت قوية بما فيه الكفاية".

كان ساندى رياضيًا مذهلًا، و كان مرتبطًا بالزواج إبّان تعرضه لهذه الحادثة، ولكن بعد الحادثة لم يرغب فى أن يمثل عبئًا على خطيبته فأخبرها قائلاً: "ليس عليك حرج فى أن تتركينى, فأنا أتفهم الأمر". وبالفعل تركته خطيبته.

كان أول عهدى بـ ساندى وهو فى الثلاثينيات، وقد أعجبت أيما إعجاب بفكره، حيث كان يتحلى بعدم رثاء حاله مطلقًا، فقط كان يعمل بكل جد حتى استطاع أن يصبح عاقد قران معتمدًا، كما أنه تزوج أيضًا وأنجب أطفالاً، وعندما كان يتحدث عن مشاكله الطبية بصراحة، ذات مره قال لى إن التغير فى درجات الحرارة يمثل صعوبة لمن هم فى مثل حالته، حيث تجد أطرافك الأربعة عاجزة عن أن ترتجف، لذا كان يقول لى فى مثل هذا الموقف: "رجاء، أعطنى البطانية، اتفقنا يا راندى؟" وبالطبع كنت أفعل.

أما جاكى روبنسون - أول أمريكى من أصل أفريقى يلعب فى دورى كرة القدم الأمريكية - فهو أفضل من عرفت عنه عدم الشكوى على الإطلاق، حيث عانى من العنصرية التى لا يستطيع فهمها العديد من شبابنا اليوم، ولكنه علم أن كل ما عليه هو

أن يرتقى بأدائه ليفوق أداء أقرانه من اللاعبين ذوى البشرة البيضاء وأن يبذل قصارى جهده فى الملعب، وذاك ما قام به فعلًا، وتعهد لنفسه بعدم الشكوى مطلقًا حتى لو وصل الحد بالجماهير بأن تبصق عليه.

تعودت أن أحمل معى صورة لـ جاكى روبنسون لأقوم بتعليقها فى مكتبى، ولقد أحزننى عدم معرفة الطلاب له، أو معرفتهم السطحية عنه، والعديد من الطلاب لم ينظروا إلى الصورة مطلقًا حيث التقطت زمن أن كان التصوير يقتصر على اللونين الأسود والأبيض فقط، وطلاب اليوم قد تربوا على مشاهدة التلفاز الملون، لذا لم تلفت انتباههم.

إنه لأمر محزن بالفعل، فما من نماذج يحتذى بها أفضل من أشخاص كـ جاكى روبنسون وساندى بلات، والعبرة التى تؤخذ من دروسهم هى: أن الشكوى لا يمكن اتخاذها كاستراتيجية، فجميعنا وقته وطاقته محدودان، والشكوى لن تصل بنا إلى تحقيق أهدافنا ولن تجلب لنا السعادة.

الفصل الثالث والثلاثون
عالج المرض نفسه وليس أعراضه

منذ عدة سنوات مضت، وعدت فتاة لطيفة بمقابلتها، وكانت تلك الفتاة مديونة بحفنة من آلاف الدولارات، الأمر الذى ألقى على كاهلها ضغطًا كبيرًا، حيث كانت نسبة الفائدة تزيد على ديونها كلما مر شهر.

ومن أجل تخفيف حدة الضغط الملقى على عاتقها، كانت تلك الفتاة تلجأ ليلة الثلاثاء من كل أسبوع إلى التأمل واليوجا، حيث مثلت تلك الليلة وقت فراغها الوحيد، التى وجدت فيها المساعدة كما تقول، كانت تفكر فى وجود حل لمشاكل ديونها وهى تأخذ شهيقًا، وتقول لنفسها وهى تخرجه زفيرًا، يومًا ما سأتخلص من هذه الديون.

وداومت على اتباع هذه العادة كل ثلاثاء.

أخيراً، نظرت معها إلى وضعها المالى، وقدرت أنها لو قضت من أربعة إلى خمسة شهور تعمل عملًا إضافيًا ليلة الثلاثاء، ستقضى ما عليها من ديون.

قلت لها: "أنا لا أبدى اعتراضًا على الاستعانة باليوجا أو التأمل، ولكنى أعتقد أنه من الأفضل علاج المرض أولًا، فما كنت تعانيه من ضيق وأرق لا يعدو إلا أن يكون أعراضًا للمرض الذى يتمثل فى النقود المديونة بها".

قلت مقترحاً عليها :"لم لا تعملين فى ليلة الثلاثاء وترجئى ممارسة اليوجا إلى حين؟".

كان ذلك بمثابة كشف الغطاء عن عينيها، وأخذت فعلا بنصيحتى، فعملت كنادلة ليلة الثلاثاء، واستطاعت فى وقت قريب أن تسدد ديونها، وبعدها استطاعت أن تعود مجددًا لممارسة اليوجا وأصبح شهيقها خاليًا من التفكير، تأخذه بكل سهوله.

الفصل الرابع والثلاثون
لا تشغل بالك كثيراً بما يظنه الناس

لقد اكتشفت أن الناس يستهلكون جزءاً هائلاً من وقتهم فى القلق بشأن ما يظنه الآخرون فيهم، ولو لم يهتم المرء بما يدور فى رأس الآخرين، لازدادت فاعليتنا فى الحياة الاجتماعية والعملية بنسبة 33%.

قد يتساءل البعض من أين إذن جئت بنسبة الـ 33%؟ وأقول لهم لا تنسوا أننى عالم وأحب النسب المحددة، وإن كنت لا أستطيع إثباتها دائماً، لذا فلنعتمد هذه النسبة.

اعتدت أن أقول لأى شخص يعمل فى مجموعتى البحثية: "لست مضطراً أبداً لأن تشغل بالك بما أظنه أنا، فسوف أخبرك به، خيراً كان أو شراً".

وهذا يعنى أننى عندما لا أكون سعيداً، فإننى أبوح بما يعتمل فى صدرى، بطريقة مباشرة، ودون تخطيط مسبق غالباً، ولكن على الصعيد الإيجابى، فقد كنت قادراً على طمأنة الآخرين بقولى: "إن لم أقل شيئاً، فلا تقلقوا من شىء".

الفصل الخامس والثلاثون
لنبدأ العمل معًا

عندما يتعين علىَّ العمل مع آخرين، أحاول أن أتخيل جلوسنا معًا ومعنا مجموعة من الكروت، أقوم بفردها على الطاولة أمام الجميع وأقول لهم: "حسنًا، ماذا يمكننا أن نفعل معًا بهذه الكروت".

فالقدرة على العمل على نحو جيد مع مجموعة ما، تعتبر مهارة حيوية وضرورية فى كل من عالم العمل وفى الأسرة أيضًا، وكانت إحدى طرقى لاكتساب هذه المهارة هى تقسيم الطلاب إلى فرق عمل يعملون خلالها على مشاريع معينة.

وعلى مر السنين، صار هدف تطوير ديناميكية العمل فى جماعة يستحوذ على جل اهتمامى، ففى اليوم الأول من كل فصل دراسى، كنت أقسم الفصل إلى أربع مجموعات كل واحدة تضم اثنى عشر طالبًا تقريبًا، وفى اليوم الثانى، كنت أوزع عليهم ورقة أعطيها هذا العنوان: "خطوات العمل فى جماعة بنجاح"، كنا نقرؤها معًا سطرًا بسطر، بعض الطلاب وجدوا أنفسهم يعرفون هذه الخطوات بطبيعة الحال، فأداروا أعينهم عن قراءة الورقة، حيث ظنوا أنهم بالفعل على دراية بكيفية العمل الجيد فى جماعة، فقد تعلموا ذلك منذ أن كانوا صغارًا فى مرحلة ما قبل المدرسة، ولم يجدوا أنفسهم فى حاجة إلى معرفة ما أشير إليه من نقاط أساسية فى هذه الورقة.

وعلى الجانب الآخر، أخذ معظم الطلاب المدركين لذواتهم بهذه النصيحة، فقد استشعروا بأننى كنت أحاول تعليمهم الأساسيات، وهو ما يشبه إلى حد ما طريقة الكابتن جراهام فى تعليم الأساسيات من خلال التدريب دون كرة. وكان من بين الخطوات التى أشرت إليها:

قابل الآخرين بالشكل الملائم: اعلم أن أهم ما فى الأمر بداية التعارف، لذا عليك تبادل معلومات التواصل بينكم، وتأكد من نطقك الصحيح لأسماء جميع أفراد مجموعتك.

حدد الأشياء المشتركة بينكم: فى الغالب عادة ما تكون هناك أشياء مشتركة بينك

وبين شخص آخر، وبناء على ذلك سيكون من الأسهل عليكما تناول القضايا التى تختلف فيها وجهات نظركما، فلتكن الرياضة على سبيل المثال وهى التى لا تعترف بحدود الجنس أو الغنى، لابد لك من أن تجد شيئًا مشتركًا حتى إن كان الطقس الذى يشترك فيه الجميع.

حاول أن توفر أنسب الظروف عند عقد الاجتماعات: تأكد من أن أحداً لا يصيبه الجوع أو يشعر بالبرد أو الإعياء عند عقد الاجتماع ، واجعل المقابلات عند تناول الوجبات قدر ما أمكن؛ فالطعام يخفف من حدة الاجتماع، ولهذا السبب "يتناولون الغداء" فى هوليود.

اجعل مجال الحديث متاحًا للجميع: لا تقاطع أحداً وهو فى معرض حديثه فتوقفه عن الكلام، واعلم أن ارتفاع الصوت بالحديث أو سرعته لن يوصل فكرتك إلى الآخر على نحو أفضل.

وضح أفكارك: عند مناقشتك لعدد من الأفكار، عنونها ودونها، ويجب أن يكون العنوان وصفًا للفكرة: "قصة الجسر" وليس "قصة جان".

اجعلوا لعبارات الثناء مجالًا بينكم: حاول أن تجد قولًا لطيفًا تثنى به على صنيع زميلك، حتى ولو كان فيه نوع من الإطراء المبالغ فيه، فبمزيد من إمعان النظر ستجد أن أسوأ الأفكار تحمل شقًا من الخير.

اجعل عباراتك تحمل صيغة السؤال: فبدلاً من قولك: "أعتقد أن علينا أن نفعل هذا وليس ذاك" حاول أن تقول: "ماذا لو فعلنا هذا وليس ذاك؟" فذلك يسمح للآخرين بتقديم التعليقات على الموضوع لا إجبارهم على اختيار أمر واحد.

وفى نهاية هذا الدرس البسيط، أخبرت طلابى بأننى وقفت على طريقة جيدة لتسجيل الحضور، حيث قلت لهم: "من الأسهل بالنسبة لى، أن أناديكم بالمجموعة"، حيث أقول لكم: "المجموعة الأولى ترفع يدها..... المجموعة الثانية؟...".

وكلما كنت أنادى كل مجموعة، كانت الأيدى ترتفع فكنت أقول لهم: "ألا تلاحظون شيئاً؟". ولا يجيبنى أحد، فأنادى المجموعات مرة أخرى: "المجموعة الأولى؟... المجموعة الثانية؟... المجموعة الثالثة؟...". فترتفع جميع الأيدى فى الغرفة مرة أخرى.

أحياناً تحتاج إلى مؤلف مسرحى حتى تنفذ إلى عقلية الطلبة، وخاصة فى الأمور التى يعتقدون أنهم يعرفون كل شىء عنها، لذا إليكم ما كنت أفعله:

استمر تسجيلى للحضور حتى ارتفع صوتى أخيرًا قائلًا: "ما لى أرى كل واحد منكم واقفًا مع صديقه، بعيدًا عن مجموعته؟ لم لا يقف كل منكم مع مجموعته؟".

البعض رأى غضبى هذا من قبيل التأثير عليهم، ولكن الجميع التزم بما قلته لهم، فأخبرتهم قائلاً: "سأنصرف خارج الفصل مدة دقيقة واحدة، وعندما أعود، أريد أن أرى كل واحد منكم واقفًا مع مجموعته، هل فهمتم؟", ثم أتحركت سريعًا مندفعًا خارج الفصل لأسمع ارتباكًا بداخله من جراء جمع الطلاب لحقائبهم وإعادة ترتيب أنفسهم فى مجموعات.

وعندما أعود إليهم، أشرح لهم أن ورقة خطوات العمل الجماعى التى وزعتها عليهم لم يكن الهدف منها التشكيك فى ذكائهم أو النيل من نضج فكرهم، ولكن كل ما فى الأمر أننى أردت أن أوضح أنهم افتقدوا شيئًا بسيطاً - وهو الجلوس مع زملائهم فى المحموعة - ومن ثم يمكنهم الاستفادة بكل تأكيد من مراجعة باقى الأساسيات.

وفى الحصة التالية، وعلى مدار بقية الفصل الدراسى، جلس طلابى (الأذكياء) كل مع مجموعته.

الفصل السادس والثلاثون
انظر إلى الجانب الأفضل عند الآخرين

تلك أجمل النصائح التى تلقيتها فى حياتى والتى أسداها لى جون سنودى وهو من اعتبرته بمثابة مثلى الأعلى فى واحة عمل الابتكارات بوالت ديزنى، أعجبت كثيراً بالطريقة التى صاغ لى بها هذه النصيحة حيث قال لى: "لو تمهلت على الناس بما فيه الكفاية، سترى منهم ما يدهشك ويثير إعجابك".

يرى جون، أنه عندما يخيب الناس أملك، ويثيرون غضبك، فربما يكون السبب أنك لم تترك لهم من الوقت ما يكفى.

لقد لفت انتباهى يومًا عندما قال لى إن صبرك على الناس قد يطول أمده، حتى أنه قد يمتد إلى سنين: "ولكن فى نهاية المطاف، سترى منهم الجانب الجيد فى سلوكهم، فتقريبًا لا يوجد شخص إلا وفيه جانب جيد، فتمهل وستراه بالتأكيد".

الفصل السابع والثلاثون
انظر إلى الأفعال ولا تغتر بالأقوال

تبلغ ابنتى كالوى من العمر ثمانية عشر شهرًا، فمازالت صغيرة على أن أسدى لها هذه النصيحة الآن ولكنها ستعرفها عند بلوغها السن المناسبة، أريدها أن تعرف نصيحة أسدتها لى زميلة ذات مرة، وهى نصيحة مجدية للفتيات فى كل مكان، فى واقع الأمر، أفضل نصيحة سمعتها على الإطلاق.

قالت لى زميلتى: "لقد أخذت وقتًا طويلًا ولكنى انتهيت أخيرًا إلى أنه عندما يتعلق الأمر بهؤلاء الرجال المغرمين بك عاطفيًا فالأمر بسيط للغاية، لا تلق بالًا لأقوالهم بل انظر إلى أفعالهم".

وتلك هى النصيحة التى أريد من كالوى أن تعرفها.

بل وعندما أفكر فى هذه النصيحة، أجد أنها قد تكون نافعة يومًا لكل من ديلان ولوجان أيضاً.

الفصل الثامن والثلاثون
إذا لم تنجح فى المرة الأولى ...

... حاول وعاود المحاولة مرة أخرى، هذه واحدة من ضمن العبارات المأثورة.

أحب العبارات المأثورة، أحب كثيراً منها على أية حال، وأقدر الأقوال المأثورة، وأرى أنا السبب فى كثرة تناقل الألسن لمثل هذه العبارات هو صحتها ودقتها فى الغالب.

ولا يجب أن يخشى المعلمون من استخدام مثل هذه العبارات المأثورة، أترى لماذا؟ لأن الطلاب لا يزالون حديثى العهد بها، كما أنها تلهمهم وتبث فيهم روح النشاط، ولقد سمعتها مراراً وتكراراً داخل حجرتى الدراسية.

ارقص مع من أتى بك. تلك عبارة مأثورة دائمًا ما قالها لى والدى، ليس المقصود منها معناها الحرفى، أى الرقص مثلاً، بل إنها ترمى إلى ما وراء ذلك، فلابد من التعامل معها كعبارة مقدسة فى عالم العمل، وفى الحياة الأكاديمية وفى البيت، فهى تذكرك بالولاء وبالتقدير.

الحظ هو ما يحدث لحظة التقاء الفرصة باستعداد المرء لتلقفها. صاحب هذه العبارة، هو سينيكا، الفيلسوف الرومانى، المولود فى العام الخامس قبل الميلاد، وتستحق هذه العبارة أن تتناقلها الألسن على الأقل مدة ألفى عام مقبلة.

أفعال المرء تتسق مع ما يظنه فى قدراته، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. تلك عبارة مأثورة تقال دوما للطلاب الجدد.

بخلاف ذلك، كيف كانت المسرحية، سيدة لينكولن؟ أقول هذه العبارة للطلاب كى أذكرهم بأن يصبوا تركيزهم على القضايا الرئيسية وليست الفرعية.

أحب كذلك كثيرًا من العبارات المأثورة الخاصة بثقافة البوب، ولا أمانع من مشاهدة أولادى لسوبر مان، ليس لأنه يمتاز بالقوة وبإمكانية الطيران، بل لأنه يحارب من أجل "الصدق والعدل"، أحب قوله لهذه العبارة.

أحب أفلام روكى أيضًا، وأحب موسيقى أفلامه، وأكثر ما أحببته فى أفلامه، هو أن

روكى لم يكن يبالى عندما يربح المعركة التى ينتهى بها الفيلم، كل ما كان يريده هو ألا يخرج مهزومًا، كان هذا هو هدفه، ففى أثناء رحلة علاجى، كان تذكرى لروكى يبث فى روح الأمل، حيث ذكرنى بأنه: ليس المهم ما سددته من ضربات بل ما تلقيته من ضربات ... وواصل مسيرتك.

ومن بين جميع العبارات المأثورة الموجودة فى العالم أهوى تلك الخاصة بكرة القدم، اعتاد زملائى فى جامعة كارنيجى ميلون أن يمروا من أمامى فى قاعات الجامعة ومعهم الكرة يقذفون بها إلى أعلى وإلى أسفل، كان يساعدنى ذلك على التفكير، وكانوا يقولون كذلك إن العبارات الاستعارية الخاصة بكرة القدم تساعدنى هى الأخرى على التفكير، ولكنَّ بعضًا من طلابى، فتيانًا وفتيات، لم يتأقلموا مع هذا الأمر، حيث كانوا يناقشون طرقًا خاصة لحل مسائل الكمبيوتر بينما أتحدث أنا عن كرة القدم، كنت أقول لهم: "معذرة، ولكنه من الأسهل لكم أن تتعلموا أساسيات كرة القدم مقارنة بتعلمى لمجموعة جديدة من العبارات المأثورة".

كنت أحب أن يفكر طلابى بعقلية الفوز، أن يخرجوا ويواجهوا الحياة، أن يصولوا ويجولوا فى الملعب، أن يتجنبوا التسديدات غير الموفقة، وأن يفوزوا بالمباراة، حتى وإن تطلب ذلك اللعب يوم العطلات الرسمية، ومع ذلك فقد كان طلابى يدركون مبدئى المعروف: ليس المهم أن تكسب أو تخسر، المهم هو كيفية لعبك للمباراة.

الفصل التاسع والثلاثون
كن البطريق الأول

إن الخبرة هى الشىء الذى تفوز به عندما لا توفق فى تحقيق ما كنت ترنو إليه.

تعلمت هذه الجملة، عندما كنت منتدبًا للعمل فى شركة إلكترونيك آرتس، إحدى شركات صناعة ألعاب الفيديو، فقد رسخت هذه الجملة فى ذهنى وأبت أن تفارقنى، وداومت على تكرارها لطلابى.

إنها لعبارة تستحق أن نتذكرها كلما واجهتنا عقبة أو لم يحالفنا الحظ فى تحقيق شىء ما، كما أنها تذكرنا أيضًا بأن الإخفاق لا يجب تقبله فقط، بل هو فى الغالب أمر ضرورى.

عندما كنت أدرس "كيفية إنشاء عوالم افتراضية"، شجعت الطلاب على القيام بمهام صعبة، وألا يبالوا بالإخفاق فيها، كل ما أردته هو مكافأتهم على طريقتهم فى التفكير، لذا كنت أقدم فى نهاية الفصل الدراسى لإحدى الفرق الجماعية من الطلاب دمية – كانت عبارة عن بطريق. كنت أسميها "جائزة البطريق الأولى"، وكان يحصل عليها الفريق الذى يتبنى المغامرة الأكبر فى محاولة تجربة أفكار جديدة أو تقنية جديدة، على الرغم من فشلهم فى تحقيق أهدافهم المعلنة، وفى حقيقة الأمر كان جديراً بهذه الجائزة أن تسمى جائزة "الفشل الخلاق"، فقد كانت تحتفى بالتفكير الإبداعى، واستخدام الخيال فى تجربة أشياء جديدة.

وكان الطلاب الآخرون يفهمون الأمر على هذا النحو: "الفائزون بجائزة البطريق الأولى" هم فاشلون سيحققون النجاح يوماً ما.

وقد استوحيت اسم الجائزة من فكرة البطاريق حينما تهم بالقفز فى الماء الذى قد يكون به سباع الماء؛ حسناً، ولكن يجب أن يتشجع أحد طيور البطريق ويكون أول من يقفز. وفى البداية أسميتها "جائزة أفضل فشل"، ولكن كلمة الفشل لها دلالات سلبية كثيرة التى لن يستطيع الطلاب استساغتها بسهولة.

وقد دأبت على إخبار تلاميذى بأن صناعة الترفيه بها عدد لا يحصى من المنتجات

الفاشلة، فهى ليست كبناء المنازل؛ حيث يمكن سُكنى كل منزل يُبنى، أما ألعاب الفيديو فلا يمكن صناعتها وعدم متابعتها بالبحث والتطوير، وإلا ستصبح متخلفة وتعجز عن المنافسة، نعم، يحظى من حققوا نجاحات فى مجال ألعاب الفيديو بالتقدير، ولكن هؤلاء الذين فشلوا يحظون بالتقدير أيضاً - وأحياناً بقدر أكبر.

وغالباً ما تفضل الشركات الناشئة تعيين مدير تنفيذى ذى بداية فاشلة فى حياته المهنية، فمن جرب الفشل يعرف كيف يتجنب الفشل فى المستقبل، أم من لم يعرف إلا النجاح فقد يغفل كل الحفر التى ربما يقع فيها بسهولة.

إن الخبرة هى الشىء الذى تفوز به عندما لا توفق فى تحقيق ما كنت ترنو إليه، والخبرة فى الغالب هى أهم شىء يمكنك تقديمه.

الفصل الأربعون
استرع انتباه الآخرين

كان العديد من طلابى يمتازون بالذكاء الشديد، كنت أعلم أنهم على قادرين على اقتحام سوق العمل وابتكار برامج جديدة مذهلة، ومشاريع خاصة ببرامج الكرتون، ووسائل الترفيه، كما كنت أعلم كذلك أن لديهم إمكانية التفوق على ملايين من العاملين فى هذا المجال وإصابتهم بالإحباط.

كثير منا نحن المهندسين والمتخصصين فى علوم الكمبيوتر لا نفكر عادة فى صنع أشياء سهلة الاستخدام، ويعانى كثير منا فى تبسيط المهام المعقدة وتوصيلها فى صورة سهلة، هل سبق لك أن قرأت كتيب التعليمات الخاص بـ "VCR"؟ لو كنت فعلت، فلا شك أنك قد أصابتك حالة من الإحباط والملل.

ولهذا السبب أردت أن ألفت نظر طلابى وأجعلهم يفكرون بشأن المستخدم النهائى لما يبتكرونه من أشياء، كان همى هو كيف أوضح لهم أهمية عدم ابتكار تقنية تبعث على الملل والإحباط؟ وانتهى الأمر إلى أن حظى كلامى هذا بجل انتباههم.

عندما كنت أقوم بتدريس "كيفية عرض التقنية للمستخدم" فى جامعة فيرجينيا، كنت أحضر معى أول يوم الـ VCR، وأضعها على المكتب فى مقدمة الغرفة، ثم أحكمها بمطرقة.

بعدها أقول للطلاب: "عندما تصنع شيئًا يصعب استخدامه، يستاء مستخدموه، ويثور غضبهم لدرجة قد تؤدى إلى تدميرهم له، ونحن لانريد أن نصنع أشياء يدمرها المستخدمون".

فينظر إلى الطلاب بعد كلامى هذا، وأكاد أقول لكم إنهم تصيبهم الدهشة والحيرة ويجدون فى ذلك أمرًا ممتعًا، ولسان حالهم يقول: "لا نعرف من هذا الشاب، ولكننا سنأتي محاضرته غدًا لنرى ما فى جعبته من أشياء أخرى مبهرة".

بالـتأكيد لقد حظيت بانتباههم، وتلك هى الخطوة الأولى دائمًا لحل مشكلة مهملة (فعندما غادرت جامعة فرجينيا إلى جامعة كارنيجى ميلون، أعطانى صديقى وزميلى

فى العمل جابى روبنز مطرقة ذات رقعة مكتوب عليها: "كثير من أجهزة الـ VCR، قليل من الوقت!").

وجميع الطلاب الذين كانوا بجامعة فرجينيا فترة عملى هناك، التحقوا بسوق العمل الآن، وآمل أن أجول بخاطرهم عندما يقدمون على ابتكار تقنيات جديدة، ويتذكرون رفعى المطرقة لتدمير جهاز الـ VCR، وحديثى معهم عن المسائل الرياضية المعقدة التى تحتاج إلى تبسيط.

الفصل الحادي والأربعون
خطابات الشكر التى تناساها الجميع

على الرغم من أن العرفان بالجميل من أسهل ما يمكن أن يقدمه المرء للآخر إلا أنه من أكثر الأشياء تأثيرًا ووقعًا فى النفوس، نعم أحب المكافأة ولكننى أعتقد أن أفضل وسيلة تقدم من خلالها الشكر للآخر وتقر له فيها بالجميل هى الطريقة القديمة، أى من خلال الكتابة.

يطلع العديد من محاورى المقابلات الشخصية والمسئولين عن قبول الأفراد لوظيفة ما على العديد من بيانات المتقدمين، ويقرءون كثيرًا جدًا من السير الذاتية للطلاب المتفوقين الحاصلين على درجة الامتياز، ولكنهم لا يقرءون العديد من عبارات الشكر المكتوبة خطيًا.

لو كنت من الطلاب الحاصلين على درجة جيد جدًا، فاعلم أن كتابتك لعبارات الشكر والثناء سترفع من شأنك على الأقل نصف درجة فى عيون رؤسائك فى العمل مستقبلًا أو المسئولين عن قبول الأفراد فى العمل، ستجد نفسك على قدم المساواة مع ذلك الحاصل على درجة الامتياز، ولأن العبارات المكتوبة أصبحت نادرة اليوم، فسوف تزكيك.

إن تقديم هذه النصيحة لطلابى لم يكن بهدف تعلم البراعة فى الدهاء، على الرغم من أن بعض الطلاب اعتبروها كذلك، كان الهدف من وراء هذه النصيحة أن أساعد الطلاب كى يدركوا أن هناك أشياء جديرة بالاحترام يمكن أداؤها فى الحياة والإشادة بها من قبل متلقيها، وبالطبع الأشياء الجيدة فقط هى التى تؤتى ثمارًا.

على سبيل المثال، تقدمت سيدة للحصول على فرصة عمل لدينا بشركة "اى. تى. سى"، وكنا على وشك أن نرفض طلبها، كان تقديرها جيدًا ولكن لا يؤهلها للعمل معنا، وكان حلمها الأكبر أن تصبح يوما من ضمن صفوف المبتكرين بمؤسسة والت ديزنى، وقبل أن ندرج اسمها فى قائمة غير المقبولين، قررت أن أتصفح ملفها مرة أخرى، ولاحظت أن هناك اعترافًا منها بالشكر والتقدير مكتوبًا بخط اليد بين

الصفحات الأخرى.

لم يكن هذا الشكر موجهًا لى ولا لزميلى المدير "دون مارينلى"، أو أى من أعضاء الكلية، بل كان موجهًا لشخص من هيئة موظفى المساعدة من خارج الكلية، حيث قام بمساعدتها فى إعداد الترتيبات فور وصولها إلى المكان هنا، ولم يكن ذلك الشخص قد اطلع على طلب تقديمها؛ لذا ليس هناك مجال للقول بأن هذا الثناء من قبيل المداهنة، كان عبارة فقط عن بضع كلمات من الشكر لشخص لم يسبق لها معرفته وجهت له بضع كلمات الشكر وأرفقتها فى ملف طلب التحاقها بالوظيفة، ولم أجده إلا بعد بضعة أسابيع لاحقًا.

نظرت إلى خطابها أفكر، ووجدت أنها قد كتبته بخط اليد، أحببت ذلك منها، وقلت لدون: "إن هذا أفضل ما فى ملفها". وقرأت ملفها مجددًا، وفكرت بشأنها، وأعجبت مجددًا بورقة الشكر التى أرفقتها فى الملف، وقررت أنها تستحق أن تحظى بفرصة عمل معنا، ووافق دون على ذلك.

وأتت بالفعل إلى "إى. تى. سى"، ونالت درجة الماجيستير، وأصبحت الآن مبتكرة فى مؤسسة والت ديزنى.

أخبرتها بتلك القصة، وها هى تحكيها اليوم للآخرين.

وعلى الرغم من جميع المشاكل التى أعانى منها الآن فى حياتى والعلاج الطبى الذى أتلقاه، مازلت أحاول أن أكتب بخط يدى عبارات ثناء كلما استلزم الأمر، إنه ألطف ما يمكن أن تقوم به، ولا تعرف مدى السحر الذى تصنعه تلك العبارات عندما يجدها المرسل إليه فى صندوقه البريدى.

الفصل الثاني والأربعون
الولاء المتبادل

عندما كان دينس كوسجروف طالبًا جامعيًا عندى فى جامعة فيرجينيا فى مطلع التسعينات، وجدته طالبًا متفوقًا جدًا، كان يؤدى عملًا رائعًا فى معمل الكمبيوتر، كان بمثابة مساعد لى فى دورة أنظمة التشغيل التى كنت أدرّسها، كما كان يتلقى كذلك الدورات التدريبية الخاصة بطلبة الدراسات العليا، وكان طالبًا حاصلًا على تقدير الامتياز.

حسنًا كان يحصل على درجة الامتياز فى معظم المواد، ولكنه حصل على تقدير سيئ فى التفاضل والتكامل، لم يكن ذلك بسبب فقدانه القدرة على نيل درجة عالية، ولكن لأن تركيزه انصب على الدورات التدريبية الخاصة بالكمبيوتر، كما أنه كان يعمل كمساعد تعليمى وبحثى فى معملى، ومن ثم فقد توقف عن الذهاب لحضور محاضرات التفاضل والتكامل.

وقد أصبح ذلك يمثل مشكلة حادة بالنسبة له، فلم يسبق له أن أنهى فصلًا دراسيًا بتقدير امتياز فى جميع المواد ومعه مادة راسب فيها.

لم يكن يتبقى سوى أسبوعين فقط على بداية الفصل الدراسى الجديد،عندما استوقف بيان درجات دينس أحد عمداء الكلية، كان يعلم أنه طالب يمتاز بالذكاء، كما رأى أيضًا حصوله على درجات عالية فى جميع المواد ولكن كانت المشكلة فى مادة التفاضل والتكامل التى رسب فيها، لذا أراد أن يفصله من الكلية، ولكنى كنت أعلم أن أحداً لم يلفت نظر دينس إلى هذه المسألة، حيث تقديره فى مواده الأخرى كان كفيلًا بعدم معاقبته على الإخفاق فى هذه المادة، ولكن العميد قرر أن يفصله بالفعل وأصبح تنفيذ ذلك وشيكًا، فقررت أن أدافع عنه، لذا قلت للعميد: "انظر، إن دينس بمثابة صاروخ دون أجنحة، لقد كان نجمًا ساطعًا فى معملى، لو قمنا بفصله نكون بذلك قد فقدنا ما جئنا لأجله إلى هنا، إننا هنا لكى نعلم النشء ونزودهم بالمعرفة، أنا أعلم أن دينس لو خرج من هنا سيجد له مكانًا مميزًا خارج كليتنا، لذا لا يجب علينا أن

نفصله".

لم يرق كلامى للعميد، فمن وجهة نظره، لم أكن أزال سوى مدرس شاب مصمم على فعل ما يعتقده صحيحاً.

ازداد تصميمى على التمسك بـ دينس، واتخذت أسلوبًا تكتيكياً للوصول إلى هدفى، كان الفصل الدراسى قد بدأ بالفعل، وقد حصلت الجامعة بالفعل الرسوم الدراسية المطلوبة من دينس، وهذا يعنى أن دينس لا يزال مُرحبًا به كطالب ضمن صفوف الجامعة، إذ لو كانت الجامعة ترغب فى فصله، ألم يكن من الواجب أن يتم ذلك قبل بدء الفصل الدراسى حتى يتسنى له أن يلتحق بكلية أخرى، ولكن قد فات الأوان.

وسألت العميد قائلًا: "ماذا لو فصلته الجامعة الآن واستأجر محاميًا للدفاع عنه؟".

من المحتمل أن أشهد معه فى هذه الحالة، فهل ترغب أن يقف أحد أعضاء كليتك ضد الجامعة؟". فقال لى: "لم يتم تثبيتك للعمل بشكل دائم، فلما العناد والإصرار على خوض المعارك والمواجهة".

فقلت له: "سأفصح لك عن السبب، إننى أقف بصف دينس لأننى أثق فيه وفى قدراته".

أطال لى النظر ثم قال: "سأحمل لك هذا الموقف لأذكرك به عندما يتم تثبيتك للعمل بشكل دائم". لقد أراد أن يقول لى بعبارة أخرى، لو أخفق دينس مجددًا، ستتعرض للمساءلة.

فقلت له: "اتفقنا". وظل دينس فى الكلية لم يفارقها.

نجح فى أن يتخطى امتحان التفاضل والتكامل، والجميع كان فخوراً به، وبعد تخرجه، حصد الجوائز وأصبح نجمًا ساطعًا فى مجال علوم الكمبيوتر، لقد احتل مكاناً فى حياتى وفى معملى، فى واقع الأمر، كان أحد الآباء المؤسسين لمشروع أليس، فباعتباره أحد المصممين، قام بعمل برمجى هائل سهل من وصول الشباب الصغار إلى نظام الواقع الافتراضى.

دافعت عن دينس عندما كان فى الواحدة والعشرين من عمره، والآن أصبح هو من يدافع عنى بعد أن بلغ السابعة والثلاثين من عمره، لقد وضعت فيه ثقتى فيما يتعلق بآمالى المستقبلية الخاصة بـ أليس وذلك باعتباره عالمًا باحثًا سيعمل على تصميم وتنفيذ إرثى المهنى.

لقد ساعدت دينس يومًا على تحقيق حلمه ... والآن جاء دوره ليساعدنى على تحقيق حلمى.

الفصل الثالث والأربعون
الحل فى ليلة الجمعة

تم السماح لى بالتدريس على نحو دائم فى الكلية قبل الموعد المقرر بعام كامل، الأمر الذى أدهش عدداً آخر من المدرسين صغار السن فى الكلية.

كانوا يقولون لى: "أوه، لقد فزت بهذ مبكرًا، ما السر يا ترى؟".

فأجيبهم قائلًا: "الأمر غاية فى البساطة، فقط اتصلوا بى ليلة الجمعة فى مكتبى الساعة العاشرة، وسأقول لكم السر". (بالطبع كان هذا قبل زواجى).

معظم الاشخاص يسعون وراء أقصر الطرق، وقد وجدت أن أفضل أقصر الطرق تتمثل بشكل أساسى فى كلمتين هما: اعمل بجد.

فمن وجهة نظرى، لو عملت ساعات عمل تزيد على الآخرين، ستكتسب خلالها مزيدًا من الخبرة فى مهنتك، وسيجعلك هذا تنعم بمزيد من الكفاءة والقدرة و السعادة أيضًا، فالعمل بجد كالفائدة المركبة فى البنوك، حيث تزداد أرباحها سريعًا.

والأمر ذاته ينطبق على حياتك خارج نطاق العمل، فعلى مدار حياة المراهقة كنت متيماً بسؤال الأزواج الذين طال بقاؤهم معًا عن كيفية الحياة مع بعضهم البعض، وجميعهم كان يعطينى إجابة واحدة: "العمل الجاد".

الفصل الرابع والأربعون
رد الجميل

بعد أن تم السماح لى بالعمل بصفة دائمة بجامعة فرجينيا، لم انتظر طويلًا حتى اصطحبت فريق عملى البحثى المكون من خمسة عشر طالبًا فى رحلة إلى عالم ديزنى لمدة أسبوع، وذلك تعبيرًا منى بالشكر لهم.

مال بى أحد زملائى الأساتذة جانبًا وقال لى: "راندى، كيف فعلت هذا؟" من المحتمل أنه أعتقد أننى قمت بسابقة سيعجز الأساتذة الذين ينالون العمل بصفة دائمة عن القدوم على مثلها.

أجبته مستنكرًا: "تقول كيف فعلت هذا؟ لقد بذل هولاء الطلاب قصارى جهدهم وبفضلهم حصلت على أفضل المناصب، من الأحرى أن تقول لى كيف لك ألا تقوم بفعل هذا؟".

ذهبنا جميعًا إلى فلوريدا فى حافلة ضخمة، واستمتعنا بتجربة رائعة، وحرصت على أن ننال قدرًا من المعرفة بجانب الترفيه أيضًا، لذا وقفنا فى طريقنا عند بعض الجامعات، وزرنًا مجموعات البحث الخاصة بعلوم الكمبيوتر فيها.

كانت الرحلة إلى مؤسسة والت ديزنى امتنانًا منى للطلاب وجدت سهولة فى تقديمه لهم، كانت مكافأة ملموسة لهم، ولقد كانت هى المكافأة الأمثل حيث كانت تجربة شاركت فيها أشخاص أحبهم.

آندى فان دام هو واحد من أكبر ناصحىّ، كان أستاذًا لى فى علوم الكمبيوتر عندما كنت بجامعة براون، منحنى المشورة السديدة، وكان له فضل فى تغير حياتى، ولكن أشعر بالتقصير فى استيفائه حقه ورد الجميل له، لذا على أن أقوم بهذا.

أحببت دائمًا أن أقول لطلابى: "قدموا المساعدة للاخرين كما قدمها لكم آخرون من ذى قبل"، ولقد كان أصحابى للطلاب إلى عالم ديزنى، والحديث معهم عن أحلامهم وأهدافهم ، محاولة لتطبيق هذ المقولة من جانبى.

الفصل الخامس والأربعون
أرسل حبات نعناع للتشجيع

عملت كمراجع أكاديمى، وذلك كجزء من مسئولياتى، مما يعنى أنه كان ينبغى على أن أطلب من أساتذة آخرين أن يقرءوا كثيرًا جدًا من الأوراق البحثية المكتوبة ويراجعوها، قد تكون هذه المهمة مملة وباعثة على النوم، لذا واتتنى فكرة بهذا الشأن، وهى إرسالى لحبة نعناع مرفقة بكل ورقة تحتاج إلى مراجعة وكنت أكتب: "شكرًا لموافقتك على فعل هذا، إن حبة النعناع هى مكافأتك، ولكن لا تتناولها حتى تراجع الأوراق".

كان ذلك الأمر يرسم البسمة على وجوه الآخرين، ولم أعد فى حاجة مطلقًا لأن أتصل بهم وألح عليهم، فقط كنت أرسل إليهم صندوق نعناع فيعلمون ما الذى ينبغى عليهم فعله.

بال‌تأكيد تعين علىَّ أن أرسل لهم رسالة بريدية كنوع من التذكير لهم، ولكن تلك الرسالة لم أكتب فيها سوى جملة واحدة:" هل تناولت النعناع؟".

لقد وجدت أن النعناع أفضل وسائل التواصل، كما أنه من أفضل الهدايا التى تبعث على إتقان العمل.

الفصل السادس والأربعون
أنت لا تملك سوى ما تأخذه معك

لطالما شعرت بالحاجة لأن أكون مستعدًا لأى موقف أتعرض له، على سبيل المثال، ما الذى أحتاج إلى أن آخذه معى عند مغادرتى للمنزل؟ عندما أقف لأعلم الطلاب فى الفصل فما الذى يجب علىَّ توقعه من أسئلة قد يوجهها الطلاب لى؟ عندما أضع الترتيبات لمستقبل أسرتى ليعتادوا العيش دونى فما الوثائق التى يجب توفرها؟

أتذكر والدتى عندما كانت تصطحبنى وتذهب بى إلى محل الخضراوات وقت أن كنت فى السابعة من عمرى، فعندما كانت تنتهى من الشراء ونتوجه معًا إلى قسم الحسابات تدرك أنها قد نسيت شراء سلعتين، فتتركنى ومعى الكارت وتهرول هى لجلب ما تحتاج إليه من سلع.

كانت تقول لى: "سأكون هنا حالًا".

صحيح أنها كانت تغيب عنى دقائق معدودة، ولكن فى تلك الدقائق أكون محملًا بجميع السلع التى تهتز جميعًا، تركتنى والدتى ذات مرة أمام السيدة القائمة على تحصيل النقود يحملق بعضنا للآخر، قررت تلك السيدة أن تداعبنى فى هذا الموقف فقالت لى: "هل معك نقود، يا صغيرى، لابد أن أحصل على نقود".

لم أكن أعلم حقيقة أنها كانت تحاول فقط أن تسلى نفسها، لذا وقفت مكانى محرجًا فى موقف لا أحسد عليه.

عندما عادت والدتى كانت تبدو على وجهى علامات الغضب وقلت لها: "تركتنى هنا دون نقود وقد طلبت منى هذه السيدة نقودًا، ولم يكن معى شىء أعطيه لها".

والآن وبعد ان أصبحت رجلًا، لا يمكن أن ترانى مرة أخرج فيها من البيت ومعى فى حافظتى أقل من 200 دولار، وذلك تحسبًا لأى موقف أحتاج فيه إلى هذه النقود، بالتأكيد، قد أفقد حافظتى أو تسرق منى، ولكن بالنسبة لشاب يسعى لأن يحيا حياة مقتصدة، فمبلغ كهذا يستحق المخاطرة، وعلى النقيض، إذا لم يكن معك أموال نقدية إذا لزم الأمر فتلك مشكلة كبيرة جدًا.

دائمًا ما يحظى بإعجابى هؤلاء الأشخاص الذين يتسمون بالجهوزية العالية، ففى الكلية على سبيل المثال، كان لى زميل فى الفصل يسمى نورمان ميرويتز، ذات مرة كان نورمان يلقى عرضًا له على جهاز عرض يعمل بالضوء وفى منتصف حديثه انطفأ ضوء جهاز العرض، فتعالت الهمسات من جمهور الحاضرين، وكان علينا أن ننتظر مدة عشر دقائق حتى نجد جهاز عرض جديدًا.

ولكن نورمان قال: "حسنًا، اهدءوا فليس هناك ما يدعو للانزعاج".

وشاهدناه يتوجه إلى حقيبته ويخرج منها شيئًا ما، لقد أخرج مصباح إضاءة احتياطيًا خاصًا بتشغيل جهاز العرض، فمن يصدق هذا؟

وكان أستاذى آندى فان دام يجلس بجوارى بالمصادفة، فمال على وقال: "هذا الشاب- يقصد نورم - فى طريقه لتبوؤ مكانة عالية". وهو ماض بالفعل فى طريقه الصحيح، فقد أصبح نورمان مديرًا تنفيذيًا كبيرًا فى ماكروميديا، حيث ينتفع بمجهوداته تقريبًا جميع من يستخدمون الإنترنت اليوم.

هناك طريقة أخرى لكى تكون مستعداً وهى التفكير على نحو سلبى.

نعم أنا من أكبر المتفائلين، ولكن عندما أتخذ قرارًا عادة ما أفكر فى حدوث أسوأ السيناريوهات التى أطلق عليها: "ما أكلته الذئاب". لو قمت بفعل شىء ما، فما هى أسوأ النتائج التى قد تترتب عليه؟ هل ستأكلنى الذئاب؟

هناك شىء واحد من المحتمل أن أشعر معه بالتفاؤل وهو أن يكون لدى خطة طوارئ تحسبًا لأى موقف عصيب، فهناك أشياء كثيرة لا أنزعج بشأنها والسبب فى ذلك أن لدى خطه للتعامل معها حال حدوثها.

دائمًا ماكنت أقول لطلابى: "عندما تذهبون للغابة، فما من شىء يمكنكم أن تعولوا عليه سوى ما تأخذونه معكم"، وبالتأكيد، حياة الغابة موجودة فى كل مكان ماعدا منزلك وعملك، لذا احرص على أن يكون معك نقود، جهز عدتك، تخيل وجود الذئاب، خذ معك مصباحاً كهربائيًا، خلاصة الأمر كن مستعدًا.

الفصل السابع والأربعون

قدم اعتذارًا لائقًا و إلا فلا

الاعتذار ليس عيباً أو فشلاً، ودائمًا ماكنت أقول لطلابى: عندما تقدمون اعتذارًا، لابد من أن يكون لائقًا وإلا فما منه فائدة.

إن الاعتذارات التى يقدمها أصحابها مفتقدة إلى العاطفة الصادقة أو غير نابعة من القلب لهى أسوأ من عدم تقديم الاعتذار مطلقًا، والسبب فى ذلك هو أن من تقدم إليه الاعتذار يجد فى مثل هذه النوعية من الاعتذارات غير المخلصة إهانة له، فلو ارتكبت خطأ فى تعاملك مع شخص آخر فهو بمثابة مرض يصيب علاقتك به، والاعتذار المناسب بمثابة الترياق الشافى، والاعتذار الذى يفتقد اللياقة بمثابة تطهير الجرح بالملح.

كان العمل فى مجموعات يمثل أمرًا من الأهمية بمكان فى فصولى الدراسية، وكان حدوث اختلافات بين الطلاب أمرًا متوقعًا، فبعض الطلاب لم يضطلع بجميع ما وكل إليه من مهام، والبعض الآخر كان يشعر بقدراته الذاتية إلى حد جعله يقلل من قدرات رفاقه فى العمل، ومع انتصاف الفصل الدراسى كانت هناك موجة من تقديم الاعتذارات، التى لولاها لخرج كل شىء على نطاق السيطرة، لذا كنت أحرص دائمًا على الحديث معهم عن تقديم الاعتذارات.

كنت أبدأ بوصف نوعين من الاعتذارات السيئة:

1) "آسف لأنى جرحت مشاعرك بما فعلته". (وتلك محاولة لعلاج المشاعر العاطفية، ولكن من الواضح أنها لا تقدم أى علاج لمداوة الجرح).

2) "أعتذر على ما بدر منى، ولكن هذا لا يمنع من أنك أيضًا مدين لى بالاعتذار". (وليس هذا بتقديم اعتذار، بل طلب اعتذار من الآخر).

وللاعتذار المناسب صيغ ثلاث:

1) أعترف بخطأ ما قمت به.

2) أشعر بتأنيب ضميرى بسبب جرحى لمشاعرك.
3) ما الذى يمكن أن أقدمه لك؟

نعم، قد ينتهز شخص الفرصة عندما تقدم له اعتذارًا من هذا النوع الثالث، ولكن فى واقع الأمر سيقدر لك معظم الأشخاص مساعيك الحميدة، وقد يطلبون منك شيئًا يسيرًا وبسيطًا تقدمه لهم كى تحسن صورتك، بينما سيقومون هم بأنفسهم بالعمل الجاد لعودة الأمور كما كانت عليه.

وقد يقول لى الطلاب: "ماذا لو بادرنا وقدمنا اعتذارًا لشخص رفض أن يقدم لنا اعتذاره". وأجيب عليهم قائلاً: "هذا شىء خارج على إرادتكم، لا تستطيعون التحكم فيه، لذا لا تجعلوه يسيطر على تفكيركم ويكون حائلًا بين تقديمكم للاعتذار".

فلو كان هناك أشخاص مدينون لك باعتذار، وقد قدمت لهم اعتذارًا صادقًا ونابعًا من القلب، فمن المحتمل ألا ترى ردة فعلهم الإيجابية فى نفس اللحظة، ألست معى فى أنه من الغريب أن يتفاعلوا معك لحظة تقديمك الاعتذار لهم وتتملكهم العاطفة فيبادروا بتقديم الاعتذار لك فى نفس اللحظة؟ لذا، تمهل ولا تتعجل، لقد رأيت طلابًا يقدمون اعتذارات لزملائهم الطلاب، وبعدها بعدة أيام يستجيب لهم زملاؤهم ويردون لهم الاعتذار، لا تتعجل وستنال الإشادة والمكافأة.

الفصل الثامن والأربعون
كن صادقًا

لو طلب منى نصيحة موجزة فى كلمتين سأقول: "كن صادقاً", ولو زادت على حد الكلمتين سأضيف لها: "فى جميع الأوقات". علمنى والدى أننى "أساوى ما أنطق به من كلمات حسنة" وليس هناك من طريقة أفضل من هذه للتعبير عن هذا المعنى.

فالأمانة ليست صفة محمودة على الجانب الأخلاقى فقط، ولكنها أداة فعالة أيضًا، فالمجتمع الذى تنتشر فيه ثقافة قول الصدق، يوفر عليك كثيرًا من الوقت الذى تحاول فيه التماس الحقيقة، عندما قمت بالتدريس فى جامعة فرجينيا، أحببت الالتزام بميثاق الشرف، فعلى سبيل المثال لو مرض طالب وغاب عن الامتحان واحتاج إلى أن أقدم له امتحاناً تعويضيًا، فلا أحتاج لأن أضع له آخر جديدًا إذ يتعهد لى الطلاب بأنه ما تحدث مع أى من زملائه عن امتحانهم، ومن ثم أقدم له نفس الامتحان.

والناس يفترون الكذب لأسباب عدة، غالبًا لأنه وسيلة يسهل معها الحصول على ما يريده المرء بأقل مجهود، ولكنه استراتيجية قصيرة المدى تثبت عدم جدواها على المدى البعيد، فأولئك الذين كذبت عليهم سيأتى يوم وتتعامل معهم مجددًا ولن ينسوا لك كذبك عليهم، بل وسيحدثون الآخرين عما فعلته معهم، فهذا هو ما يدهشنى بشأن الكذب، حيث يعتقد المرء أنه قد أفلت بكذبه ... وهذا أمر ليس بصحيح.

الفصل التاسع والأربعون
أنت وعلبة ألوانك

يشتكى من هم على معرفة بى أحيانًا من أننى لأ ارى الأشياء إلا فى صورة لونين الأبيض أو الأسود.

فى واقع الأمر، كان أحد زملائى فى العمل يقول: «عليك بـ براندى لو كنت تريد نصيحة يعلوها اللون الأبيض أو تكتسى باللون الأسود، أما إذا كنت تبحث عن اللون الرمادى فليس هو بالشخص المناسب».

حسنًا، اتهمت بذلك وكأننى قد اقترفت ذنبًا، ولاسيما عندما كنت صغيرًا فى السن، اعتدت القول إن علبة ألوانى لا يوجد بها سوى لونين اثنين الأبيض والأسود، وأعتقد أننى أحب علوم الكمبيوتر لهذا السبب، حيث معظم الأشياء الموجودة فيها لا تحتمل سوى الصحة أو الخطأ.

ومع ذلك، فقد تعلمت مع تقدمى فى السن بأن أعترف بأن أى علبة ألوان جيدة هى التى تحمل أكثر من لونين، ولكن مازلت أعتقد أن من يريد أن يدير شئون حياته بطريقة صحيحة لابد له أولًا من أن يجرب فى حياته اللونين الأبيض والأسود قبل الألوان الأخرى.

فعلى أية حال وبغض النظر عن ماهية اللون فأنا أحب الألوان.

فى محاضرتى الأخيرة، أحضرت معى مئات من الألوان، وأردت أن يحصل كل فرد على واحد منها عند دخولهم قاعة المحاضرة، ولكن فى ظل الاضطراب الذى كنت أمر به قبل إلقاء المحاضرة، نسيت أن أطلب من الحرس الموجود على الباب السماح بدخولها، إنه لأمر سيئ، فقد كنت أنوى الآتى: أثناء حديثى عن أحلام الطفولة، أسأل جميع الحاضرين أن يغمضوا أعينهم ويلونوا أصابعهم بما معهم من ألوان - ليشعروا بمزيج الألوان والشمع. ثم أطلب منهم أن يرفعوا ألوانهم حتى تبلع أنوفهم فيأخذون نفساً طويلاً يستنشقون خلاله رائحة الألوان فتذكرهم بأيام الصبا، أليس كذلك؟

لقد شاهدت زميلة لى ذات مره وهى تقوم بعمل شبيه بهذا مع مجموعة من الأشخاص، وأعجبنى هذا المشهد كثيرًا، وفى الحقيقة، قمت منذ هذا الوقت بحمل قلم ألوان فى جيب قميصى، أضعه تحت أنفى وأشم رائحته كلما شعرت بحنينى للماضى.

أتحيز للونين الأبيض والأسود، وهذا هو ذوقى، لكن أى لون آخر له نفس الفاعلية، فقط استنشقه وسترى مفعوله.

الفصل الخمسون
ملاحة تساوى 100000 دولار

قام أبى وأمى باصطحابى أنا وأختى إلى عالم ديزنى فى أورلاندو كنت فى الثانية عشرة من عمرى حينها بينما كانت أختى فى الرابعة عشرة، وتركانا نتجول بمفردنا فى المكان اعتقادًا منهما أن عمرينا يسمحان بالتجول دون مراقبة منهما، وفى تلك الآونة، حيث لم يكن هناك وجود للهواتف المحمولة، نصحنا أبى وأمى بأن نحترس لأنفسنا وأن نحدد مكانًا نتقابل فيه معًا بعد 19 دقيقة، ثم تركانا ننطلق أنا وأختى.

فكر فى هذه المتعة المثيرة، كنا فى أمتع الأماكن التى يمكن تخيلها على سطح الأرض نستمتع بالحرية فى استكشافه بأنفسنا، كنا ممتنين للغاية لوالدينا لاصطحابهما لنا إلى هذا المكان، ولإدراكهما أننا قد بلغنا من العمر مبلغًا نستطيع معه أن نتجول فى المكان بنفسينا، لذا قررنا أن نشكرهما بتقديم هدية لهما نشتريها من مصروف جيبنا.

لذا اتجهنا إلى متجر ووجدنا هناك أفضل ما يمكن تقديمه كهدية، وهى عبارة عن ملاحة تتخذ شكل دبين معلقين على إحدى الأشجار، ابتعناها بـ 10دولارات ثم أسرعنا بالخروج من المتجر لنعبر الشارع الرئيسى بحثًا عن المتعة القادمة.

كانت الهدية معى أحملها فى يدى فسقطت من يدىَّ فجأة فى مشهد يصعب تصوره، انكسرت إثر سقوطها فاغرورقت عيوننا أنا وأختى بالدموع.

شاهد شاب كبير كان فى المنتزه هذا الموقف فتوجه إلينا وقدم لنا اقتراحًا قائلًا: "عودوا بها إلى المتجر، فأنا على يقين من أنه سيعوضكم بأخرى".

فاجبته قائلاً: "لا أستطيع القيام بهذا، إنه خطئى أنا، فأنا من سقطت من يديه، لماذا إذن ينبغى على المتجر أن يعوضنا بأخرى؟".

فرد الشاب قائلًا: "فقط عليك بالمحاولة فلن تخسر شيئًا".

وعدنا بالفعل إلى المتجر ... وشرحنا له ما حدث دون كذب، واستمع العاملون فى المتجر إلى قصتنا وابتسموا لنا ... وأخبرونا بأنه لا مانع من أن نحصل على أخرى

جديدة، بل قالوا لنا إنهم هم المخطئون لأنهم لم يحكموا تغليفها، كانت رسالتهم لنا مفادها: "يجب أن يكون منتجنا قادرًا على تحمل السقوط من يد طفل فى الثانية عشرة من عمره تنتابه نشوة لا توصف بسبب امتلاكه هذا المنتج".

اندهشت من تصرف الموظفين، فلم أكن ممتنًا لهم فقط بل لم أصدق ما حدث، وانطلقت أنا وأختى ونحن فى قمة السعادة.

علم والدى ووالدتى بهذا الأمر، فزاد من إعجابهما وتقديرهما لعالم ديزنى، ففى الحقيقة هذا القرار الذى اتخذه موظفو خدمة العملاء فى المتجر بتحمل تكلفة 10 دولارات ثمن الهدية التى كسرتها، كانت نتيجته جلب أكثر من 100000 دولار إلى مؤسسة ديزنى.

دعونى أوضح لكم كيف هذا.

بعد مرور عدة سنوات على حدوث هذا الموقف، وبعدما أصبحت مستشارًا ا بمؤسسة ديزنى للابتكارات، كنت أتحدث أحيانًا بكل تقدير وإشادة عن سلسلة القرارات التى تتخذها المؤسسة، وأينما فعلت ذلك كنت أتحدث مع الجميع عن تلك الحادثة.

كنت أشرح لهم كيف ترك العاملون فى المتجر أثرًا طيبًا فى نفسى أنا وأختى عن مؤسسة ديزنى، وكيف أدى هذا إلى إشادة والدى ووالدتى بهذه المؤسسة على جميع المستويات.

وقد أدرجوا ضمن خطة عملهم التطوعى القيام بزيارات إلى عالم ديزنى، حيث كان لديهم حافلة تتسع لاثنين وعشرين راكبًا استعانوا بها فى نقل الطلاب الذين كانوا يشرفون على تعليمهم للغة الإنجليزية كلغة ثانية من ماريلاند إلى ملاهى والت ديزنى، وعلى مدار أكثر من عشرين سنة استمر أبى فى جلب عشرات التذاكر وتقديمها للأطفال من أجل زيارة عالم ديزنى، ولقد ذهبت فى معظم هذه الرحلات.

أهم مافى الموضوع، أنه منذ هذا الوقت أنفقت والدتى أكثر من مائة ألف دولار ذهبت جميعها لمؤسسة ديزنى، حيث تمثلت هذه الأموال فى شكل تذاكر لزيارة عالم والت ديزنى وأطعمة وهدايا لنا وللآخرين.

وعندما أحكى هذه القصة اليوم لمديرى المؤسسة، أنتهى بطرح هذا السؤال عليهم: "لو أرسلت ولدًا اليوم إلى أحد متاجركم ومعه ملاحة مكسورة، هل سيكون فى سياستكم من الرفق ما يسمح لموظفيكم باستبدالها بأخرى؟".

فيشعر المدراء بحرج من جراء طرحى عليهم لهذا السؤال، فالإجابة معروفة، ربما لا.

والسبب فى ذلك أن نظام محاسبتهم عاجز عن أن يستوعب أن تحمل تكلفة بمقدار 10 دولارات فقط قد تجلب للمؤسسة فى المقابل 100000 دولار، لذا من السهل الآن القول بأن أطفال اليوم تعساء الحظ، حيث قد يخرج أحدهم من أحد المتاجر وهو خاوى الوفاض.

وتلك هى رسالتى: هناك أكثر من طريقة لقياس الربح والخسارة، فيجب أن تتحلى المؤسسات باللين على جميع الأصعدة.

مازالت والدتى تحتفظ بهذه الملاحة التى تقدر بـ 100000 دولار، فيوم أن استبدلها لنا موظفو المتجر بمؤسسة والت ديزنى كان يومًا سعيدًا علينا وعليهم.

الفصل الحادي والخمسون
لايوجد عمل دنىء

لاشك فى أنه ثابت عن شباب اليوم نظرتهم المتزايدة لمكانة العمل المقبلين عليه، وقد رأيت ذلك بنفسى فى فصولى الدراسية.

فالعديد من الخريجين اليوم يعتقدون أنه يجب الاستعانة بهم فى العمل بسبب مهاراتهم الإبداعية الخلاقة، والعديد نجده حزينا بسبب فكرة البداية من الصفر فى العمل.

وتلك كانت نصيحتى دومًا : "ينبغى أن تكون سعيدًا عندما تحصل على وظيفة فى البريد، بل عند حصولك عليها فعليك أن تكون بارعًا فى فرز خطابات البريد".

لا يرغب أحد فى أن يسمع آخر يقول: "لست بارعًا فى فرز خطابات البريد، فتلك وظيفة أقل من مستواى". اعلم أنه لا يوجد هناك وظيفة دنيئة، بل أخبرنى إذا لم تكن تستطيع (أو لاتريد) فرز خطابت البريد، فأين الدليل على قدرتك على عمل أى شىء آخر؟

بعد أن استعانت الشركات بطلابنا لتوظيفهم فى أول تجربة لهم، سألنا الشركات لتعطينا تغذية مرتدة عن كيفية أدائهم، لم يشكك رؤساؤهم فى قدراتهم مطلقًا وإنما قالوا إنهم كانوا يشعرون بالتعالى وبالمبالغة فى قدراتهم أكثر من اللازم، وإنهم كانوا يتطلعون إلى المناصب العليا.

عندما كنت فى الخامسة عشرة من عمرى، كنت أعمل فى بستان فراولة، ومعظم رفقائى فى العمل كانوا من العاملين، كان من بينهم أستاذان أيضًا عملا من أجل كسب المزيد من المال فى فترة الصيف، وتحدثت لوالدى معلقًا على وضع هذين الأستاذين وقلت له إن هذه الوظيفة وضيعة بالنسبة لهما (وكنت أعتقد أنها وضيعة بالنسبة لى أيضًا) فتحدث إلى أبى بتعصب لا أتذكر أنه تحدث معى بمثله طوال حياتى، حيث كان يعتقد أبى أن العمل اليدوى لايعلوه شىء، وقال لى إنه يفضل رؤيتى وأنا أعمل بجد فى حفر القنوات على أن أقبع خلف مقعد فى الفصل وأنا أتباهى بنفسى أشد

المباهاة.

عاودت العمل فى البستان على مضض، ولكنى استمعت لنصيحة والدى وانعكس ذلك على عملى فى البستان، حيث بذلت مزيدًا من الجهد.

الفصل الثاني والخمسون
اعلم فى أى الأماكن أنت

حسنًا أيها الأستاذ الصغير، ماذا تستطيع أن تقدم لنا؟

كانت تلك هى تحية الترحيب التى تلقيتها فور وصولى للعمل فى مؤسسة ديزنى من "إم. كيه. هالى" وهو مبتكر يبلغ من العمر 27 عامًا تولى مسئولية الإشراف علىَّ خلال فترة انتدابى فى المؤسسة.

جميع خبراتى وانجازاتى الأكاديمية لم تساو شيئًا فى هذا المكان، صرت وكأنى غريب فى بلد أجنبى عليه أن يجد لنفسه عملة هذا البلد - سريعًا!

حدثت طلابى على مدار السنين عن هذه التجربة، التى كانت تمثل درسًا مهمًا لى فى حياتى.

فعلى الرغم من أننى حققت حلم طفولتى وأصبحت مبتكرًا، إلا أننى نزلت من أعلى مراتب العلم الأكاديمى إلى أسفل دركات بيئة العمل الحقيقى، حاولت أن أجعل أساليبى وطرقى النمطية الثابتة تتلاءم مع هذه البيئة الإبداعية.

عملت أولًا فى الواقع الافتراضى الخاص بعلاء الدين ثم بعد ذلك تم اختبارى فى ايبكوت، وانضممت إلى بعض المبتكرين الذين كانوا يحاورون الضيوف بشأن معرفة آرائهم فى ألعاب الملاهى، هل يشعرون بدوار، تشوش فى الرؤية أم بغثيان؟

كان بعض من زملائى فى العمل يشتكون من تطبيقى للنظريات الأكاديمية والتى لايتناسب تطبيقها فى عالم العمل الحقيقى، حيث قالوا إننى كنت أركز أيضًا على تحليل البيانات وأتعامل مع الأشياء بطريقة علمية لا بإحساسى العاطفى، كان هناك تضارب شديد بين عملى الأكاديمى وبين عالمهم الملىء بأنواع الترفيه والتسلية، وعلى الرغم من ذلك، استطعت أخيرًا أن أحصل على الإشادة من بعض المبتكرين الذين شككوا فى قدراتى، وذلك بعد أن وجدت طريقة استطعت من خلالها أن أوفر 20 دقيقة لكل ضيف من خلال إدخالهم بطرق مختلفة.

إن السبب وراء حديثى الدائم عن هذه القصة لطلابى هو التأكيد على ضرورة

التحلى بالحساسية عند الانتقال من العمل فى ثقافة معينة للعمل فى ثقافة أخرى - وضرورة هذا الانتقال بالنسبة لهم تتمثل فى الخروج من ثقافة التعليم فى الجامعة والتحاقهم بالعمل فى أول تجربة لهم.

ولقد انتهى بى الأمر فى نهاية فترة انتدابى أن عرض علىَّ العمل فى المؤسسة بشكل دائم، ولكنى رفضت هذا العرض وقلبى يتمزق، حيث كان على أن ألبى نداء التدريس الذى جذبنى إليه بقوة، ولكن بما أننى أصبحت قادرًا على التوفيق بين العمل الأكاديمى وصناعة الترفيه، وجدت مؤسسة ديزنى طريقة لكى أبقى معها فعملت كمستشار للأعمال الابتكارية؛ حيث كنت أذهب مرة واحده فقط فى الأسبوع، وقد سعدت بهذا العمل على مدار عشر سنوات.

لو استطعت أن توفق بين العمل فى ظل ثقافة وأخرى، فستحظى أحيانًا بأفضل ما فى الثقافتين.

الفصل الثالث والخمسون
أبدًا لا تستسلم

فى آخر سنواتى الدراسية من التعليم الثانوى، تقدمت للالتحاق بجامعة براون ولم يحالفنى الحظ، حيث أدرج اسمى على قائمة الانتظار، فما كان منى إلا أن داومت الاتصال بمكتب القبول حتى قرروا قبولى أخيرًا، حيث وجدونى ألح عليهم بصورة شديدة، فبالإصرار والتصميم اجتزت هذه العقبة.

وعندما جاء وقت تخرجى فى جامعة براون، تذكرت أنه لم يخطر ببالى مطلقًا أننى سألتحق يومًا ما بالسلك الجامعى، فعادة أفراد عائلتى كانت تتمثل فى الحصول على التعليم الأساسى وبعدها الالتحاق بإحدى الوظائف، فلم يواصل أحد منهم تعليمه العالى.

أما آندى فان دام "العم الهولندى" وناصحى فى جامعة براون فنصحنى قائلًا: "واصل تعليمك واحصل على درجة الدكتوراه وكن أستاذًا جامعيًا".

فسألته قائلاً: "هل ذلك واجب علىَّ؟".

فأجابنى قائلاً: "نعم، لأنك تمامًا كالبائع الماهر، ولو ذهبت للعمل فى إحدى الشركات فستتعامل معك على هذا الأساس وما دام الأمر كذلك فلابد من أن تبيع ما هو أهل للبيع وليس هناك أفضل من التعليم".

كانت هذه النصيحة بمثابة جميل سأحمله لـ آندى طيلة عمرى.

دلنى آندى على التقدم للالتحاق بجامعة كارنيجى ميلون، حيث كانت المقصد الذى نصح به آندى أفضل طلابه للتوجه إليه، ومع هذا لم تقبل تلك الجامعة انضمامى لها، فتوجهت إلى مكتب آندى وألقيت على مكتبه خطاب الرفض قائلاً له: "أود أن تعلم أن جامعة كارنيجى ميلون تقدر توصياتك كثيراً".

وما هى إلا ثوانٍ ورأيت آندى يرفع سماعة الهاتف ويقول لى: "سأصلح هذا الأمر، وستلتحق بتلك الجامعة".

ولكنى اعترضته قائلًا: "لا أرغب فى أن يكون انضمامى لهذه الجامعة على هذا

النحو".

واتفقت معه على أن أعيد النظر فى تلك الجامعات التى وافقت على انضمامى بها، وإن لم أشعر بالراحة فى أى منها، فسأعود إليه لنرى ما سيكون.

فقال لى: "لا، لا، لا، لا بد من أن تحصل على درجة الدكتوراه ولابد أن يكون حصولك عليها من كارنيجى ميلون".

والتقط سماعة الهاتف واتصل بـ نيكو هابيرمان، رئيس قسم علوم الكمبيوتر بجامعة كارنيجى ميلون وقد كان هولندى هو الآخر، فتحدثا بشأنى معًا باللغة الهولندية لحين من الوقت ثم توقف آندى عن الحديث وقال لى: "اتجه إلى مكتبه فى الثامنة من صباح الغد".

والآن جاء وقت المقابلة: هاهو رجل من الطراز التعليمى القديم والنظام الأكاديمى الأوروبى، كان من الواضح جدًا أنه قبل لقائى خدمة لصديقه آندى، وسألنى لماذا يتعين عليه أن يعيد النظر فى طلبى مادام أن القسم قد قيمه بالفعل، فأجبته بكل حرص قائلًا: "منذ أن تم تقييم طلبى، حصلت على زمالة كاملة من مكتب البحث البحرى". فرد علىَّ بنبرة حادة قائلاً: "ليس المال معيارًا من معايير القبول عندنا، فنحن ننفق على طلابنا مما تجلبه لنا أبحاثهم من أموال". وبعد أن قال مقولته حملق فى وجهى وبعبارة أدق دار ببصره يحملق فى جميع جسمى.

هناك لحظات قليلة ولكنها رئيسية فى حياة المرء لا ينساها مطلقًا، ولكم هو محظوظ من أن تواتيه الفرصة للحديث عن تلك اللحظات والفائدة التى عادت عليه منها، ولقد كانت تلك المقابلة إحدى تلك اللحظات، وعلى الرغم مما كنت أوصف به من غرور وأنفة وتباهٍ بالنفس فقد قدمت اعتذارى لـ نيكو قائلًا: "أنا آسف، لم أقصد أن يكون حديثى عن المال، ولكننى فقط أردت أن أشير إلى أننى من بين الخمسة عشر طالبًا الذين منحوا زمالة هذه الكلية، ورأيت أن هذا أمر وثيق الصلة بالموضوع لابد من ذكره، ولكنى أعتذر لو كان هذا اجتراء منى".

لم يحضر إلى ذهنى وقتها سوى هذه الإجابة، ولكنها كانت الحقيقة، بدأ وجهه المتجهم يصفو شيئًا فشيئًا وطال حديثنا لعدة دقائق أخرى.

وأخيراً وبعد أن قمت بمقابلات فى العديد من الجامعات الأخرى، انتهى بى الأمر فى كارنيجى ميلون، وحصلت على درجة الدكتوراه منها، لقد كان حائطًا أسمنتياً تخطيته بنجاح بفضل ما حصلت عليه من دعم قوى من نصحائى ومخلصىَّ الأوفياء.

لم أفصح لطلابى ولا لزملائى فى جامعة كارنيجى ميلون بأنه قد سبق لى ورفض طلب التحاقى بهذه الجامعة، وقد ظل هذا سرًا حتى وقت صعودى على خشبة

المسرح لإلقاء محاضرتى الأخيرة، فما الذى كنت أخشاه إذن من إفصاحى عن هذه الواقعه؟ هل لأنهم كانوا سيعتقدون قلة ذكائى التى لم تؤهلنى للالتحاق بها؟ أم لأنه كان من الممكن أن يفتقد تعاملى معهم إلى الهيبة اللازمة؟

إنه لأمر ممتع حقًا أن تقرر الإفصاح عن سر طالما حافظت عليه فى بئر الكتمان، فى نهاية حياتك.

كان يجب علىَّ أن أتحدث عن هذه الواقعة من سنين طويلة، حيث تلك هى العبرة منها: إذا ما رغبت فى أن تحصل على شىء يتعذر الوصول إليه، فلا تستسلم (ولا ترفض من يقدم لك يد المساعدة).

قلنا إن الحوائط الأسمنتية لا تعترض حياة المرء إلا لسبب وجيه، وبمجرد أن تتجاوزها - حتى لو اضطر شخص أن يلقي بك من عليها - فسيكون من صالح الآخرين أن تخبرهم عن الآلية التى اتبعتها لتجاوز هذه الحوائط .

الفصل الرابع والخمسون
اعمل لصالح المجتمع

نولى أهمية كبيرة فى بلدنا اليوم للحديث عن حقوق الإنسان، وذاك أمر لابد منه ولكن ما من فائدة لو تحدثنا عن حقوقه دون التحدث عن مسئولياته.

لابد أن يكون للحقوق منبع، وهذا المنبع متمثل فى المجتمع، فهو الذى يمنحك حقوقك، وفى المقابل جميعنا لديه مسئولية تجاه المجتمع، بعض الأشخاص يطلقون على هذا الوضع بـ "الحركة المجتمعية" ولكنى أسميها "الفطرة السليمة".

كنت أطلب من الطلاب عند بداية كل فصل دراسى أن يوقعوا اتفاقية يعلمون من خلالها حدود مسئولياتهم ويقفون على مالهم من حقوق، فكان من بين مسئولياتهم العمل فى جماعات مع بعضهم البعض على نحو تكاملى، وحضور اجتماعات معينة ومساعدة أقرانهم من الطلاب من خلال أن يصدقوا معهم القول فيما يعطونه لهم من تغذية مرتدة، وفى المقابل كان لهم الحق فى الحضور إلى الفصل الدراسى, وان يتم فحص وتحليل عملهم وعرضه.

اعترض بعض الطلاب على هذه الاتفاقية، وأعتقد أن السبب يتمثل فى أننا - نحن الكبار - دائمًا لا نضرب الأسوة الحسنة فيما يتعلق بخدمة المجتمع، على سبيل المثال: جميعنا يرى أن من حقه أن يكون قاضياً بإحدى المحاكم على الرغم من أننا ننتهك القانون الذى نريد تمثيله.

كل ما أردت أن يعلمه طلابى هو أن علينا جميعًا العمل فى خدمة الصالح العام وألا يتم وصفنا بالأنانية.

لقد ضرب لنا أبى أمثلة تعلمنا من خلالها هذه الفكرة، واستعان كذلك برواية القصص كوسيلة لتوصيل هذه الفكرة للآخرين، وخير دليل على ذلك ما فعله وهو فى سن مبكرة عندما كان مفوضًا عن دورى كرة البيسبول للناشئين.

فقد واجه مشكلة فى جمع حكام متطوعين لدورى كرة البيسبول للناشئين، حيث كان عملًا لا يلقى صاحبه ثناء، حيث ما من قرار يتخذه الحكم فى الملعب إلا ويعترض

عليه بعض الأطفال أو الآباء ويعتقدون عدم صحته، كما أنها وظيفة تدعو إلى الخوف أيضًا: حيث قد تتعرض للقذف بمضرب أو كرة البيسبول بواسطة أطفال فقدوا التحكم فى أعصابهم.

وعلى أية حال، واتت أبى فكرة، بدلًا من بحثه عن متطوعين للعمل كحكام، يمكنه أن يستعين بناشئين يلعبون فى مرحلة أكبر سنًا للعمل كحكام فى دورى الناشئين الصغار، وقد كان شرفًا لمن يتم اختياره حكمًا.

وقد نتج عن ذلك ما يأتى.

أدرك الأطفال الأكبر سنًا الذين تم اختيارهم مدى صعوبة عمل الحكم، ومن ثم قل احتكاكهم واعتراضهم على الحكام بعد ذلك، كما شعروا بالسعادة لتقديمهم يد العون لأطفال يلعبون فى مرحلة سنية تصغرهم، وفى الوقت ذاته رأى هؤلاء الصغار فى الأطفال المتطوعين الذين يكبرونهم سنًا قدوة حسنة.

لقد وضع أبى مفهومًا جديدًا للعمل الاجتماعى، حيث أدرك أن الشعور بالترابط يدفع نحو الأفضل.

الفصل الخامس والخمسون
ما عليك إلا السؤال

فى آخر رحلة جمعت بينى وبين والدى إلى عالم ديزنى اصطحبت معى ابنى ديلان البالغ من العمر وقتها أربع سنوات، جميعنا كان فى انتظار وصول قطار الملاهى الطواف، وتملكت ديلان رغبة شديدة بالجلوس فى أجمل عربات القطار بجوار السائق، واعتقد أبى العاشق لملاهى والت ديزنى أنه سيجد فى ذلك متعة كبيرة جداً.

ولكنه قال لى: "إن الأمر مؤسف للغاية، فهم لا يسمحون للأشخاص العاديين بالجلوس فى تلك العربة".

فقلت لأبى: "امممممم، فى الواقع يا أبى بما أننى مبتكر فأنا أعتقد أن هناك خدعة فيما يتعلق بالجلوس فى العربة الأولى، هل تريد معرفتها؟".

فقال لى: "نعم بالتأكيد".

لذا توجهت إلى المرافق ذى الوجه البشوش والمسئول عن توعية الزائرين بشأن قطار الملاهى وسألته قائلاً: "معذرة، هل يمكن أن يجلس ثلاثتنا فى العربة الأولى؟".

فأجابنى: "بكل تأكيد ياسيدى". وقام ففتح الباب وأخذ كل منا موضعه بجوار السائق، كانت واحدة من اللحظات التى ما رأيت أبى فى حالة اندهاش مثلها طوال حياتى، فقلت له والقطار يطوف بنا حول عالم ديزنى السحرى: "ألم أقل لك إن هناك خدعة، لكنى لم اقل إنها خدعة كبيرة".

أحيانًا يكون كل ما عليك فقط هو السؤال.

فأنا أمتاز إلى حد ما بالسؤال عما لا أعرفه من أشياء، وإنه لينتابنى شعور بالفخر كلما تذكرت وقت أن استجمعت شجاعتى واتصلت بفريد بروووكس، أحد أبرز أعلام المتخصصين فى مجال الكمبيوتر فى العالم أجمع، فبعد أن بدأ مشوار حياته العلمية بالعمل فى شركة IBM فى فترة الخمسينات، عمل بعدها فى قسم علوم الكمبيوتر بجامعة نورث كارولينا، وهو شهير فى مجال عملنا بمقولته التى تأتى بين كثير من مقولاته العظيمة: "إن تشغيل القوى العاملة فى أحد مشاريع البرمجيات الحديثة لن

يسهم فى تقدمه بل تأخره". (وهذه المقولة مشهورة الآن بـ "قانون بروكس")

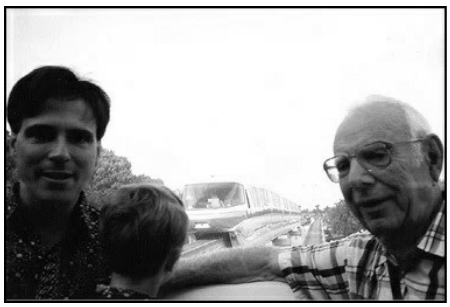

كل ما كان علينا فعله هو أن نطرح الأسئلة.

كنت فى أواخر العشرينات من عمرى ومازلت لم أحظ بشرف مقابلة هذا الرجل، لذا راسلته بريديًا اسأله قائلاً: "هل لو أتيت من مكانى هنا بفرجينيا إلى نورث كارولينا، حيث مكان وجودك، ستسمح لى بالحديث معك مدة ثلاثين دقيقة؟".

فأجابنى قائلاً: "لو قطعت كل هذه المسافة فى سبيل مقابلتى، فسأمنحك من الوقت ما يزيد على طلبك".

وبالفعل منحنى تسعين دقيقة وأصبح ناصحاً لى على أمد الدهر، وبعدها بسنوات دعانى لإلقاء محاضرة بجامعة نورث كارولينا، وشهدت هذه الزيارة اللحظة التاريخية الفارقة فى حياتى - حيث قابلت جاى هناك.

فأحيانًا، يكون كل ما يتعين عليك فعله هو السؤال، الذى قد يقودك إلى تحقيق أحلامك.

وفى هذه الآونة التى أعيشها الآن وفى ضوء ما تبقى لى فى الحياة من أيام معدودة، ازداد سؤالى عن الأشياء، فكما نعرف جميعًا، غالبا ما تستغرق معرفة النتائج الطبية بضعة أيام، وأنا لا أرغب فى أن أقضى ماتبقى لى من أيام فى انتظار معرفة النتائج الطبية لذا دائمًا ما أسأل قائلًا: "ما أسرع الطرق التى أستطيع من خلالها الحصول على هذه النتائج؟".

فتكون الإجابة: "أوه، فى غضون ساعة واحدة سنطلعك على النتائج".

فأقول: "حسنًا إذن، إننى سعيد لأننى سألت".

توجه بطرح الأسئلة، ما عليك فقط إلا السؤال، ففى غالب المرات ستحظى بإجابة ما كنت تتوقعها, بالتأكيد.

الفصل السادس والخمسون
حدد: سعيد أنت أم حزين

عندما أخبرت رئيس جامعة كارنيجى ميلون، جاريد كوهون، عن إلقائى لهذه المحاضرة الأخيرة قال لى: "من فضلك تحدث عن روح المرح التى تمتلكها، فروح المرح هذه هى التى ستذكرنى بك".

فاجبته قائلًا: "قد أفعل هذا، ولكنه سيكون كحديث السمكة عن أهمية الماء".

أعنى أنها عادة لى، فأنا لا أستطيع الحياة دون روح الدعابة، فأنا مقبل على الموت ولازالت هذه الروح تغمرنى، فما من يوم مضى إلا وشعرت فيه بروح المرح، وذلك لأن تلك هى الطريقة الوحيدة لقضاء اليوم.

وقد أدركت ذلك مبكراً فى حياتى، فكما أرى، هناك سؤال يجب أن نضع له إجابة جميعًا، هذا السؤال يمكن أن نلتمسه من شخصيات وينى ذا بوو winnie the pooh والتى ابتكرها "إيه.إيه ميلون"، فالجميع يجب أن يحدد: هل هو نمر محب لروح المرح؟ أم ضبع مطرود حزين؟ عليك أن تقرر، وأعتقد أن قرارى واضح بشأن هذه المسألة.

ففى ليلة الواحد والثلاثين من أكتوبر الماضى، قضيت وقتًا ممتعًا للغاية، فقد ارتديت أنا وجاى ملابس غير معقولة وكذلك أولادنا، ووضعت لنا صورة على موقعى ونحن على هذه الهيئة ليرى الجميع كيف كانت أسرتنا تفعل أشياء "غير معقولة"، كان الأطفال أشبه بسوبر مان، أما أنا فشعرت مع عضلاتى المزيفة التى ارتديتها بأننى أقوى إنسان فى الوجود، وكتب تحت هذه الصورة أن العلاج الكيماوى لم ينل من قواى الخارقة فتلقيت فى المقابل العديد من الردود المرحة.

وقد ذهبت مؤخراً فى رحلة قصيرة مع ثلاثة من أفضل أصدقائى لممارسة هواية الغطس تحت الماء معًا وكان أصدقائى هم: جاك شريف صديق الثانوية وزميلى فى الغرفة أثناء الكلية سكوت شيرمان وستيف بولت صديقى فى شركة "إلكترونيك أرت"، وجميعنا كان على دراية ضمنية بالهدف من وراء هذه الرحلة، فهاهم

أصدقائى من مختلف المراحل التى مررت بها فى حياتى وقد اجتمعوا معًا ليلقوا على سلام الوداع.

وعلى الرغم من أن ثلاثتهم لم يكونوا على معرفة جيدة ببعضهم البعض، إلا أنهم سرعان ما انسجموا معًا، فقد كنا جميعًا فى مراحل سنية متقدمة ولكن معظم فترات تلك الرحلة بدا وكأننا مازلنا فى الثلاثينات من عمرنا، فجميعنا قرر أن يكون نمراً محباً للمرح.

وقد استطعنا أن ننأى بأنفسنا عن الانخراط فى حديث يتعلق بإصابتى لمرض السرطان تعلوه نبرة العاطفة يشتمل على عبارات من قبيل: "نحن نحبك يا راندى", وبدلًا من ذلك، سادت الرحلة أجواء المرح، ورجعنا بأذهاننا إلى الوراء نستمتع بتذكرنا لما قضيناه من أوقات ممتعة ورحنا يداعب بعضنا الآخر ونتقاسم الضحكات على بعضنا البعض. (فى الواقع، جاءت معظم هذه الضحكات من زملائى علىّ أنا بسبب سمعتى التى حظيت بها "اس. تى. راندى بوتش" والتى زالت عنى منذ إلقائى لمحاضرتى الأخيرة، فهم يعرفوننى، ولم يحظ أى منهم بمثل هذه السمعة).

لا أريد أن أتخلى عن روح المرح التى توجد بداخلى، فأنا لا أستطيع أن أرى وجهًا إيجابيًا لأن أكون حزينًا، وقد سألنى أحدهم ذات مرة: "ماذا تتمنى أن يكتب على شاهد قبرك؟". فأجبته قائلاً: "راندى بوتش: عاش ثلاثين عاماً بعد أن تم تشخيصه

بالإصابة بمرض مميت".

أعدكم، بأنه لو كتب لى الحياة مدة ثلاثين عامًا متبقية فسأحيا معظم فتراتها فى أجواء من المرح والمتعة، وإن لم يكتب لى نصيب فى ذلك، فسألتمس المرح فيما قدر لى أن أحياه.

الفصل السابع والخمسون
طريقة لفهم التفاؤل

بعد أن علمت بإصابتى بالسرطان، أسدى إلى أحد أطبائى نصيحة قائلا: «من المهم أن تتصرف وكأن حياتك تسير على طبيعتها».

وقد كنت كذلك.

فقلت له: «دكتور, لقد اشتريت سيارة جديدة ذات غطاء قابل للطى، وذلك بعد أن قمت بإجراء عملية جراحية استأصلت خلالها القناة المنوية من الخصية، أتريد منى أكثر من ذلك؟».

انظر، لست فى معزل عن الحقيقة، فأنا على دراية تامة بما سيئول إليه أمرى، فسواء كنت سأعيش أم سأموت فالأمر بالنسبة لى سواء، ولكن فى الوقت ذاته، فأنا أعيش حياتى الآن بصورة طبيعية جداً لأننى لازلت حياً فعلاً.

بعض عيادات أخصائى الأورام يحددون مواعيد لرؤية مرضاهم بعد ستة شهور، الأمر الذى يعتقد معه المرضى بأنه إشارة تدعوا للتفاؤل حيث يتوقع الأطباء بأنهم سيعيشون مدة ستة شهور قادمة، وهناك مرضى بأمراض مميتة ينظرون إلى مواعيد زيارة الأطباء ويقولون لأنفسهم: «سأعيش حتى موعد مقابلة الطبيب وعند ذهابى له سأجد لديه أنباء سارة».

يقول «هيربيت زى»، طبيبى الجراح بمدينة بيتسبرج إنه يشعر بالقلق من المرضى الذين ينتابهم شعور مغلوط بالتفاؤل فيبالغون فيه على حساب الواقع أو لا يتم إخبارهم بالحقيقة، وقى الوقت ذاته، لا يسعد كذلك عندما يجد أصدقاء المرضى ومن هم على معرفة سطحية بهم يخبرونهم بأنهم ينبغى عليهم التفاؤل وإلا لن يؤتى العلاج بثماره، كما أنه يتألم عندما يرى من يعانون مشاكل صحية خطيرة وهم يعزون حالتهم إلى عدم تحليهم بالتفاؤل بما فيه الكفاية.

وبالنسبة لتجربتى الشخصية مع التفاؤل، فهو بالنسبة لى بمثابة حالة ذهنية تمكنك من أداء أشياء ملموسة تساعدك على تحسين حالتك البدنية، فلو تحليت بالتفاؤل،

ستمتلك القدرة على تحمل العلاج الكيماوى الشديد، أو المثابرة على متابعة أحدث العلاجات الطبية الحديثة.

ويعتبرنى الدكتور هيربيت خير مثال على مايسميه بـ «التوازن الصحى بين التفاؤل والواقعية». فهو يرانى امرؤ يحاول أن يتقبل إصابته بمرض السرطان على أنها تجربة حياتية جديدة.

ولكنى أحب فى عملية استئصالى للقناة المنوية أنها كانت بمثابة تحديد للنسلل وفى نفس الوقت إشارة تدعو للتفاؤل بشأن مستقبلى، كما أننى أحب أيضا أن أستقل سيارتى ذات الغطاء القابل للطى وأطوف بها، أحب كذلك التفكير فى أننى قد أجد طريقة أستطيع من خلالها أن أكون واحداً من بين مليون شاب يستطيع أن يهزم السرطان فى مراحله المتقدمة، حتى لو لم أستطع أن أفعل ذلك، فالتفاؤل أفضل ما يساعدنى على اجتياز يومى

.

الفصل الثامن والخمسون
أنا والآخرون

منذ أن بدأت محاضرتى الأخيرة تنتشر على صفحات الإنترنت، وأنا أتلقى ردود أفعال من العديد من الأشخاص الذين عرفتهم على مدار سنوات عمرى - بداية من جيرانى أيام الطفولة وحتى الطابور الهائل من الأشخاص ممن أنا علىَّ معرفة سطحية بهم.

وإننى لممنون لكل ما طرحوه على من أفكار وما عبروا لى به من كلمات تفيض بمشاعر الحب والدفء.

أشعر بالسرور عند قراءتى للرسائل التى يكتبها لى طلابى وزملائى السابقون، فها هو أحد رفقائى فى العمل يكتب لى يذكرنى بنصيحة أسديتها له ذات مرة عندما كان أستاذًا فى الكلية لم يحصل بعد على وظيفة دائمة، قال إنه يتذكر عندما حذرته وطلبت منه أن ينتبه لجميع التعليقات التى تخرج عن رؤساء الأقسام (حيث يتذكرنى وأنا أقول له: "عندما يقترح أحد رؤساؤك فى العمل أنه قد يكون أولى بك فعل شىء ما، فيجب أن تتصور أن فى ذلك خيرًا لك")، وقد أرسل لى أحد طلابى السابقين رسالة بريدية يقول لى فيها إننى ألهمته لابتكار موقع جديد لتطوير الذات يسمى "اعرف قدراتك وعش حياتك وفقا لها"، وقد قام بتصميم هذا الموقع لمساعدة الأشخاص الذين لا يعرفون قدراتهم، وهذا يبدو مشابهاً لفلسفتى وإن اختلفت الكلمات.

ولكى تتضح جميع الزوايا أقول إن إحدى زميلاتى فى المدرسة الثانوية والتى كانت تتجاهل حبى لها، كتبت تتمنى لى وافر الصحة وذكرتنى لماذا لم أكن أسترعى انتباهها أيام الثانوية (لقد تزوجت من طبيب).

والأكثر أهمية، أن آلافاً ممن لا أعرفهم كتبوا لى أيضًا، وانتشت روحى من قراءتى لكلماتهم المفعمة بالأمل، كما كان هناك أيضًا العديد من النصائح المتفرقة التى قالها لى أزواج نجحوا فى التكيف مع مسألة الحياة والموت.

فتلك سيدة فقدت زوجها وهو فى الأربعين من عمره بسبب إصابته بسرطان البنكرياس، كتبت تقول لى أن "حديثه الأخير" كان موجها لفئة صغيرة، حيث اقتصر علىَّ أنا وأطفاله ووالديه وإخوته، فلقد شكرهم فى هذا الحديث على مساعدتهم وحبهم له، وذكرهم بالأماكن التى قضى فيها معهم أوقاتًا ممتعة، وأخبرهم بأكثر الأشياء التى حظيت بجل اهتمامه فى هذه الحياة، قالت لى هذه المرأة فى رسالتها إن حديثه معهم ساعدهم على تقبل الأمر عقب وفاة زوجها؛ حيث قالت: "فى ضوء ما أنا على معرفة به الآن، فسيحتاج زوجتك وأولادك إلى أن يتحدثوا ويصرخوا ويتذكروا".

سيدة أخرى، توفى زوجها جراء إصابته بورم فى المخ عندما كان لا يزال ابناه فى الثالثة والثامنة من عمرهما، قدمت لى رؤى أحملها إلى جاى زوجتى حيث قالت: "يمكنك أن تحيا لحظات لم تتخيليها، فأطفالك يا جاى سيكونون مصدر حب وراحة لك لا مثيل له، وسيكونون السبب فى استيقاظك كل صباح ووجهك تعلوه الابتسامة".

واستطردت فى رسالتها موجهة كلامها لزوجتى: "استعينى بالمساعدة التى قدمت لك وراندى على وجه الحياة لكى تعيشى معه فى سعادة، واستعينى كذلك بما سيقدم لك من مساعدة بعد مفارقته للحياة لكى تركزى على أهم الأمور، انضمى إلى أولئك الذين يعانون نفس معاناتك، فستشعرين معهم بالراحة أنت وأولادك". واقترحت هذه السيدة على جاى أن تطمئن الأولاد بأنهم سيعيشون حياة طبيعية عندما يكبرون، فسيأتى عليهم يوم يتخرجون فيه وسيتزوجون ويرزقون بالأولاد، وتلك هى كلماتها: "عندما يرحل أحد الأبوين فى مرحلة مبكرة من عمره، يعتقد بعض أطفاله أنهم لن يحصلوا على دورة حياة طبيعية".

وها هو رجل فى سن الأربعينات يعانى من مشاكل خطيرة فى القلب، كتب لى يحدثنى عن "كيشنامورا" أحد قادة الهند الروحانيين والذى توفى عام 1986، يقول ذلك الرجل إن كيشنامورا سئل ذات مرة: ما أنسب النصائح التى قد تسديها إلى صديق قد دنا منه الموت؟ فأجاب قائلًا: "أخبر صديقك أنه عندما يموت، سيموت أيضاً جزء منك أنت، وحيثما ذهب صديقك سيلازمه هذا الجزء، فطمئنه بأنه لن يكون وحيدًا فى موته"، وفى رسالته البريدية التى أرسلها لى، كان يعيد هذا الرجل طمأنتى بقوله: "اعلم أنك لست وحيدًا".

كما حركت مشاعرى كذلك تلك التعليقات والأمنيات الطيبة التى أرسلها لى أعلام من الشخصيات تفاعلوا معى عقب إلقائى للمحاضرة، على سبيل المثال، دعتنى ديان سوير - وهى مذيعة لنشرات الأخبار بالتلفاز - لمقابلة تليفزيونية، وبعد أن انتهت المقابلة حدثتنى منفردًا بحديث ساعدنى على أن أفكر بمزيد من الوضوح بشأن حجر

المحك الذى سأتركه لأطفالى، لقد أعطتنى نصيحة لن أنساها. كنت أعلم أننى قادم على أن أترك لأولادى خطابات وأشرطة فيديو، ولكنها أخبرتنى ان أهم شىء هو إخبارك لهم عن خصوصياتهم الدقيقة التى لاحظتها فيهم، ففكرت فى ذلك كثيرًا وقررت أن أخبر كل طفل من اطفالى بأشياء كقولى لأحدهم مثلًا: "أحبك وأنت تميل برأسك للوراء عندما تضحك". لذا قررت أن أخبرهم بمجموعة من الأشياء المميزة رأيتها فيهم".

كما ساعدتنى الطبيبة الاستشارية ريس أنا وجاى لإيجاد طرق نستطيع من خلالها أن ننأى بأنفسنا عن الوقوع فريسة لضغط الفحوصات الدورية لمرضى السرطان، لذا فأنا قادر الآن على أن أصب تركيزى على أفراد أسرتى أتحدث معهم بقلب مفتوح وبنظرة إيجابية للمستقبل وأوليهم جل اهتمامى، لقد قضيت وقتًا طويلًا من حياتى أشكك فى جدوى مشاركة أسرتى فى الحديث ومشاورتهم ولكنى الآن أقر صاغرًا بأن تلك الطريقة هى إحدى ما يمكن الاستعانة به، أتمنى أن أجوب الأقطار ألتقى مع مرضى الأورام الذين يحملون هذا العبء وحدهم ويكتمونه فى أنفسهم وأخبرهم بأن يشاركوا الآخرين فى الحديث عنه حتى يخففوا من وطأة المرض.

* * *

وقد كتب لى العديد من الأشخاص كذلك عبارات ترفع من روحى المعنوية، فأنا أقدر لهم ما كتبوه وأقدر لهم دعواتهم لى أيضًا.

لقد ولدت لأبوين اعتقدا فى أن مسألة الإيمان هذه مسألة بين المرء وربه، فأنا لم أتطرق فى حديثى فى المحاضرة الأخيرة عن معتقدى الإيمانى، وذلك لأننى أردت أن أتحدث عن الخطوط والمبادئ العريضة التى تشترك فيها كل المعتقدات - وهى الأشياء التى تعلمتها خلال علاقاتى مع الآخرين.

بعض هذه العلاقات بالطبع أقمتها من خلال حضورى إلى دار العبادة، على سبيل المثال، جاءتنى "إم. آر. كيليس" لزيارتى فى المستشفى إحدى عشرة مرة عقب إجرائى للجراحة، كما ساندنى رجل الدين مساندة كبيرة منذ أن ثبتت إصابتى بمرض السرطان، فكلانا يداوم على الذهاب إلى حمام سباحة واحد بمدينة بيتسبرج، واليوم الذى تلا معرفتى بأننى مصاب بسرطان مميت كنا متواجدين معًا بحمام السباحة، كان يجلس بجوار الحمام بينما كنت أنا أقف على لوح القفز حيث غمزت له بطرف عينى ثم قفزت فى حمام السباحة.

عندما اتجهت وأنا أسبح إلى جانب الحمام على مقربة منه قال لى: "يبدو أنك فى حالة صحية طيبة اليوم يا راندى". فأجبته قائلاً: "هذا هو الخداع البصرى، نعم أشعر

بحالة صحية جيدة وهو ما يدل عليه مظهرى أيضًا، ولكن علمت البارحة أن السرطان قد عاد إلى جسمى مجددًا وقال لى الأطباء أن مدة بقائى على قيد الحياة تتراوح ما بين ثلاثة إلى ستة أشهر".

وتجاذبنا أطراف الحديث معًا عن أفضل السبل التى أستعد من خلالها لحادث وفاتى.

قال لى: "لديك تأمين على الحياة، أليس كذلك".

فأجبته قائلًا: "نعم، وهو مستمر بالفعل".

فقال لى: "حسنًا، أنت فى حاجة كذلك إلى تأمين عاطفى، وأوضح لى أن أقساط هذا التأمين ستدفعها وقتًا لا مالًا".

وأوضح أننى فى حاجة إلى أن أقضى ساعات أقوم فيها بتسجيل أشرطة فيديو أظهر فيها مع أطفالى، لكى يروا فيما بعد كيف لعبنا مع بعضنا البعض وتقاسمنا الضحكات معًا، فبعد سنوات من الآن سيستطيع أولادى أن يروا كيف تفاعلنا وانسجمنا معًا بكل سهولة، كما قدم لى مقترحات تتعلق بفعل أشياء خاصة أتركها إرثا لـ جاى كتعبير عن حبى لها.

قال لى: "لو استطعت أن تقوم الآن بدفع ما عليك من أقساط التأمين العاطفى وذلك فى ضوء ما تشعر به من عافية فى بدنك، فإن ذلك سيخفف من حدة ما تتعرض له من ضغط فى الأشهر المقبلة، حيث ستشعر بمزيد من الراحة".

أصدقائى، أحبائى، يا جميع من راسلونى ممن لا أعرفهم، إننى أتلقى كل يوم رسائل من أناس يتمنون لى وافر الصحة ويرفعون من روحى المعنوية، حقًا لقد رأيت أناسًا من أفضل ما جادت به البشرية من نماذج، وأنا ممنون لهم جميعاً، إننى لم أشعر يومًا بأننى أمضى وحدى فى طريقى.

الجزء السادس
ملاحظات أخيرة

الفصل التاسع والخمسون
آمالى نحو أولادى

هناك أشياء عديدة أود أن أخبر بها أولادى، ولكنهم الآن لا يزالون فى طور الطفولة التى لا تؤهلهم لفهم ما سأقوله لهم، فـ ديلان قد أتم السادسة مؤخرًا ولوجان لا يزال فى الثالثة من عمره وكالوى لم تتجاوز الثمانية عشر شهرًا بعد، أريدهم أن يعلموا من أكون أنا، وما الذى آمنت به دومًا، وأريد أن أطلعهم على كل الوسائل التى اتبعتها تعبيرًا عن حبى لهم، ولكن فى ضوء مراحلهم السنية الحالية سيكون معظم حديثى عن هذه الأشياء فوق طاقة استيعابهم.

أتمنى أن يدرك أبنائى رغبتى الشديدة للغاية فى عدم رحيلى عنهم.

لم أخبرهم أنا ولا جاى بعد بأننى مقبل على الموت، فلقد تم نصحنا بأنه يجب علينا أن نتريث حتى تشتد بى مظاهر الإعياء، أما الآن، وعلى الرغم من أنه لم يبق أمامى سوى أشهر قليلة، إلا أننى أبدو معافى فى بدنى، ومازال أولادى غير مدركين بأن كل لقاء لى معهم بمثابة إلقائى لسلام الوداع عليهم.

إنه ليؤلمنى حقًا فكرة نشأتهم وتقدمهم فى المراحل السنية دون أن يكون معهم أب بجوارهم، فصرخاتى التى تنطلق منى وأنا أستحم ليست ناجمة عن تفكيرى بشأن "عدم رغبتى فى أن يفعلوا هذا" أو "عدم رغبتى فى ألا يفعلوا ذاك" بل ناجمة عن التفكير فى كيفية حياتهم من دونى، فبالى مشغول أيما انشغال بما سيفتقدونه هم لا ما سأفتقده أنا، نعم جزء من حزنى يتولد عندما أفكر بأننى: "لا أريد الرحيل عنهم، لا أريد لا أريد" ولكن الجزء الأكبر من الحزن ينتج عند تفكيرى بأنهم "لا يريدوننى أن أرحل عنهم، لا يريدون..لا يريدون..."، إننى أتمزق من الداخل كلما مر بذهنى هذا الخاطر.

أعلم بأن ذاكرتهم لن تحمل من ذكرياتى معهم إلا القليل، ولهذا السبب أحاول أن أفعل معهم أشياء لا تمحى أبد الدهر من ذاكرتهم، أتمنى أن ينعموا بذاكرة حادة قدر ما أمكن، لقد ذهبت أنا وديلان يومًا فى رحلة قصيرة قمنا فيها بالسباحة مع أحد

الدلافين، فمن الصعب أن ينسى طفل مغامرة مثل هذه، والتقطنا فى هذه الرحلة كثيرًا من الصور.

وأنا عازم على اصطحاب لوجان إلى عالم ديزنى، فهو مكان أعلم بأنه سيحتل مكاناً من الحب فى قلبه تمامًا كما أحببته أنا، فقد يرغب فى مقابلة ميكى ماوس، حيث قابلته أنا من ذى قبل وأستطع أن أمهد الطريق بينهما، وأنوى أنا وجاى أن نصطحب معنا ديلان أيضًا، حيث لن يكتمل تذكر لوجان لأى تجربة يخوضها الآن إلا إذا اصطحبنا معنا أخاه الأكبر لوجان وأشركناه معه فى خوض تلك التجربة.

ذكرياتى مع ديلان.

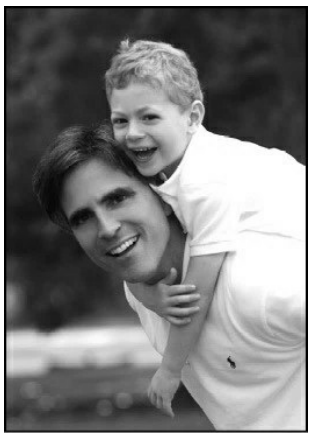

لوجان المفعم بالنشاط

فكل ليلة أسأل فيها لوجان قبل نومه عن أفضل أوقات يومه التى قضاها، يسمعنى إجابته المعتادة: "اللعب مع ديلان"، وعندما أسأله عن أسوأ أوقات يومه يقول لى أيضًا: "تلك التى قضيتها فى اللعب مع ديلان". يكفى أن أقول بأنهما مرتبطان ببعضهما البعض كأخوين أيما ارتباط.

أدرك يقينًا بأن كالوى لن تحمل ذاكرتها عنى شيئًا مطلقًا، فلاتزال صغيرة جدًا، ولكنى أريدها أن تعلم عندما تكبر أننى كنت أول إنسان أحاطها بحبه.

هناك العديد من الأشياء بإمكان جاى أن تخبرهم بها عنى عندما يتقدمون فى مراحلهم السنية، قد تحدثهم عنى حالة التفاؤل التى تلازمنى دائمًا، أو روح المرح التى أتحلى بها، أو معايير الجودة التى سعيت لتحقيقها طوال حياتى فى جميع ما أقدمت عليه من مهام، أو تحدثهم بشىء من اللباقة عن بعض الأشياء التى أثارت غضبى؛ وعن نظرتى التحليلية الشديدة التى نظرت بها للحياة، وإصرارى (الدائم) على أننى الأفضل، ولكن من طباع جاى أنها تتسم بالتواضع، فهى متواضعة أكثر منى بمراحل، لذا فقد لا تخبر الأولاد عن أشياء مثل: أنها حظيت بزوج أحبها حبًا جمًا، ولن تخبرهم بهذا الكم الهائل من التضحيات التى قدمتها فى سبيل سعادتنا، فالقيام على رعاية ثلاثة أطفال صغار كفيل باستنفاد قواها، فقد كانت نتيجة تواجدها مع زوج مصاب بالسرطان أنها لم تول اهتماماً لتلبية احتياجاتها بل عملت أولًا على الوفاء باحتياجات الآخرين، أريد أن يعرف أولادى ما قامت به جاى من إنكار للذات فى سبيل تقديم الرعاية لنا جميعًا.

تحدثت مؤخرًا مع أناس فقدوا آباءهم عندما كانوا صغارًا، أردت أن أعرف منهم ما الذى أعانهم على تخطى الأوقات العصيبة وما هى تلك الذكريات التى مثلت لهم مغذى فى حياتهم.

لقد أخبرونى بأنهم وجدوا السلوى فى أن يعلموا مدى الحب الذى كان يكنه لهم آباؤهم وأمهاتهم، وكلما زادت معرفتهم بهذا الحب زاد حبهم لآبائهم.

كما أرادوا كذلك أسبابًا تدعو للفخر بآبائهم؛ فلقد تمنوا أن لوكان آباؤهم أشخاصاً غير عاديين بما قدموه من إنجازات، فالبعض سعى وراء إبراز ما انفرد به آباؤه من إنجازات والبعض الآخر اختلق خرافات تقول بإنجازات خارقة لآبائه، ولكن كل ما كنت أتوق إليه أنا هو معرفة ماهية تلك الأشياء التى وضعت أولادهم بين مصاف المميزين من البشر.

لقد أخبرنى هؤلاء الناس بأشياء أخرى كذلك، وحقًا أن ذاكرتهم لا تحمل الكثير عن ذكرياتهم مع آبائهم، ولكنهم شعروا بالراحة لأن آباءهم فارقوا الحياة وذاكرتهم تحمل الكثير والكثير عن أبنائهم.

ولهذا، أريد أن يعرف أولادى بأن ذاكرتى تعج بالذكريات والمواقف التى شهدتها معهم.

دعونا نبدأ بـ ديلان: لكم يعجبنى فيه مشاعر الحب والعاطفة التى تملأ كيانه،

وهناك سمة أخرى يتميز بها ديلان: فهو ذو نظرة تحليلية مثله مثل أبيه، فهو بالفعل يدرك أن مكانة طرح الأسئلة تعلو مكانة الإجابة عنها ، فالعديد من الأطفال يسألون دومًا: "لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟" وإحدى القواعد التى نسير وفقها فى بيتنا هو عدم طرح أسئلة تتكون من كلمة واحدة، وهى الفكرة المحببة إلى ديلان، حيث يصيغ لنا أسئلة ذات جمل مفيدة لا تخرج إلا عن من هو أكبر من سنه، وأتذكر أن معلميه قبل التحاقه بالمدرسة كانوا مبهورين به حيث كانوا يخبروننا: "عندما تجلس مع ديلان تعجز عن فعل شيء سوى أن تحدث نفسك قائلاً: أود أن أعرف أى نوع من الناس سيكون هذا الولد عندما يصير شابًا".

كما أنه كذلك ملك حب الاستطلاع، فحيثما يكون ديلان تراه ينظر إلى مكان آخر ويفكر فيه وهكذا يقول لنا: "أوه، انظروا هناك شيء ما، دعونا نلق نظرة عليه أو نلمسه او نفككه" ، فمن عادة الأطفال عندما يرون جدارًا خشبيًا أبيض، أن يلتقطوا عصا ويطرقوا به أجزاء الجدار الخشبية فتحدث صوتًا يستمتعون بالاستماع إليه، أما ديلان فكان يلتقط عصا ويستخدمها فى انتزاع أحد الأخشاب المستخدمة فى إنشاء هذا الجدار ويضرب بها باقى أجزاء الجدار الخسبية فيحدث صوتًا أكبر نظرًا لكبر سمك القطعه الخشبية مقارنة بالعصا.

فما اشترك ديلان فى شيء إلا واتخذ شكل المغامرة، فعند ولادته مثلًا تعذر خروجه من قناة الولادة، وتطلب الأمر وجود طبيبين قام كل منهما باستخدام ملقاط الجراحة بجذبه حتى استطاعا أن يخرجاه من رحم أمه إلى عالمنا هذا، أتذكر مشهد أحد الأطباء أثناء ولادته، حيث كان يضع إحدى قدميه على الطاولة وهو يجذبه بكل ما أوتى من قوة، وفى أثناء هذا المشهد التفت لى الطبيب فى لحظة ما وقال لى: "لا تنزعج إن لم يفلح ما أقوم به الآن فهناك بدائل أخرى".

أما لوجان فقد كانت ولادته ولادة عسيرة، ففى ضوء المدة الطويلة التى مكثها لوجان فى قناة الولادة لم يحرك ذراعيه بعد ولادته، انتابنا جميعًا شعور بالقلق، ولكن بمجرد أن قام بتحريكهما لم يتوقف حقًا عن هزهما، فهو مفعم بالطاقة ذو مظهر بدنى متكامل ويحب الروح الاجتماعية، عندما يبتسم ترتسم الابتسامة على جميع أنحاء وجهه؛ فهو أفضل مثال على النمر الذى يحب روح المرح، وهو أيضًا طفل مستعد لجميع الأشياء ويقيم علاقات صداقه مع الجميع، لم يتجاوز حتى الآن الثالثة من عمره، ولكننى أتنبأ بأنه سيكون رئيس الجمعية الاجتماعية فى كليته عندما يكبر.

كالوى، كل ما أقوله عنها إنها طفلة، أقول ذلك وأنا تنتابنى نوعاً ما حالة من الشجن فحتى موعد ولادتها لم أكن أقف على هذه الحقيقة، كان من المقرر أن تولد عن طريق

عملية قيصرية، ولكن جاء جاى المخاض، وما هى إلا دقائق بعد أن وصلت بها إلى المستشفى وانزلقت كالوى من خارج رحمها (وهذا هو وصفى للمشهد، تقول جاى: كلمة "انزلقت" هو كل ما يستطيع الرجال أن يعبروا به عن هذا المشهد!) وعلى العموم، فإن إمساكى بكالوى للمرة الأولى عقب ولادتها، والنظر إلى وجهها الصغير، كان من أصعب اللحظات فى حياتى وأكثرها روحانية، ذلك هو ما شعرت به فى هذه اللحظة وإن اختلفت مع لحظة ولادة الأولاد، فأنا الآن أصبحت أحد أفراد نادى....

أحب النظر فى وجه كالوى، فعلى العكس من ديلان ولوجان اللذين يتسمان بالجرأة الشديدة، تجد أن كالوى تمتاز بالحرص، فلدينا على سبيل المثال بوابة أمان فى أعلى درجنا ولكن ليس لوجود هذه البوابة من داعٍ حيث تتسم جميع محاولاتها للوصول إلى هذه البوابة بالحرص التى لا تتعرض من خلاله لأى ضرر، ولكن مع تقدمها فى السن ورؤيتها لأخوين يعشقان النزول من أى درج كان دون شعور بالخوف من أى خطر، سيكون ذلك بمثابة تجربة جديدة عليها.

أحب أطفالى الثلاثة حبًا جمًا وعلى نحو مختلف، وأريدهم أن يعرفوا أننى سأظل احبهم مادمت حيًا، نعم مادمت حيًا.

وعلى الرغم من ذلك، ففى ضوء ما تبقى لى من أيام معدودات كان علىَّ أن أفكر فى كيفية تعزيز أواصر المحبة بينى وبينهم، لذا فأنا أنشىء قوائم مختلفة من ذكرياتى مع كل واحد منهم، حيث أقوم بتسجيل شرائط الفيديو حتى يتسنى لهم رؤيتى وأنا أتحدث عنهم وعن القيمة التى مثلوها لى فى حياتى، وأكتب لهم الخطابات، كما أرى أن محاضرتى الأخيرة - إلى جانب هذا الكتاب أيضًا - هى إرث يتحدث عنى أستطيع أن أتركه لهم، كما أحتفظ لهم أيضًا بسلة من البلاستيك مليئة بالرسائل البريدية التى تلقيتها فى الأسابيع التى تلت المحاضرة، فيومًا ما سيرغب الأطفال فى النظر فى تلك السلة، وأملى أن يدخل عليهم السرور عندما يرون أصدقاء لى وغرباء قد آثرونى بالاهتمام وشعروا بالإثارة عند حديثهم لى.

ولأننى متيم بالحديث عن أحلام الطفولة، فقد سألنى بعض الأشخاص مؤخرًا عن تلك الآمال التى تحدونى نحو أبنائى.

ولى إجابة مباشرة عن هذا السؤال.

أقول إنه من السيئ أن يحدد الآباء بأنفسهم أحلام صغارهم من الأطفال، فكأستاذ جامعى رأيت العديد من خريجى الجامعات حديثى العهد فى حالة من عدم السعادة وذلك لأنهم يتبوءون مناصب لم يرغبوا فيها، بل قدموا إليها نزولاً عن رغبة آبائهم وكانت النتيجة أن أخفقوا فى عملهم.

فأنا أرى أن وظيفة الآباء تتمثل فى تشجيع الأطفال على أن ينموا نظرتهم للحياة التى يعلوها الشعور بالبهجة والسعادة وأن يشجعوهم على تحقيق ما يراودهم هم من أحلام، إن أفضل ما فى وسعنا أن نقدمه لهم هو مساعدتهم على تطوير مجموعة شخصية من الأدوات التى تساعدهم على تحقيق هذه المهمة.

لذا أقول إن آمالى تجاه أولادى هى آمال محددة جدًا: أريدهم أن يحددوا أحلامهم ويسعوا لتحقيقها، وبما أننى لن أكون بينهم فى تلك الآونة، فأريد أن أوضح لهم ذلك: يا أطفالى الصغار لا تحاولوا يومًا أن تخمنوا ما الذى تمنيته لكم من أحلام، أريدكم أنتم أن تحلموا وتسعوا لتحقيق ما تحلمون به.

بعد أن اختلطت بالعديد من الطلاب الذين جاءوا لفصولى الدراسية، أدركت أن العديد من الآباء لا يعلمون مدى قوة تأثير كلماتهم على الأبناء، فمع الوضع فى الاعتبار المرحلة السنية للطفل ومدى تقديره لذاته، تقع كلمة الأب أو الأم الموجهة للطفل من نفسه موقعًا عظيمًا، وأنا لست على بينة من أمرى إذا ما كنت أعطيت لوجان بالفعل تصريحًا بأن يكون رئيسا لأجدى الجمعيات الاجتماعية، فأنا لا أرغب فى أن ينتهى به الحال فى الجامعة وهو يفكر فيما كنت أتوقعه له بأن يلتحق بإحدى الجمعيات الاجتماعية أو يكون رئيسًا لها، أو شيئًا من هذا القبيل، فهو حر فى حياته يحياها كيفما شاء، كل ما أريده فقط هو أن أدفع أولادى نحو إيجاد طريقهم بكل حماسة وبمزيد من الروح الوثابة، أريدهم أن يشعروا وكأننى معهم دائمًا أساندهم أيما كان طريقهم.

الفصل الستون
أنا وجاى

إن أى أسرة يعانى أحد أفرادها من مرض السرطان تعلم أن القائمين على الرعاية دائمًا ما يتم تهميشهم وينصب التركيز جميعًا على المرضى أنفسهم، حيث هم من تقدم لهم عبارات الإطراء ويلقون التعاطف من الجميع، فهؤلاء القائمون على رعاية المرضى يؤدون عملاً مجهدًا لخدمة مريضهم، وفى الوقت ذاته لا يمتلكون من الوقت ما يكفى للتعامل مع ما يشعرون به من ألم وما يصيبهم من حزن على أقاربهم.

وزوجتى واحدة من هولاء القائمين على رعاية مصاب بمرض السرطان، ليس هذا فقط بل لديها كذلك ثلاثة أطفال صغار توليهم بالرعاية، لذا عندما كنت أستعد لإلقاء محاضرتى الأخيرة، اتخذت قرارًا مع نفسى؛ حيث قلت لو كنت أنا بطل هذه المحاضرة فأريد ألا أنسى جاى، أريد أن أجد طريقة أعبر من خلالها للجميع عن مدى حبى وتقديرى لها.

وكان الأمر كالآتى: عندما اقتربت المحاضرة من النهاية، حيث كنت أستعرض الدروس التى تعلمتها فى حياتى، أوضحت أهمية التركيزعلى الدور الذى يلعبه الآخرون فى حياة المرء، لا أن يقصر المرء دائرة اهتمامه على نفسه فقط، وجهت نظرى إلى جمهور الحاضرين وسألتهم: "هل هناك مثال حى لأشخاص اتسعت دائرة تركيزهم لأناس غيرهم؟ هلا أبرزوا لنا أنفسهم!".

ولأن اليوم قبل الماضى لإلقاء المحاضرة كان موعد عيد ميلاد جاى، رتبت لأن أحضر معى كعكة كبيرة خاصة بأعياد الميلاد بها شمعة واحدة ووضعتها خارج المسرح على طاولة ذات عجل تقف فى انتظار طلب إحضارها لى، ومع قيام صديقة جاى "كليه شلوتر" بتحريك الطاولة وقدومها بالكعكة، أوضحت لجمهور الحاضرين فى القاعة أننى لم أحتفل بعيد ميلاد جاى على النحو اللائق، واعتقدت أنه سيكون أمرًا لطيفًا لو استطعت أن أجعل 400 فرد - وهو تعداد جمهور الحاضرين اليوم - يوقعون لـ جاى، فاشاد الجميع بالفكرة وبدأوا بالفعل يوقعون لها.

" عيد ميلاد سعيد . عيد ميلاد سعيد...."
أدركت أن البعض لا يعرف اسمها فقلت سريعًا: "زوجتى تدعى جاى...".
" عيد سعيد, عزيزتى جاى..."
لقد كان مشهدًا رائعًا، فحتى من تمتلئ بهم الغرفة المجاورة ممن يشاهدون المحاضرة على شاشات العرض، شرعوا كذلك فى التوقيع لها.
ومع ارتفاع أصوات الحاضرين بالغناء لـ جاى، سددت إليها بصرى أخيرًا، وجدتها تجلس فى الصف الأمامى تجفف دموعها وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة تدل على دهشتها، فيا لها من امرأة لطيفة- جمال وبشاشة ورضا ...
هناك العديد من الأشياء التى أتناولها بالمناقشة مع جاى عندما نأتى للحديث عن كيفية حياتها بعد رحيلى، إننى "المحظوظ" نعم غريب أن أطلق هذا الوصف على نفسى وأنا فى موقفى هذا، ولكننى أشعر بالفعل بأننى محظوظ نوعاً ما، حيث لم أتعرض للاصطدام بحافلة تودى بحياتى على الفور، فإصابتى بالسرطان منحتنى من الوقت ما يكفى لعقد مثل هذه المحادثات مع جاى والتى ما كان لها أن تعقد لو كان مصيرى التعرض لأزمة قلبية أو الاصطدام بحافلة.
عن ماذا نتحدث إذن؟
فى البداية، نحاول أن نتذكر معًا أن بعض أفضل النصائح على الإطلاق الخاصة بمنح الرعاية تستطيع أن تسمعها من المسئولين عن رحلات الطيران، حيث يقولون: "ارتد قناع الأكسجين أولاً قبل مساعدتك للآخرين". تعتبر جاى من هذا النوع من مانحى الرعاية فدائمًا ما تهمل العناية بنفسها، وعندما تخور قوى المرء البدنية وتتردى مشاعره العاطفية لا يستطيع أن يمد يده بالمساعدة للآخرين ولا حتى لأطفال صغار، لذا فأنا لا أرى أن اقتطاع وقت من يومك تنفرد فيه مع نفسك تحاول شحن طاقاتها من جديد لا يعد ضعفًا وما فيه من أنانية، وفى ضوء تجربتى كأب أجد أنه من الصعب أن تعيد شحن طاقاتك فى ظل وجود أطفال صغار، وتعلم جاى جيدًا أنه لابد لها من أن تولى نفسها بالاهتمام.
كما ذكرتها كذلك بأنها سترتكب أخطاء وعليها أن تتقبل هذه الأخطاء، وأخبرتها بأننى لو استطعت البقاء فى هذه الحياة فسأرتكب أخطاء أيضًا، فارتكاب الأخطاء جزء من عملية الأبوة، ولا يجب أن تعزى ارتكاب جميع الأخطاء إلى حقيقة أنها تقوم وحدها بتربية الأطفال.
بعض الآباء يقعون فى فخ محاولة تعويض أولادهم عن أحد الوالدين بإعطائهم بعض الأشياء المادية، أما جاى فتعلم أنه: ليس هناك فى الدنيا ما يعوض فقدان أحد

الوالدين، بل إن حصول الأطفال على أشياء مادية قد يتلف من ترسيخ القيم عند الطفل.

من المحتمل أن جاى، مثلها مثل العديد من الأمهات، ستواجه سنوات صعابًا مع بلوغ الأطفال سن المراهقة، ففى ضوء هذه الفترة من حياتى التى عشتها مع طلابى، أرجو أن أكون قد أثبت نجاحى طوال هذه المدة كأب لهم، صحيح أننى كنت أمتاز بحزمى الشديد فى التعليم، ولكننى كنت أفهم عقلية كل طالب، لذا فأنا آسف لأننى لن أكون موجودًا لمساعدة جاى فى تلك الآونة.

ومع ذلك، فهناك أخبار سارة وهى أن أناساً غيرى – من الأصدقاء والأسرة - سيمدون يد العون إلى جاى، ولا تنوى جاى رد أيديهم، فما يوجد من أطفال إلا وهم فى حاجة إلى وجود مجموعة من الأشخاص يحوطونهم بالحب، وعلى الأخص هؤلاء الأطفال الذين افتقدوا أحد الوالدين، وعندما أعود بذاكرتى للوراء وأفكر فى أمر والدىّ، أجد أنهما أدركا أنه ليس بإمكانهما أن يكونا هما فقط القوة الوحيدة المؤثرة فى حياتى، ولهذا السبب قادنى أبى للعب فى دورى كرة القدم الأمريكية مع المدرب جراهام، وعلى جاى أن تبحث للأطفال عن أشخاص كالمدرب جراهام.

وبالنسبة للسؤال الذى يفرض نفسه هنا، فتلك هى إجابتى عليه:

ان ما يهمنى فى المقام الأول هو سعادة جاى فى السنوات القادمة، لذا إن وجدت سبيل السعادة فى الزواج من بعدى فلا بأس عليها فى ذلك، وإن وجدت طريق السعادة فى أن تبقى أرملة دون زوج فلا بأس عليها أيضًا.

لقد بذلت أنا وجاى مجهودًا كبيرًا خلال رحلة زواجنا، فلقد بلغ بنا حد التواصل مبلغًا استطعنا معه أن يلبى كل منا احتياجات الآخر وأن نشد أزر بعضنا البعض وأن نجد العديد من الأشياء التى اجتمعنا على حبها، لذا ، فإنه ليحزننى ألا نستكمل مشوارنا على هذا النحو لثلاثين أو أربعين عامًا مقبلة، فنحن لا نريد أن نبدد كل ما بذلناه من جهد حتى الآن، ولا نريد أن تذهب ثمانى سنوات - هى عمر زواجنا - سدى.

أعلم أننى إلى الآن أتعامل مع إصابتى بالمرض بصورة طيبة، وكذلك جاى أيضًا، حيث تقول جاى: "مامن احد سيصرخ سواى". وهى تعنى ذلك بالفعل، ولكن بمنتهى الأمانة أقول إن المشاركة سيكون لها تأثير عظيم فى خفض حدة صرختها والتخفيف عنها فقد أثبتت قبل ذلك جدواها، فلقد مرت علينا أوقات عصيبة، صرخنا فيها معًا فى الفراش وخلدنا إلى النوم واستيقظنا منه وازدادت صرخاتنا، كان علينا أن نركز فى بعض المواقف على ما لدينا من مهام، فنحن لا نستطيع أن نجزئ أنفسنا، كنا نأخذ

قسطًا من النوم، لأن أحدنا يجب عليه أن يستيقظ مبكراً ليعد طعام الإفطار للأطفال، وهو الأمر التى كانت تفعله جاى غالبًا.

احتفلت مؤخرا بعيد ميلادى السابع والأربعين، واحتارت جاى فى الإجابة عن هذا السؤال: "ماذا أستطيع ان أقدم لحبيب فى آخر عيد ميلاد له؟ واختارت أن تأتى لى بساعة وتلفاز ذى شاشة كبيرة الحجم، وعلى الرغم من أننى لست من أنصار متابعة التلفاز- فهو أكثر الاختراعات البشرية مضيعة للوقت - إلا أننى رأيت أنه أنسب ما يقدم لى من هدايا، حيث سيتعين على أن ألزم فراشى فى قادم الأيام، وسيكون التلفاز هو حلقة الوصل الأخيرة بينى وبين العالم الخارجى.

تمر أيام تخبرنى فيها جاى بأشياء أقف معها عاجزًا عن إيجاد كلمات سوى القليل لكى أرد عليها بها، على سبيل المثال قالت لى: "لا أتخيل ألا يجمعنا غطاء واحد فى الفراش، ولا أتصور اصطحابى للأطفال فى رحلة دون وجودك معنا، إنك يا راندى عقلنا المدبر، فمن يدبر لنا شئون حياتنا من بعدك؟".

ولا يقلقنى هذا الأمر، فـ- جاى أهل لهذه المهمة.

* * *

حقًا راحت عن عقلى الكلمات وذهبت عنى العبارات وعجز لسانى عن الحديث بعد أن أنشد الحاضرون لـ- جاى قائلين: "عيد ميلاد سعيد"، حيث قامت جاى وتوجهت نحوى وأنا على المسرح فشعرت برجفة طبيعية تملكتنى، وأعتقد أن جاى هى الأخرى شعرت بها، تعانقنا وتبادلنا القبلات، حيث منحتها قبلة على شفتيها ثم بعد ذلك قبلت خديها، واصل الحاضرون التصفيق الذى سمعناه بأذننا، وكأنهم يحاولون إفساح الطريق أمامنا.

وبينما يحتضن بعضنا الآخر، إذ بـ- جاى تهمس فى أذنى:

"رجاء لا تمت".

بدا وكأنه حوار فى مشهد من مشاهد أفلام هوليود، ولكن كان هذا ما قالته بالفعل، فما كان منى إلا أن اشتد عناقى لها.

الفصل الحادي والستون
لايوجد عمل دنىء

انتابنى شعور بالقلق لعدة أيام، بأن التعب سينال منى وسأجد صعوبة فى الحديث قبل إنهائى للمحاضرة، لذا أعددت خطة للطوارئ، وضعت آخر ما عزمت على النطق به من عبارات فى محاضرتى على أربع قوائم على جهاز الكمبيوتر، بحيث لو حدث وأنهكنى التعب وأصبحت عاجزًا عن الحديث وأنا على خشبة المسرح، أقوم بالضغط على تلك القوائم فتظهر ما أردت الحديث به، وبعدها أقول لجمهور الحاضرين بكل بساطة: "شكرًا على حضوركم اليوم".

تجاوز وقوفى على خشبة المسرح ساعة كاملة، وفى ضوء الآثار الجانبية للعلاج الكيماوى وطول فترة الوقوف على قدمىّ، وما انتابنى من انفعالات وعاطفة جياشة بدأت أشعر بنفاد قوتى.

فى الوقت ذاته شعرت بالراحة وبتحقيق هدفى، فها هوعقد حياتى وقد انفرطت آخر حباته، لقد بدأت أولًا باستعراض قائمة أحلام طفولتى منذ أن كنت فى الثامنة من عمرى، والآن وبعد ثمانية وثلاثين عامًا أقول إن تلك الأحلام هى التى ساعدتنى على أن أقول ما احتجت إلى قوله فى هذه المحاضرة.

يرى العديد من مرضى السرطان أن إصابتهم بهذا المرض تتيح لهم فرصة للنظر بعمق فى قيمة الحياة وتقديرها، حتى أن البعض يقول إنهم مدينون بالفضل لمرضهم، اما أنا فلا أحمل لمرضى أى نوع من أنواع الجميل، على الرغم من أننى سعيد لمعرفتى بوفاتى مبكرًا، حيث أتيحت لى الفرصة كى أؤهل أسرتى للعيش دونى فى المستقبل، إلى جانب هذا امتلكت من الوقت ما يكفى للذهاب إلى جامعة كارنيجى ميلون وإلقاء محاضرتى الأخيرة، بعبارة أخرى لقد مكنتنى معرفتى بوفاتى مبكرًا من أن "أعتزل الملاعب وأنا فى كامل لياقتى".

كما امتد تأثير قائمة أحلام طفولتى ليخدم العديد من الأغراض، فبدونها لم أكن لأقدم الشكر لكل هولاء الذين ساعدونى فى حياتى، بالأحرى أود أن أقول إن هذه

القائمة الصغيرة من الأحلام مكنتنى من أن ألقى سلام الوداع لكل أولئك الذين مثلوا جزءاً من حياتى.

وهناك شىء آخر أود التنويه إليه، بما أننى خبير فى التكنولوجيا، أقول لكم بأننى لم أفهم تمامًا معظم الفنانين والممثلين ممن عرفتهم على مدار سنوات تعليمى لهم، فقد كانوا يتحدثون أحيانًا عن أشياء بداخلهم "يريدونها أن تنطلق من الداخل إلى الخارج"، أعتقد أن ذلك أشبه بإعطاء النفس القيادة (فى إشباع الشهوات). كان لابد أن أكون أكثر تعاطفًا، لقد علمتنى هذه الساعة التى قضيتها على المسرح ألقى فيها المحاضرة شيئاً ما (على الأقل ما زلت أتعلم!) فأنا لدى أشياء بداخلى فى حاجة ماسة لأن تخرج كى تعبر عن نفسها، إننى لم أقدم على إلقاء المحاضرة بسبب رغبتى فى إلقائها، بل لأننى كنت مضطرا إليها.

لقد جعلت كلماتى الأخيرة فى المحاضرة تفيض بالعاطفة وإنما فعلت ذلك لأن نهاية حديثى فى المحاضرة كان لابد من أن يكون خلاصة لما شعرت به تجاه نهاية حياتى.

وفى ظل ما شعرت به من ألم، استغرقت دقيقة أستعرض فيها بعض النقاط الرئيسية التى تناولتها فى المحاضرة، وبعدها قدمت ملخصًا للمحاضرة استعنت فيه بالكمبيوتر؛ كانت نهاية مدهشة.

قلت لهم: "إذن حديثى معكم اليوم كان عن تحقيق أحلام الطفولة، ولكن هل يستطيع أى منكم أن يدرك "خداع الرأس" أى الهدف الضمنى من وراء إلقائها؟".

توقفت قليلًا وساد الصمت المكان.

ثم قلت: "إن تلك المحاضرة لم تكن عن كيفية تحقيق الأحلام، بل عن كيفية إدراكك لمعنى حياتك، فلو استطعت أن تمضى فى حياتك على الدرب الصحيح، ستجد الموازنة فى تصرفاتك وستستطيع أن تحلم وتحقق أحلامك".

ثم نقرت بعد ذلك على القائمة التالية، فظهر سؤال ملأ الشاشة بأكملها وهو: "هل أدركتم الهدف الضمنى الثانى من وراء هذه المحاضرة؟".

التقطت نفسى، ثم ألقيت عليهم هذا السؤال بشىء من السرعة وكررته على مسامعهم مرةأخرى.

"هل أدركتم الهدف الضمنى الثانى من وراء إلقائى للمحاضرة".

وبعدها أخبرتهم بأن الهدف الثانى من وراء هذه المحاضرة لم يكن مخاطبة جموع الحاضرين الموجودين فى القاعة الآن بل "لمخاطبة أولادى".

ثم نقرت على آخر قائمة فانسدلت لتظهر صورتى وأنا أقف بجوار أرجوحتنا تعلو وجهى الابتسامة حاملًا لوجان على ذراعى اليمنى وكالوى الجميلة على ذراعى

اليسرى بينما يجلس ديلان بكل سعادة على كتفى.

شكر وتقدير

كل الشكر والتقدير لـ بوب ميلر وديفيد بلاك، وجراى موريس، وأود أن أتوجه بشكر خاص لمحرر هذا الكتاب، ويل باليت، على عظيم عطفه ونزاهته، كما أتوجه بالشكر الخالص لبوب زيسلوا على موهبته واحترافيته الرائعة فى الكتابة.

* * *

إن هذه الصفحة لن تسع جموع من أود أن أتوجه إليهم بالشكر لهم، لذا رجاء زوروا موقعى على الإنترنت www.thelastlecture.com لرؤية جميع من توجهت لهم بالشكر والثناء، كما يمكنكم رؤية محاضرتى الأخيرة كذلك من خلا ل هذا الموقع.

* * *

سأقضى نحبى جراء إصابتى بسرطان البنكرياس، وهذان اسما منظمتين مخصصتين فى مكافحة هذا المرض، عملت معهم:

The Pancreatic Cancer Action Network

www.pancan.org

The Lustrating

www.lustgarten.org

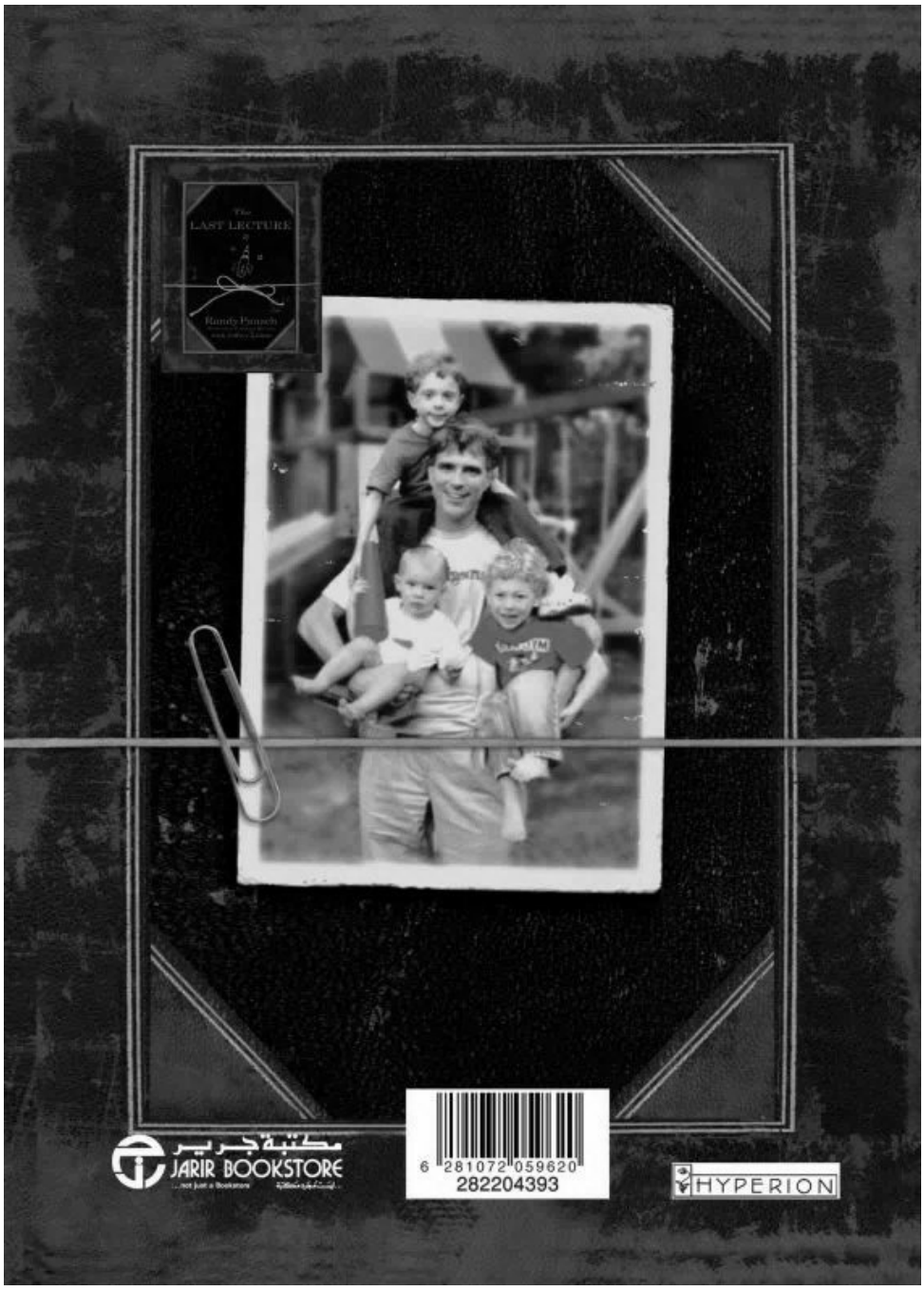
The
LAST LECTURE
Randy Pausch
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
6 281072 059620
282204393
HYPERION